

الجزء الثامن عشر

الطبعة الأولى

يطلب من ملتزم طبعه

عبد الرحمن محمد

ملتزم طبع المصحف الشريف بميدان الجامع الأزهر

طبع بالمطبعة البهية المصرية

١٣٥٧ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ «٤٥» قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٤٦» قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ «٤٧»

قوله تعالى ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إنى أعوذ بك أن اسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾

وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن قوله (رب إن ابنى من أهلى) فقد ذكرنا الخلاف فى أنه هل كان ابناً له أم لا فلا نعيده . ثم إنه تعالى ذكر أنه قال (يانوح إنه ليس من أهلك) واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه كان ابناً له وجب حمل قوله (إنه ليس من أهلك) على أحد وجهين : أحدهما : أن يكون المراد أنه ليس من أهل دينك . والثانى : المراد أنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك والقولان متقاربان .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب فان فى هذه الصورة

كانت قرابة النسب حاصله من أقوى الوجوه . ولكن لما انتفت قرابة الدين لاجرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله (إنه ليس من أهلك)

ثم قال تعالى ﴿إنه عمل غير صالح﴾ قرأ الكسائى : عمل على صيغة الفعل الماضى ، وغير بالنصب ، والمعنى : أن ابنك عمل عملا غير صالح يعنى أشرك وكذب ، وكلمة (غير) نصب ، لأنها نعت لمصدر محذوف ، وقرأ الباقون : عمل بالرفع والتنوين ، وفيه وجهان : الأول : أن الضمير فى قوله إنه عائد الى السؤال ، يعنى أن هذا السؤال عمل وهو قوله (ان ابنى من أهلى وإن وعدك الحق) غير صالح . لأن طلب نجاة الكافر بعد أن سبق الحكم ، الجزم بأنه لا ينجى أحداً منهم سؤال باطل . الثانى : أن يكون هذا الضمير عائدا الى الابن ، وعلى هذا التقدير ففى وصفه بكونه عملا غير صالح وجوه : الأول : أن الرجل اذا كثر عمله وإحسانه يقال له : إنه علم وكرم وجود ، فكذا ههنا لما كثر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه فى نفسه عمل باطل . الثانى : أن يكون المراد أنه ذو عمل باطل ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه . الثالث : قال بعضهم معنى قوله (إنه عمل غير صالح أى أنه ولد زنا وهذا القول باطل قطعاً .

ثم انه تعالى قال لنوح عليه السلام ﴿فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ احتج بهذه الآية من قدح فى عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن قراءة عمل بالرفع والتنوين قراءة متواترة فهى محكمة ، وهذا يقتضى عود الضمير فى قوله (إنه عمل غير صالح) إما إلى ابن نوح وإما إلى ذلك السؤال . فالقول بأنه عائد إلى ابن نوح لا يتم إلا باضمار وهو خلاف الظاهر . ولا يجوز المصير اليه الا عند الضرورة ولا ضرورة ههنا . لأنا إذا حكمنا بعود الضمير الى السؤال المتقدم فقد استغنينا عن هذا الضمير ، فثبت أن هذا الضمير عائد الى هذا السؤال ، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح . أى قولك : إن ابنى من أهلى لطلب نجاته عمل غير صالح ، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنبا ومعصية .

﴿الوجه الثانى﴾ أن قوله (فلا تسألن) نهى له عن السؤال . والمذكور السابق هو قوله إن ابنى من أهلى) فدل هذا على أنه تعالى نهاه عن ذلك السؤال فكان ذلك السؤال ذنبا ومعصية

﴿الوجه الثالث﴾ أن قوله (فلا تسألن ماليس لك به علم) يدل على أن ذلك السؤال كان قد صدر لا عن العلم . والقول بغير العلم ذنب لقوله تعالى (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)

﴿الوجه الرابع﴾ أن قوله تعالى (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) يدل على أن ذلك السؤال

كان محض الجهل . وهذا يدل على غاية التقريع ونهاية الزجر ،وأيضا جعل الجهل كناية عن الذنب، مشهور فى القرآن . قال تعالى (يعملون السوء بجهالة) وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين)

﴿الوجه الخامس﴾ أن نوحاً عليه السلام اعترف باقدامه على الذنب والمعصية فى هذا المقام فانه قال (إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) واعترافه بذلك يدل على أنه كان مذنباً .

﴿الوجه السادس﴾ فى التمسك بهذه الآية أن هذه الآية تدل على أن نوحاً نادى ربه لطلب تخليص ولده من الغرق ، والآية المتقدمة وهى قوله (ونادى نوح ابنه) وقال (يابنى اركب معنا) تدل على أنه عليه السلام طلب من ابنه الموافقة . فنقول : إما أن يقال إن طلب هذا المعنى من الله كان سابقاً على طلبه من الولد أو كان بالعكس . والأول باطل . لأن بتقدير أن يكون طلب هذا المعنى من الله تعالى سابقاً على طلبه من الابن لكان قد سمع من الله أنه تعالى لايخلص ذلك الابن من الغرق ، وأنه تعالى نهاه عن ذلك الطلب . وبعد هذا كيف قال له (يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) وأما إن قلنا : إن هذا الطلب من الابن كان متقدماً فكان قد سمع من الابن قوله (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وظهر بذلك كفره . فكيف طلب من الله تخليصه ، وأيضاً أنه تعالى أخبر أن نوحاً لما طلب ذلك منه وامتنع هو صار من المغرقين فكيف يطلب من الله تخليصه من الغرق بعد أن صار من المغرقين . فهذه الآية من هذه الوجوه الستة تدل على صدور المعصية من نوح عليه السلام .

واعلم أنه لما دلت الدلائل الكثيرة على وجوب تنزيه الله تعالى الأنبياء عليهم السلام من المعاصى ، وجب حمل هذه الوجوه المذكورة على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلهذا السبب حصل هذا العتاب والأمر بالاستغفار . ولا يدل على سابقة الذنب كما قال (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره) ومعلوم أن مجىء نصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجاً ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال تعالى (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وليس جميعهم مذنبين ، فدل ذلك على أن الاستغفار قد يكون بسبب ترك الأفضل .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع برواية ورش وإسمعيل بتشديد النون وإثبات الياء (تسألنى) وقرأ ابن عامر ونافع برواية قالون بتشديد النون وكسرها من غير إثبات الياء . وقرأ أبو عمرو بتخفيف

النون وكسرها وحذف الياء (تسألن) أما التشديد فللتأكيد وأما إثبات الياء فعلى الأصل وأما ترك التشديد والحذف فللتخيف من غير إخلال .

واعلم أنه تعالى لما نهاه عن ذلك السؤال حكى عنه أنه قال (رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) والمعنى أنه تعالى لما قال له (فلا تسألن ماليس لك به علم) فقال عند ذلك قبلت يارب هذا التكليف ، ولا أعود اليه إلا أنى لا أقدر على الاحتراز منه إلا باعانتك وهدايتك ، فلهذا بدأ أولا بقوله (إنى أعوذ بك)

واعلم أن قوله (إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم) إخبار عما فى المستقبل ، أى لا أعود إلى هذا العمل . ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى ، فقال (وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) وحقيقة التوبة تقتضى أمرين : أحدهما : فى المستقبل ، وهو العزم على الترك واليه الاشارة بقوله (إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم) والثانى : فى الماضى وهو الندم على مامضى واليه الاشارة بقوله (وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) ونختم هذا الكلام بالبحث عن الزلة التى صدرت عن نوح عليه السلام فى هذا المقام . فنقول : إن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام كافر يظهر كفره . ومؤمن يعلم إيمانه . وجمع من المنافقين ، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة . وحكم الكافرين هو الغرق ، وكان ذلك معلوماً ، وأما أهل النفاق فبقى حكمهم مخفياً . وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمناً ، وكانت الشفقة المفرطة التى تكون من الأب فى حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله . لا على كونه كافراً ، بل على الوجوه الصحيحة ، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجرى مجرى الركوب فى السفينة فى أنه يصونه عن الغرق ، وقول نوح (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الايمان والعمل الصالح ، وهذا أيضاً لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كان كافرا فعند هذه الحالة كان قد بقى فى قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن ، فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق . إما بأن يمكنه من الدخول فى السفينة ، وإما أن يحفظه على قلة جبل ، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه ، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص فى تعريف مايدل على نفاقه وكفره ، بل اجتهد فى ذلك وكان يظن أنه مؤمن . مع أنه أخطأ فى ذلك الاجتهاد . لأنه كان كافراً فلم يصدر عنه إلا الخطأ فى هذا الاجتهاد . كما قررنا ذلك فى أن آدم عليه السلام لم تصدر عنه تلك الزلة إلا لأنه أخطأ فى الاجتهاد ، فثبت بما ذكرنا أن الصادر عن نوح عليه السلام ما كان من باب الكبائر وإنما هو من باب الخطأ فى الاجتهاد . والله أعلم .

قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ «٤٨»

قوله تعالى ﴿قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم﴾

وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه تعالى أخبر عن السفينة أنها استوت على الجودى . فهناك قد خرج نوح وقومه من السفينة لامحالة ، ثم إنهم نزلوا من ذلك الجبل إلى الأرض فقوله (اهبط) يحتمل أن يكون أمراً بالخروج من السفينة إلى أرض الجبل . وأن يكون أمراً بالهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية .

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولا ، ثم بالبركة ثانياً ، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى أخبر فى الآية المتقدمة أن نوحا عليه السلام تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله (وإلا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين) وهذا التضرع هو عين التضرع الذى حكاه الله تعالى عن آدم عليه السلام عند توبته من زلته وهو قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) فكان نوح عليه السلام محتاجاً إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له (يانوح اهبط بسلام منا) حصل له الأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين . والثانى : أن ذلك الغرق لما كان عاما فى جميع الأرض فعند ماخرج نوح عليه السلام من السفينة علم أنه ليس فى الأرض شىء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالخائف فى أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى (اهبط بسلام منا) زال عنه ذلك الخوف ، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة وهى عبارة عن الدوام والبقاء . والثبات ، ونيل الأمل . ومنه بروك الابل ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها ، ومنه تبارك وتعالى ، أى ثبت تعظيمه ، ثم اختلف المفسرون فى تفسير هذا الثبات والبقاء .

﴿فالقول الأول﴾ أنه تعالى صير نوحاً أبا البشر ، لأن جميع من بقى كانوا من نسله وعند هذا

قال هذا القائل : إنه لما خرج نوح من السفينة مات كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته ، فالخلق كلهم من نسله وذريته ، وقال آخرون : لم يكن فى سفينة نوح عليه السلام إلا من كان من نسله وذريته ، وعلى التقديرين فالخلق كلهم إنما تولدوا منه ومن أولاده . والدليل عليه قوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) فثبت أن نوحاً عليه السلام كان آدم الأصغر ، فهذا هو المراد من البركات التى وعده الله بها .

﴿والقول الثانى﴾ أنه تعالى لما وعده بالسلامة من الآفات ، وعده بأن موجبات السلامة ، والراحة والفراغة يكون فى التزايد والثبات والاستقرار . ثم إنه تعالى لما شرفه بالسلامة والبركة شرح بعده حال أولئك الذين كانوا معه فقال (وعلى أمم ممن معك) واختلفوا فى المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات . لأنه ما كان فى ذلك الوقت فى جميع الأرض أحد من البشر إلا هم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً ، ومنهم من قال : بل المراد ممن معك نسلا وتولداً قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقلة فى قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل) ومنهم من قال : المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك . والمختار هو القول الثانى (ومن) فى قوله (ممن معك) لابتداء الغاية ، والمعنى : وعلى أمم ناشئة من الذين معك .

واعلم أنه تعالى جعل تلك الأمم الناشئة من الذين معه على قسمين : أحدهما : الذين عطفهم على نوح فى وصول سلام الله وبركاته اليهم وهم أهل الايمان . والثانى : أمم وصفهم بأنه تعالى سيمتعهم مدة فى الدنيا ثم فى الآخرة يمسهم عذاب أليم ، فحكم تعالى بأن الأمم الناشئة من الذين كانوا مع نوح عليه السلام لابد وأن ينقسموا الى مؤمن ، والى كافر . قال المفسرون : دخل فى تلك السلامة كل مؤمن وكل مؤمنة الى يوم القيامة ، ودخل فى ذلك المتاع وفى ذلك العذاب كل كافر وكافرة الى يوم القيامة ، ثم قال أهل التحقيق : إنه تعالى إنما عظم شأن نوح بايصال السلامة والبركات منه اليه ، لأنه قال (بسلام منا) وهذا يدل على أن الصديقين لايفرحون بالنعمة من حيث أنها نعمة . ولكنهم انما يفرحون بالنعمة من حيث أنها من الحق ، وفى التحقيق يكون فرحهم بالحق وطلبهم للحق وتوجههم الى الحق ، وهذا مقام شريف لايعرفه الا الخواص الله تعالى ، فان الفرح بالسلامة وبالبركة من حيث هما سلامة وبركة غير ، والفرح بالسلامة والبركة من حيث أنهما من الحق غير . والأول : نصيب عامة الخلق . والثانى : نصيب المقربين ، ولهذا السبب قال بعضهم : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى ، ومن آثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف فقد خاض لجة

تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ «٤٩»

الوصول ، وأما أهل العقاب فقد قال فى شرح أحوالهم (وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) فحكم بأنه تعالى يعطيهم نصيباً من متاع الدنيا فدل ذلك على خساسة الدنيا ، فانه تعالى لما ذكر أحوال المؤمنين لم يذكر البتة أنه يعطيهم الدنيا أم لا . ولما ذكر أحوال الكافرين ذكر أنه يعطيهم الدنيا ، وهذا تنبيه عظيم على خساسة السعادات الجسمانية والترغيب فى المقامات الروحانية .

قوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال (تلك) أى تلك الآيات التى ذكرناها ، وتلك التفاصيل التى شرحناها من أنباء الغيب ، أى من الأخبار التى كانت غائبة عن الخلق فقوله (تلك) فى محل الرفع على الابتداء ، و(من أنباء الغيب) الخبر و(نوحيها إليك) خبر ثان وما بعده أيضا خبر ثالث .

ثم قال تعالى ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾ والمعنى : أنك ما كنت تعرف هذه القصة ، بل قومك ما كانوا يعرفونها أيضاً ، ونظيره أن تقول لانسان لا تعرف هذه المسألة لا أنت ولا أهل بلدك :

فان قيل : أليس قد كانت قصة طوفان نوح عليه السلام مشهورة عند أهل العلم ؟

قلنا : تلك القصة بحسب الاجمال كانت مشهورة ، أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة

ثم قال ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ والمعنى : يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار . وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه .

فان قال قائل : إنه تعالى ذكر هذه القصة فى سورة يونس ثم إنه أعادها ههنا مرة أخرى ، فما الفائدة فى هذا التكرير ؟

قلنا : إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه : فى السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب ، فذكر تعالى قصة نوح فى بيان أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ «٥٠» يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٥١»

ثم فى العاقبة ظهر . فكذا فى واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى هذه السورة ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون فى الايحاش . فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا فى زمان نوح ، إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر . فكن يامحمد كذلك لتنال المقصود ، ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة فى كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الفائدة .

قوله تعالى ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثانية من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة . واعلم أن هذا معطوف على قوله (ولقد أرسلنا نوحا) والتقدير : ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا وقوله (هوداً) عطف بيان .

واعلم أنه تعالى وصف هوداً بأنه أخوهم . ومعلوم أن تلك الاخوة ماكانت فى الدين . وإنما كانت فى النسب ، لأن هوداً كان رجلا من قبيلة عاد . وهذه القبيلة كانت قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن ، ونظيره مايقال للرجل ياأخا تميم وياأخا سليم . والمراد رجل منهم .

فان قيل : إنه تعالى ، قال: فى ابن نوح (إنه ليس من أهلك) فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين . وههنا أثبت هذه الاخوة مع الاختلاف فى الدين . فما الفرق بينهما ؟

قلنا : المراد من هذا الكلام استمالة قوم محمد صلى الله عليه وسلم . لأن قومه كانوا يستبعدون فى محمد مع أنه واحد من قبيلتهم أن يكون رسولا اليهم من عند الله . فذكر الله تعالى أن هوداً كان واحداً من عاد . وأن صالحا كان واحداً من ثمود لازالة هذا الاستبعاد .

واعلم أنه تعالى حكى عن هود عليه السلام ، أنه دعا قومه إلى أنواع من التكاليف .

﴿فالنوع الأول﴾ أنه دعاهم إلى التوحيد ، فقال (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم

إلا مفترون) وفيه سؤال وهو أنه كيف دعاهم إلى عبادة الله تعالى قبل أن أقام الدلالة على ثبوت الاله تعالى ؟

قلنا : دلائل وجود الله تعالى ظاهرة ، وهى دلائل الآفاق والأنفس . وقلما توجد فى الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله تعالى ، ولذلك قال تعالى فى صفة الكفار (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)

قال مصنف هذا الكتاب : محمد بن عمر الرازى رحمه الله وختم له بالحسنى ، دخلت بلاد الهند فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الاله ، وأكثر بلاد الترك أيضا كذلك ، وانما الشأن فى عبادة الأوثان ، فانها آفة عمت أكثر أطراف الأرض . وهكذا الأمر كان فى الزمان القديم ، أعنى زمان نوح وهود وصالح عليهم السلام ، فهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كانوا يمنعونهم من عبادة الأصنام ، فكان قول (اعبدوا الله) معناه لاتعبدوا غير الله . والدليل عليه أنه قال عقيبه (مالكم من إله غيره) وذلك يدل على أن المقصود من هذا الكلام منعهم عن الاشتغال بعبادة الأصنام .

وأما قوله ﴿مالكم من إله غيره﴾ فقرىء (غيره) بالرفع صفة على محل الجار والمجرور ، وقرىء بالجر صفة على اللفظ .

ثم قال ﴿إن أنتم الا مفترون﴾ يعنى أنكم كاذبون فى قولكم إن هذه الأصنام تحسن عبادتها ، أو فى قولكم إنها تستحق العبادة ، وكيف لايكون هذا كذبا وافتراء وهى جمادات لاحس لها ولا ادراك ، والانسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالانسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع الجبهة على التراب تعظيما لها ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لما أرشدهم الى التوحيد ومنعهم عن عبادة الأوثان قال و(ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى الا على الذى فطرنى) وهو عين ماذكره نوح عليه السلام . وذلك لأن الدعوة الى الله تعالى اذا كانت مطهرة عن دنس الطمع ، قوى تأثيرها فى القلب .

ثم قال ﴿افلا تعقلون﴾ يعنى أفلا تعقلون أنى مصيب فى المنع من عبادة الأصنام ، وذلك لأن العلم بصحة هذا المنع ، كأنه مركوز فى بدائه العقول .

وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ «٥٢»

قوله تعالى ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثانى من التكاليف التى ذكرها هود عليه السلام لقومه . وذلك لأنه فى المقام الأول دعاهم إلى التوحيد ، وفى هذا المقام دعاهم إلى الاستغفار ثم إلى التوبة ، والفرق بينهما قد تقدم فى أول هذه السورة . قال أبو بكر الأصم : استغفروا . أى سلوه أن يغفر لكم ماتقدم من شرككم ثم توبوا من بعده بالندم على مامضى . وبالعزم على أن لاتعودوا إلى مثله ، ثم إنه عليه السلام قال «إنكم متى فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم عندكم ويقويكم على الانتفاع بتلك النعم» وهذا غاية ما يراد من السعادات . فان النعم إن لم تكن حاصلة تعذر الانتفاع وإن كانت حاصلة ، إلا أن الحيوان قام به المنع من الانتفاع بها لم يحصل المقصود أيضا ، أما إذا كثرت النعمة وحصلت القوة الكاملة على الانتفاع بها ، فههنا تحصل غاية السعادة والبهجة فقوله تعالى (يرسل السماء عليكم مدرارا) إشارة الى تكثير النعم لأن مادة حصول النعم هى الأمطار الموافقة ، وقوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) إشارة الى كمال حال القوى التى بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة ، ولاشك أن هذه الكلمة جامعة فى البشارة بتحصيل السعادات . وأن الزيادة عليها ممتنعة فى صريح العقل ، ويجب على العاقل أن يتأمل فى هذه اللطائف ليعرف مافى هذا الكتاب الكريم من الأسرار المخفية ، وأما المفسرون فانهم قالوا القوم كانوا مخصوصين فى الدنيا بنوعين من الكمال : أحدهما : أن بساتينهم ومزارعهم كانت فى غاية الطيب والبهجة ، والدليل عليه قوله (إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد) والثانى : أنهم كانوا فى غاية القوة والبطش ولذلك قالوا : من أشد منا قوة ، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام . أنهم لو تركوا عبادة الاصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فان الله تعالى يقوى حالهم فى هذين المطلوبين ويزيدهم فيها درجات كثيرة ، ونقل أيضا أن الله تعالى لما بعث هوداً عليه السلام إليهم وكذبوه وحبس الله عنهم المطر سنين وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود : إن آمنتم بالله أحيا الله بلادكم ورزقكم المال والولد . فذلك قوله (يرسل السماء عليكم مدراراً) والمدرار الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة وقوله (ويزدكم قوة إلى قوتكم) ففسروا هذه القوة بالمال والولد ، والشدة فى الأعضاء . لأن كل ذلك مما يتقوى به الانسان .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «٥٣» إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ «٥٤» مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ «٥٥» إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٥٦»

فان قيل : حاصل الكلام هو أن هوداً عليه السلام قال : لو اشتغلتم بعبادة الله تعالى لانفتحت عليكم ابواب الخيرات الدنيوية ، وليس الأمر كذلك ، لأنه عليه الصلاة والسلام قال «خص البلاء بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل» فكيف الجمع بينهما . وأيضاً فقدجرت عادة القرآن بالترغيب فى الطاعات بسبب ترتيب الخيرات الدنيوية والأخروية عليها ، فأما الترغيب فى الطاعات ، لأجل ترتيب الخيرات الدنيوية عليها ، فذلك لا يليق بالقرآن بل هو طريق مذكور فى التوراة .

الجواب : أنه لما أكثر الترغيب فى السعادات الأخروية لم يبعد الترغيب أيضاً فى خير الدنيا بقدر الكفاية .

وأما قوله ﴿ولا تتولوا مجرمين﴾ فمعناه : لاتعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه وأرغبكم فيه مجرمين أى مصرين على إجرامكم وآثامكم .

قوله تعالى ﴿قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن هود عليه السلام ماذكره للقوم ، حكى أيضاً ماذكره القوم له وهو أشياء : أولها : قولهم (ماجئتنا ببينة) أى بحجة ، والبينة سميت بينة لأنها تبين الحق من الباطل ، ومن المعلوم أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزات إلا أن القوم بجهلهم أنكروها ، وزعموا أنه ماجاء بشىء من المعجزات . وثانيها : قولهم (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) وهذا أيضاً ركيك ، لأنهم

كانوا يعترفون بأن النافع والضار هو الله تعالى وأن الأصنام لاتنفع ولا تضر . ومتى كان الأمر كذلك فقد ظهر فى بديهة العقل أنه لاتجوز عبادتها وتركهم آلهتهم لايكون عن مجرد قوله بل عن حكم نظر العقل وبديهة النفس . وثالثها : قوله (وما نحن لك بمؤمنين) وهذا يدل على الاصرار والتقليد والجحود . ورابعها : قولهم (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يقال : اعتراه كذا إذا غشيه وأصابه . والمعنى : أنك شتمت آلهتنا فخلتك بجنوناً وأفسدت عقلك . ثم إنه تعالى ذكر أنهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) وهو ظاهر .

ثم قال ﴿فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون﴾ وهذا نظير ماقاله نوح عليه السلام لقومه (فاجمعوا أمركم وشركاءكم) إلى قوله (ولا تنظرون)

واعلم أن هذا معجزة قاهرة . وذلك أن الرجل الواحد إذا أقبل على القوم العظيم وقال لهم : بالغوا فى عداوتى وفى موجبات إيذائى ولا تؤجلون فانه لايقول هذا الا اذا كان واثقاً من عند الله تعالى بأنه يحفظه ويصونه عن كيد الأعداء .

ثم قال ﴿مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها﴾ قال الأزهرى : الناصية عند العرب منبت الشعر فى مقدم الرأس . ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته .

واعلم أن العرب اذا وصفوا انساناً بالذلة والخضوع . قالوا : ماناصية فلان الا بيد فلان ، أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته ، وكانوا اذا أسروا الأسير فأرادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره . فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون فقوله (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) أى مامن حيوان الا وهو تحت قهره وقدرته . ومنقاد لقضائه وقدره

ثم قال ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ وفيه وجوه : الأول : أنه تعالى لما قال (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أشعر ذلك بقدرة عالية وقهر عظيم فأتبعه بقوله (إن ربى على صراط مستقيم) أى أنه وإن كان قادراً عليهم لكنه لايظلمهم ولا يفعل بهم الا ماهو الحق والعدل والصواب . قالت المعتزلة قوله (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) يدل على التوحيد وقوله (ان ربى على صراط مستقيم) يدل على العدل . فثبت أن الدين انما يتم بالتوحيد والعدل . الثانى : أنه تعالى لما ذكر أن سلطانه قهر جميع الخلق أتبعه بقوله (إن ربى على صراط مستقيم) يعنى أنه لايخفى عليه مستتر . ولا يفوته هارب . فذكر الصراط المستقيم وهو يعنى به الطريق الذى لايكون لأحد مسلك الا عليه ، كما قال (إن ربك لبالمرصاد) الثالث : ان يكون المراد (إن ربى) يدل على الصراط المستقيم . أى يحث ، أو يحملكم بالدعاء اليه .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ «٥٧» وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ «٥٨» وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ «٥٩» وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ «٦٠»

قوله تعالى ﴿فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت ماأرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ﴾

اعلم أن قوله (فان تولوا) يعنى فان تتولوا ثم فيه وجهان: الأول تقدير الكلام فان تتولوا لم أعاتب على تقصير فى الابلاغ وكنتم محجوجين كأنه يقول: أنتم الذين أصررتم على التكذيب. الثانى (فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم)

ثم قال ﴿ويستخلف ربى قوماً غيركم﴾ يعنى يخلق بعدكم من هو أطوع لله منكم. وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال ولا تضرونه شيئاً، يعنى أن إهلاككم لا ينقص من ملكه شيئاً.

ثم قال ﴿إن ربى على كل شىء حفيظ﴾ وفيه ثلاثة أوجه: الأول: حفيظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها. الثانى: يحفظنى من شركم ومكركم. الثالث: حفيظ على كل شىء يحفظه من الهلاك إذا شاء ويهلكه إذا شاء.

قوله تعالى ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾

اعلم أن قوله (ولما جاء أمرنا) أى عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم. عذبهم الله بها سبع ليال وثمانية أيام، تدخل فى مناخرهم وتخرج من أدبارهم وتصرعهم على الأرض على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية.

فان قيل : فهذه الريح كيف توثر فى إهلاكهم ؟

قلنا : يحتمل أن يكون ذلك لشدة حرها أو لشدة بردها أو لشدة قوتها ، فتخطف الحيوان من الأرض ، ثم تضربه على الأرض ، فكل ذلك محتمل .

وأما قوله ﴿نجينا هودا﴾ فاعلم أنه يجوز إتيان البلية على المؤمن وعلى الكافر معا ، وحينئذ تكون تلك البلية رحمة على المؤمن وعذابا على الكافر . فأما العذاب النازل بمن يكذب الأنبياء عليهم السلام فانه يجب فى حكمة الله تعالى أن ينجى المؤمن منه ، ولولا ذلك لما عرف كونه عذاباً على كفرهم ، فلهذا السبب قال الله تعالى ههنا (نجينا هودا والذين آمنوا معه)

وأما قوله ﴿برحمة منا﴾ ففيه وجوه : الأول : أراد أنه لاينجو أحد وإن اجتهد فى الايمان والعمل الصالح إلا برحمة من الله . والثانى : المراد من الرحمة : ماهداهم اليه من الايمان بالله والعمل الصالح . الثالث : أنه رحمهم فى ذلك الوقت ، وميزهم عن الكافرين فى العقاب :

وأما قوله ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ فالمراد من النجاة الأولى : هى النجاة من عذاب الدنيا ، والنجاة الثانية من عذاب القيامة ، وإنما وصفه بكونه غليظا؟ تنبيها على أن العذاب الذى حصل لهم بعد موتهم بالنسبة الى العذاب الذى وقعوا فيه كان عذابا غليظا ، والمراد من قوله تعالى (ونجيناهم) أى حكمنا بأنهم لايستحقون ذلك العذاب الغليظ ولا يقعون فيه .

واعلم أنه تعالى لما ذكر قصة عاد خاطب قوم محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال (وتلك عاد) فهو إشارة الى قبورهم وآثارهم ، كأنه تعالى قال : سيروا فى الأرض فانظروا اليها واعتبروا . ثم إنه تعالى جمع أوصافهم ثم ذكر عاقبة أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، فأما أوصافهم فهى ثلاثة .

﴿الصفة الأولى﴾ قوله (جحدوا بآيات ربهم) والمراد : جحدوا دلالة المعجزات على الصدق ، أو الجحد . ودلالة المحدثات على وجود الصانع الحكيم ، إن ثبت أنهم كانوا زنادقة .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (وعصوا رسله) والسبب فيه أنهم إذا عصوا رسولا واحداً ، فقد عصوا جميع الرسل لقوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله) وقيل : لم يرسل إليهم إلا هود عليه السلام .

﴿الصفة الثالثة﴾ قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) والمعنى أن السفلة كانوا يقلدون الرؤساء فى قولهم (ماهذا إلا بشر مثلكم) والمراد من الجبار المرتفع المتمرد العنيد العنود والمعاند ، وهو المنازع المعارض .

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ «٦١» قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ «٦٢»

واعلم أنه تعالى لما ذكر أوصافهم ذكر بعد ذلك أحوالهم فقال (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى جعل اللعن رديفاً لهم، ومتابعاً ومصاحباً فى الدنيا وفى الآخرة، ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير.

ثم إنه تعالى بين السبب الأصلى فى نزول هذه الأحوال المكروهة بهم فقال ﴿ألا إن عاداً كفروا ربهم﴾ قيل: أراد كفروا بربهم فحذف الباء، وقيل: الكفر هو الجحد. فالتقدير: ألا إن عاداً جحدوا ربهم. وقيل: هو من باب حذف المضاف أى كفروا نعمة ربهم،

ثم قال ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ وفيه سؤالان:

﴿السؤال الأول﴾ اللعن هو البعد، فلما قال (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) فما الفائدة فى قوله (ألا بعداً لعاد)

والجواب: التكرير بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد.

﴿السؤال الثانى﴾ ماالفائدة فى قوله (لعاد قوم هود)

الجواب: كان عاد. عادين، فالأولى: القديمة هم قوم هود، والثانية: هم إرم ذات العماد، فذكر ذلك لازالة الاشتباه. والثانى: أن المبالغة فى التنصيص تدل على مزيد التأكيد.

. قوله تعالى ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه إن ربى قريب مجيب قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب﴾

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة. وهى قصة صالح مع ثمود، ونظمها مثل النظم المذكور فى قصة هود، الا أن ههنا لما أمرهم بالتوحيد ذكر فى تقريره دليلين:

﴿الدليل الأول﴾ قوله (هو أنشأكم من الأرض) وفيه وجهان:

﴿الوجه الأول﴾ أن الكل مخلوقون من صلب آدم ، وهو كان مخلوقا من الأرض . وأقول : هذا صحيح لكن فيه وجه آخر وهو أقرب منه . وذلك لأن الانسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث ، والمنى إنما تولد من الدم . فالانسان مخلوق من الدم . والدم إنما تولد من الأغذية ، وهذه الأغذية إماحيوانية وإما نباتية . والحيوانات حالها كحال الانسان ، فوجب انتهاء الكل الى النبات وظاهر أن تولد النبات من الأرض ، فثبت أنه تعالى أنشأنا من الأرض .

﴿والوجه الثانى﴾ أن تكون كلمة (من) معناها فى التقدير : أنشأكم فى الأرض . وهذا ضعيف لأنه متى أمكن حمل الكلام على ظاهره فلا حاجة إلى صرفه عنه . وأما تقرير أن تولد الانسان من الأرض كيف يدل على وجود الصانع فقد شرحناه مراراً كثيرة .

﴿الدليل الثانى﴾ قوله (واستعمركم فيها) وفيه ثلاثة أوجه : الأول : جعلكم عمارها . قالوا : كان ملوك فارس قد أكثروا فى حفر الأنهار وغرس الأشجار . لاجرم حصلت لهم الأعمار الطويلة فسأل نبى من أنبياء زمانهم ربه ، ماسبب تلك الأعمار؟ فأوحى الله تعالى اليه أنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى ، وأخذ معاوية فى إحياء أرض فى آخر عمره فقيل له ماحملك عليه . فقال : ما حملنى عليه الا قول القائل :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار

الثانى : أنه تعالى أطال أعماركم فيها واشتقاق (واستعمركم) من العمر مثل استبقاكم من البقاء . والثالث : أنه مأخوذ من العمرى ، أى جعلها لكم طول أعماركم فاذا متم انتقلت الى غيركم .

واعلم أن فى كون الأرض قابلة للعمارات النافعة للانسان ، وكون الانسان قادراً عليها دلالة عظيمة على وجود الصانع ، ويرجع حاصله الى ما ذكره الله تعالى فى آية أخرى وهى قوله (والذى قدر فهدى) وذلك لأن حدوث الانسان مع أنه حصل فى ذاته العقل الهادى والقدرة على التصرفات الموافقة يدل على وجود الصانع الحكيم وكون الأرض موصوفة بصفات مطابقة للمصالح موافقة للمنافع يدل أيضاً على وجود الصانع الحكيم .

أما قوله ﴿فاستغفروه ثم توبوا اليه﴾ فقد تقدم تفسيره .

وأما قوله ﴿إن ربى قريب مجيب﴾ يعنى أنه قريب بالعلم والسمع (مجيب) دعاء المحتاجين بفضله ورحمته ، ثم بين تعالى أن صالحا عليه السلام لما قرر هذه الدلائل (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) وفيه وجوه : الأول : أنه لما كان رجلا قوى العقل قوى الخاطر وكان من قبيلتهم قوى رجاؤهم فى أن ينصر دينهم ويقوى مذهبهم ويقرر طريقتهم لأنه متى حدث رجل فاضل فى قوم

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ «٦٣»

طلعوا فيه من هذا الوجه . الثانى : قال بعضهم المراد أنك كنت تعطف على فقرائنا وتعين ضعفاءنا وتعود مرضانا فقوى رجاؤنا فيك أنك من الأنصار والأحباب ، فكيف أظهرت العداوة والبغضة ثم إنهم أضافوا الى هذا الكلام التعجب الشديد من قوله (فقالوا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) والمقصود من هذا الكلام التمسك بطريق التقليد ووجوب متابعة الآباء والأسلاف ، ونظير هذا التعجب ماحكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا (أجعل الآلهة الها واحداً إن هذا لشىء عجاب ثم قالوا (وإننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب) والشك هو أن يبقى الانسان متوقفا بين النفى والاثبات والمريب هو الذى يظن به السوء فقوله (وإننا لفى شك) يعنى به أنه لم يترجح فى اعتقادهم صحة قوله وقوله (مريب) يعنى أنه ترجح فى اعتقادهم فساد قوله وهذا مبالغة فى تزييف كلامه .

قوله تعالى ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير﴾

اعلم أن قوله (إن كنت على بينة من ربى) ورد بحرف الشك وكان على يقين تام فى أمره الا أن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب الى القبول ، فكأنه قال: قدروا أنى على بينة من ربى وأنى نبى على الحقيقة ، وانظروا أنى ان تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره فمن يمنعنى من عذاب الله فما تزيدوننى على هذا التقدير غير تخسير ، وفى تفسير هذه الكلمة وجهان : الأول : أن على هذا التقدير تخسرون أعمالى وتبطلونها . الثانى : أن يكون التقدير فما تزيدوننى بما تقولون لى وتحملوننى عليه غير أن أخسركم أى أنسبكم الى الخسران ، وأقول لكم إنكم خاسرون ، والقول الأول أقرب لأن قوله (فمن ينصرنى من الله إن عصيته) كالدلالة على أنه أراد إن أتبعكم فيما أنتم عليه من الكفر الذى دعوتمونى اليه لم أزدد إلا خسرانا فى الدين فأصير من الهالكين الخاسرين .

وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَـكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ «٦٤» فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ «٦٥»

قوله تعالى ﴿ وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾

اعلم أن العادة فيمن يدعى النبوه عند قوم يعبدون الأصنام أن يبتدىء بالدعوة الى عبادة الله ثم يتبعه بدعوى النبوة لابد وأن يطلبوا منه المعجزة وأمر صالح عليه السلام هكذا كان ، يروى أن قومه خرجوا فى عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا اليها ناقة فدعا صالح ربه فخرجت الناقة كما سألوا .

واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه ، الأول : أنه تعالى خلقها من الصخره وثانيها : انه تعالى خلقها فى جوف الجبل ثم شق عنها الجبل . وثالثها : انه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر . ورابعها: أنه خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة ، وخامسها : ماروى أنه كان لها شرب يوم . ولكل القوم شرب يوم آخر . وسادسها : أنه كان يحصل منها لبن كثير يكفى الخلق العظيم ، وكل من هذه الوجوه معجز قوى وليس فى القرآن . الا أن تلك الناقة كانت آية ومعجزة ، فأما بيان أنها كانت معجزة من أى الوجوه فليس فيه بيانه .

ثم قال ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ﴾ والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤنتها ، فصارت مع كونها آية لهم تنفعهم ولا تضرهم ، لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها على ماروى أنه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهد من إصرارهم على الكفر . فان الخصم لا يحب ظهور حجة خصمه . بل يسعى فى اخفائها وابطالها بأقصى الامكان . فلهذا السبب كان يخاف من اقدامهم على قتلها . فلهذا احتاط وقال (ولا تمسوها بسوء) وتوعدهم إن مسوها بسوء بعذاب قريب . وذلك تحذير شديد لهم من الاقدام على قتلها . ثم بين الله تعالى أنهم مع ذلك عقروها وذبحوها . ويحتمل أنهم عقروها لابطال تلك الحجه . وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم . وأن يكون لأنهم رغبوا فى شحمها ولحمها . وقوله (فيأخذكم عذاب قريب) يريد اليوم الثالث ، وهو قوله (تمتعوا فى داركم) ثم بين تعالى أن

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ «٦٦» وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ «٦٧» كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ «٦٨»

القوم عقروها . فعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) ومعنى التمتع : التلذذ بالمنافع والملاذ التى تدرك بالحواس ، ولما كان التمتع لايحصل الا للحى عبر به عن الحياة . وقوله (فى داركم) فيه وجهان : الأول : أن المراد من الدار البلد ، وتسمى البلاد بالديار ، لأنه يدار فيها أى يتصرف . يقال : ديار بكر أى بلادهم . الثانى : ان المراد بالديار الدنيا . وقوله (ذلك وعد مكذوب) أى غير كذب والمصدر قد يرد بلفظ المفعول كالمجلود والمعقول وبأيكم المفتون ، وقيل غير مكذوب فيه ، قال ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم فى الايمان ، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح عليه السلام بنزول العذاب ، فقالوا وما علامة ذلك ؟ فقال : تصير وجوهكم فى اليوم الأول مصفرة ، وفى الثانى محمرة ، وفى الثالث مسودة ، ثم يأتيكم العذاب فى اليوم الرابع ، فلما رأوا وجوههم قد اسودت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدوا للعذاب فصبحهم اليوم الرابع وهى الصيحة والصاعقة والعذاب .

فان قيل : كيف يعقل أن تظهر فيهم هذه العلامات مطابقة القول صالح عليه السلام ، ثم يبقون مصرين على الكفر .

قلنا : مادامت الأمارات غير بالغة إلى حد الجزم واليقين لم يمتنع بقاؤهم على الكفر وإذا صارت يقينية قطعية ، فقد انتهى الأمر إلى حد الالجاء والايمان فى ذلك الوقت غير مقبول .

قوله تعالى ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾

اعلم أن مثل هذه الآية قد مضى فى قصة عاد . وقوله (ومن خزى يومئذ) فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ الواو فى قوله (ومن خزى) واو العطف وفيه وجهان : الأول : أن يكون

التقدير : نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا من العذاب النازل بقومه ومن الخزى الذى لزمهم وبقى العار فيه مأثوراً عنهم ومنسوباً اليهم ، لأن معنى الخزى العيب الذى تظهر فضيحته ويستحيا من مثله فحذف ماحذف اعتماداً على دلالة ما بقى عليه . الثانى : أن يكون التقدير : نجينا صالحاً برحمة منا ونجيناهم من خزى يومئذ .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ الكسائى ونافع فى رواية ورش وقالون وإحدى الروايات عن الاعشى (يومئذ) بفتح الميم . وفى المعارج (عذاب يومئذ) والباقون بكسر الميم فيهما فمن قرأ بالفتح فعلى أن يوم مضاف الى اذ وأن اذ مبنى . والمضاف الى المبنى يجوز جعله مبنياً ألا ترى أن المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتنكير فكذا ههنا ، وأما الكسر فى اذ فالسبب أنه يضاف الى الجملة من المبتدأ والخبر تقول : جئتك اذ الشمس طالعة ، فلما قطع عنه المضاف اليه نون ليدل التنوين على ذلك ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين . وأما القراءة بالكسر فعلى إضافة الخزى الى اليوم ولم يلزم من إضافته إلى المبنى أن يكون مبنياً لأن هذه الاضافة غير لازمة .

﴿المسألة الثالثة﴾ الخزى الذل العظيم حتى يبلغ حد الفضيحة ولذلك قال تعالى فى المحاربين (ذلك لهم خزى فى الدنيا) وإنما سمى الله تعالى ذلك العذاب خزياً لأنه فضيحة باقية يعتبر بها أمثالهم ثم قال (إن ربك هو القوى العزيز) وإنما حسن ذلك ، لأنه تعالى بين أنه أوصل ذلك العذاب إلى الكافر وصان أهل الايمان عنه ، وهذا التميز لايصح إلا من القادر الذى يقدر على قهر طبائع الأشياء فيجعل الشىء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذابا وبالنسبة إلى إنسان آخر راحة وريحاناً ثم إنه تعالى بين ذلك الأمر فقال (وأخذ الذين ظلموا) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ إنما قال (أخذ) ولم يقل أخذت لأن الصيحة محمولة على الصياح ، وايضا فصل بين الفعل والاسم المؤنث بفاصل ، فكان الفاصل كالعوض من تاء التأنيث ، وقد سبق لها نظائر .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى الصيحة وجهين . قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد الصاعقة الثانى : الصيحة صيحة عظيمة هائلة سمعوها فماتوا أجمع منها فأصبحوا وهم موتى جاثمين فى دورهم ومساكنهم ، وجثومهم سقوطهم على وجوههم . يقال إنه تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يصيح بهم تلك الصيحة التى ماتوا بها ، ويجوز أن يكون الله تعالى خلقها . والصياح لا يكون إلا الصوت الحادث فى حلق وفم وكذلك الصراخ ، فان كان من فعل الله تعالى فقد خلقه فى حلق حيوان وإن كان فعل جبريل عليه السلام فقد حصل فى فمه وحلقه . والدليل عليه أن صوت الرعد أعظم من كل صيحة ولا يسمى ذلك ولا بأنه صراخ .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ «٦٩» فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ «٧٠» وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ «٧١»

فان قيل : فما السبب فى كون الصيحة موجبة للموت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أن الصيحة العظيمة إنما تحدث عندسبب قوى يوجب تموج الهواء وذلك التموج الشديد ربما يتعدى إلى صماخ الانسان فيمزق غشاء الدماغ فيورث الموت . والثانى : أنها شيء مهيب فتحدث الهيبة العظيمة عند حدوثها والاعراض النفسانية إذا قويت أوجبت الموت الثالث : أن الصيحة العظيمة إذا حدثت من السحاب فلابد وأن يصحبها برق شديد محرق ، وذلك هو الصاعقة التى ذكرها ابن عباس رضى الله عنهما .

ثم قال تعالى ﴿فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾ والجثوم هو السكون يقال : للطير إذا باتت فى أوكارها أنها جثمت ، ثم إن العرب أطلقوا هذا اللفظ على مالا يتحرك من الموت فوصف الله تعالى هؤلاء المهلكين بأنهم سكنوا عندالهلاك ، حتى كأنهم ماكانوا أحياء وقوله (كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لم يوجدوا . والمغنى المقام الذى يقيم الحى به يقال : غنى الرجل بمكان كذا إذ أقام به .

ثم قال تعالى ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾ قرأ حمزة وحفص عن عاصم (ألا إن ثمود) غير منون فى كل القرآن ، وقرأ الباقون (ثموداً) بالتنوين ولثمود كلاهما بالصرف ، والصرف للذهاب إلى الحى ، أو إلى الأب الأكبر ومنعه للتعريف والتأنيث بمعنى القبيلة .

قوله تعالى ﴿ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وههنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال النحويون : دخلت كلمة «قد» ههنا لأن السامع لقصص الأنبياء عليهم السلام يتوقع قصة بعد قصة ، وقد للتوقع ، ودخلت اللام فى «لقد» لتأكيد الخبر ولفظ (رسلنا) جمع

وأقله ثلاثة فهذا يفيد القطع بحصول ثلاثة . وأما الزائد على هذا العدد فلا سبيل إلى اثباته إلا بدليل آخر ، وأجمعوا على أن الأصل فيهم كان جبريل عليه السلام ، ثم اختلفت الروايات فقيل : أتاه جبريل عليه السلام ومعه اثنا عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون فى غاية الحسن وقال الضحاك كانوا تسعة . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام . وهم الذين ذكرهم الله فى سورة والذاريات فى قوله (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) وفى الحجر (ونبئهم عن ضيف إبراهيم)

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا فى المراد بالبشرى على وجهين : الأول : أن المراد مابشره الله بعد ذلك بقوله (فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب) الثانى : أن المراد منه أنه بشر إبراهيم عليه السلام بسلامة لوط وباهلاك قومه .

وأما قوله ﴿قالوا سلاما قال سلام﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائى (قالوا سلم قال سلم) بكسر السين وسكون اللام بغير ألف ، وفى والذاريات مثله . قال الفراء : لافرق بين القراءتين كما قالوا حل وحلال وحرم وحرام لأن فى التفسير انهم لما جاؤا سلموا عليه . قال أبو على الفارسى : ويحتمل أن يكون سلم خلاف العدو والحرب كأنهم لما امتنعوا من تناول ماقدمه اليهم نكرهم وأوجس منهم خيفة قال إنا سلم ولست بحرب ولاعدو فلا تمتنعوا من تناول طعامى كما يمتنع من تناول طعام العدو ، وهذا الوجه عندى بعيد ، لأن على هذا التقدير ينبغى أن يكون تكلم إبراهيم عليه السلام بهذا اللفظ بعد احضار الطعام . إلا أن القرآن يدل على أن هذا الكلام إنما وجد قبل إحضار الطعام لأنه تعالى قال (قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) والفاء للتعقيب ، فدل ذلك على أن مجيئه بذلك العجل الحنيذ كان بعد ذكر السلام .

﴿المسألة الثانية﴾ قالوا سلاما تقديره : سلمنا عليك سلاماً قال سلام . تقديره : أمرى سلام ، اى لست مريدا غير السلامة والصلح . قال الواحدى : ويحتمل ان يكون المراد : سلام عليكم . فجاء به مرفوعا حكاية لقوله كما قال : وحذف عنه الخبر كما حذف من قوله (فصبر جميل) وإنما يحسن هذا الحذف اذا كان المقصود معلوما بعد الحذف ، وههنا المقصود معلوم فلا جرم حسن الحذف ، ونظيره قوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) على حذف الخبر .

واعلم أنه إنما سلم بعضهم على بعض . رعاية للأذن المذكور فى قوله تعالى (لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها)

﴿المسألة الثالثة﴾ أكثرمايستعمل (سلام عليكم) بغير ألف ولام . وذلك لأنه فى معنى الدعاء ، فهو مثل قولهم : خير بين يديك .

فان قيل : كيف جاز جعل النكرة مبتدأ ؟

قلنا : النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدأ ، فاذا قلت سلام عليكم : فالتنكير فى هذا الموضع يدل على التمام والكمال ، فكأنه قيل : سلام كامل تام عليكم ، ونظيره قولنا : سلام عليك ، وقوله تعالى (قال سلام عليك سأستغفر لك ربى) وقوله (سلام قولا من رب رحيم - سلام على نوح فى العالمين - والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) فأما قوله تعالى (والسلام على من اتبع الهدى) فهذا أيضا جائز ، والمراد منه الماهية والحقيقة . وأقول : قوله (سلام عليكم) أكمل من قوله :السلام عليكم ، لأن التنكير فى قوله (سلام عليكم) يفيد الكمال والمبالغة والتمام . وأما لفظ السلام : فانه لايفيد إلا الماهية . قال الأخفش : من العرب من يقول : سلام عليكم . فيعرى قوله : سلام . عن الألف واللام والتنوين ، والسبب فى ذلك كثرة الاستعمال أباح هذا التخفيف ، والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ قالوا : مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لايأتيه ضيف فاغتم لذلك ، ثم جاءه الملائكة فرأى أضيافا لم ير مثلهم ، فعجل وجاء بعجل حنيذ ، فقوله (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) معناه : فما لبث فى المجىء به بل عجل فيه . أوالتقدير : فما لبث مجيئه والعجل ولد البقرة . أما الحنيذ : فهو الذى يشوى فى حفرة من الأرض بالحجارة المحماة ، وهو من فعل أهل البادية معروف ، وهو محنوذ فى الأصل كما قيل : طبيخ ومطبوخ . وقيل : الحنيذ الذى يقطر دسمه . يقال : حنذت الفرس اذا ألقيت عليه الجل حتى تقطر عرقا .

ثم قال تعالى ﴿فلما رآى أيديهم لاتصل اليه﴾ أى الى العجل ، وقال الفراء : الى الطعام ، وهو ذلك العجل (نكرهم) أى أنكرهم . يقال : نكره وأنكره واستنكره .

واعلم أن الأضياف إنما امتنعوا من الطعام لأنهم ملائكة والملائكة لايأكلون ولايشربون ، وإنما أتوه فى صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها ، وهوكان مشغوفا بالضيافة . وأما إبراهيم عليه السلام . فنقول : إما أن يقال : إنه عليه السلام ماكان يعلم أنهم ملائكة ، بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر ، أو يقال : إنه كان عالماً بأنهم من الملائكة . أما على الاحتمال الأول فسبب خوفه أمران : أحدهما : أنه كان ينزل فى طرف من الأرض بعيد عن الناس ، فلما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروها . وثانيها : أن من لايعرف اذا حضر وقدم اليه طعام فان أكل حصل الأمن وإن لم يأكل حصل الخوف . وأما الاحتمال الثانى : وهو أنه عرف أنهم ملائكة الله تعالى .

فسبب خوفه على هذا التقدير أيضاً أمران : أحدهما : أنه خاف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله تعالى عليه : والثانى : أنه خاف أن يكون نزولهم لتعذيب قومه .

فان قيل : فأى هذين الاحتمالين أقرب وأظهر ؟

قلنا : أما الذى يقول إنه ماعرف أنهم ملائكة الله تعالى فله أن يحتج بأمور : أحدها : أنه تسارع الى إحضار الطعام ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك . وثانيها : أنه لما رآهم ممتنعين من الأكل خافهم ، ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الأكل على حصول الشر ، وثالثها : أنه رآهم فى أول الأمر فى صورة البشر ، وذلك لايدل على كونهم من الملائكة . وأما الذى يقول . إنه عرف ذلك احتج بقوله (لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف بأى سبب أرسلوا ، ثم بين تعالى أن الملائكة أزالوا ذلك الخوف عنه فقالوا (لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط) ومعناه : أرسلنا بالعذاب الى قوم لوط ، لأنه أضمر لقيام الدليل عليه فى سورة أخرى ، وهو قوله (إنا أرسلنا الى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة)

ثم قال تعالى ﴿وامرأته قائمة﴾ يعنى سارة بنت آزر بن باحورا بنت عم إبراهيم عليه السلام ، وقوله (قائمة) قيل : كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل ، لأنها ربما خافت أيضا . وقيل : كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم عليه السلام جالس معهم ، ويؤكد هذا التأويل قراءة ابن مسعود (وامرأته قائمة) وهو قاعد .

ثم قال تعالى ﴿فضحكت فبشرناها باسحق﴾ واختلفوا فى الضحك على قولين : منهم من حمله على نفس الضحك ، ومنهم من حمل هذا اللفظ على معنى آخر سوى الضحك . أما الذين حملوه على نفس الضحك فاختلفوا فى أنها لم ضحكت . وذكروا وجوها : الأول : قال القاضى إن ذلك السبب لابد وأن يكون سببا جرى ذكره فى هذه الاية ، وما ذاك إلا أنها فرحت بزوال ذلك الخوف عن ابراهيم عليه السلام حيث قالت الملائكة (لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط) وعظم سرورها بسبب سروره بزوال خوفه . وفى مثل هذه الحالة قد يضحك الانسان ، وبالجملة فقد كان ضحكها بسبب قول الملائكة لابراهيم عليه السلام (لاتخف) فكان كالبشارة . فقيل لها : نجعل هذه البشارة بشارتين . فكما حصلت البشارة بزوال الخوف ، فقد حصلت البشارة أيضاً بحصول الولد الذى كنتم تطلبونه من أول العمر الى هذا الوقت وهذا تأويل فى غاية الحسن . الثانى : يحتمل أنها كانت عظيمة الانكار على قوم لوط لما كانوا عليه من الكفر والعمل الخبيث . فلما أظهروا أنهم جاؤا لاهلاكهم لحقها السرور فضحكت . الثالث : قال السدى قال ابراهيم عليه السلام لهم (ألا تأكلون) قالوا

لا نأكل طعاماً إلا بالثمن ، فقال : ثمنه أن تذكروا اسم الله تعالى على أوله وتحمدوه على آخره . فقال جبريل لميكائيل عليهما السلام «حق لمثل هذا الرجل أن يتخذه ربه خليلا» فضحكت امرأته فرحا منها بهذا الكلام . الرابع : أن سارة قالت لابراهيم عليه السلام أرسل الى ابن أخيك وضمه الى نفسك . فان الله تعالى لا يترك قومه حتى يعذبهم . فعند تمام هذا الكلام دخل الملائكة على إبراهيم عليه السلام ، فلما أخبروه بأنهم إنما جاؤا لاهلاك قوم لوط صار قولهم موافقاً لقولها . فضحكت لشدة سرورها بحصول الموافقة بين كلامها وبين كلام الملائكة . الخامس : أن الملائكة لما أخبروا إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة لا من البشر وأنهم إنما جاؤا لاهلاك قوم لوط طلب إبراهيم عليه السلام منهم معجزة دالة على أنهم من الملائكة فدعوا ربهم باحياء العجل المشوى فطفر ذلك العجل المشوى من الموضع الذى كان موضوعاً فيه إلى مرعاه ، وكانت امرأة إبراهيم عليه السلام قائمة فضحكت لما رأت ذلك العجل المشوى قد طفر من موضعه . السادس : أنها ضحكت تعجباً من أن قوماً أتاهم العذاب وهم فى غفلة . السابع : لا يبعد أن يقال إنهم بشروها بحصول مطلق الولد فضحكت ، إما على سبيل التعجب فانه يقال إنها كانت فى ذلك الوقت بنت بضع وتسعين سنة وإبراهيم عليه السلام ابن مائة سنة ، وإما على سبيل السرور . ثم لما ضحكت بشرها الله تعالى بأن ذلك الولد هو إسحق ومن وراء إسحق يعقوب . الثامن : أنها ضحكت بسبب أنها تعجبت من خوف إبراهيم عليه السلام من ثلاث أنفس حال ما كان معه حشمه وخدمه . التاسع : أن هذا على التقديم والتأخير والتقدير : وامرأته قائمة فبشرناها باسحق . فضحكت سروراً بسبب تلك البشارة فقدم الضحك ، ومعناه التأخير . الثانى : هو أن يكون معنى فضحكت حاضت وهو منقول عن مجاهد وعكرمة قالا ضحكت أى حاضت عند فرحها بالسلامة من الخوف ، فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد ، وأنكر الفراء وأبو عبيدة أن يكون ضحكت بمعنى حاضت ، قال أبو بكر الأنبارى هذه اللغة إن لم يعرفها هؤلاء فقد عرفها غيرهم ، حكى الليث فى هذه الآية (فضحكت) طمثت ، وحكى الأزهرى عن بعضهم أن أصله من ضحاك الطلعة يقال ضحكت الطلعة إذا انشقت .

واعلم أن هذه الوجوه كلها زوائد . وإنما الوجه الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى ﴿ومن وراء إسحق يعقوب﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسئلة الأولى﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب . والباقون بالرفع أما وجه النصب . فهو أن يكون التقدير : بشرناها باسحق ومن وراء إسحق وهبنا لها يعقوب ، وأما وجه الرفع فهو أن يكون التقدير : ومن وراء إسحق يعقوب . مولود أو موجود .

قَالَتْ يَاوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ «٧٢» قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ «٧٣»

﴿المسألة الثانية﴾ فى لفظ وراء قولان: الأول: وهو قول الأكثرين أن معناه بعد أى بعد إسحق يعقوب وهذا هو الوجه الظاهر. والثانى: أن الوراء ولد الولد. عن الشعبي أنه قيل له هذا ابنك. فقال نعم من الوراء، وكان ولد ولده. وهذا الوجه عندى شديد التعسف، واللفظ كأنه ينبو عنه.

قوله تعالى ﴿قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذابعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾

فى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قال الفراء أصل الويل وى وهو الخزى. ويقال: وى لفلان أى خزى له فقوله ويلك أى خزى لك، وقال سيبويه: ويح زجر لمن أشرف على الهلاك، وويل لمن وقع فيه. قال الخليل: ولم أسمع على بنائه إلا ويح، وويس، وويك. وويه، وهذه الكلمات متقاربة فى المعنى وأما قوله (ياويلتا) فمنهم من قال هذه الألف ألف الندبة وقال صاحب الكشاف: الألف فى ويلتا مبدلة من ياء الاضافة فى (ياويلتى) وكذلك فى يالهفا وياعجبا ثم أبدل من الياء والكسرة. الألف والفتحة، لأن الفتح والألف أخف من الياء والكسرة

أما قوله ﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً﴾ ففيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو آلد بهمزة ومدة. والباقون بهمزتين بلامد

﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يقول إنها تعجبت من قدرة الله تعالى والتعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر، بيان المقدمة الأولى من ثلاثة أوجه: أولها: قوله تعالى حكاية عنها فى معرض التعجب (أألد وأنا عجوز) وثانيها: قوله (إن هذا لشيء عجيب) وثالثها: قول الملائكة لها (أتعجبين من أمر الله) وأما بيان أن التعجب من قدرة الله تعالى يوجب الكفر، فلأن هذا التعجب يدل على جهلها بقدرة الله تعالى، وذلك يوجب الكفر.

والجواب: أنها إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لابحسب القدرة فان الرجل المسلم لو أخبره

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ «٧٤» إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ «٧٥»

مخبر صادق بأن الله تعالى يقلب هذا الجبل ذهباً إبريزاً فلاشك أنه يتعجب نظراً إلى أحوال العادة لا لأجل أنه استنكر قدرة الله تعالى على ذلك .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (وهـذا بعلى شيخاً) فاعلم أن شيخاً منصوب على الحال ، قال الواحدى رحمه الله : وهذا من لطائف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة ، فكان قوله (وهذا بعلى شيخاً) قائم مقام أن يقال أشير إلى بعلى حال كونه شيخاً ، والمقصود تعريف هـــذه الحالة المخصوصة وهى الشيخوخة .

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ بعضهم (وهذا بعلى شيخ) على أنه خبر مبتدا محذوف ، أى هذا بعلى وهو شيخ ، أو بعلى بدل من المبتدا وشيخ خبر أو يكونان معاً خبرين ، ثم حكى تعالى أن الملائكة قالوا (أتعجبين من أمر الله) والمعنى : أنهم تعجبوا من تعجبها ، ثم قالوا (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) والمقصود من هـذا الكلام ذكر مايزيل ذلك التعجب وتقديره : إن رحمة الله عليكم متكاثرة وبركاته لديكم متوالية متعاقبة ، وهى النبوة والمعجزات القاهرة والتوفيق للخيرات العظيمة فاذا رأيت أن الله خرق العادات فى تخصيصكم بهذه الكرامات العالية الرفيعة وفى إظهار خوارق العادات وإحداث البينات والمعجزات ، فكيف يليق به التعجب .

وأما قوله ﴿أهل البيت﴾ فانه مدح لهم فهو نصب على النداء أو على الاختصاص ، ثم أكدوا ذلك بقولهم (إنه حميد مجيد) والحميد هو المحمود وهو الذى تحمد أفعاله ، والمجيد الماجد ، وهو ذو الشرف والكرم . ومن محامد الأفعال ايصال العبد المطيع الى مراده ومطلوبه ، ومن أنواع الفضل والكرم أن لايمنع الطالب عن مطلوبه ، فاذا كان من المعلوم أنه تعالى قادر على الكل وأنه حميد مجيد ، فكيف يبقى هـذا التعجب فى نفس الأمر فثبت أن المقصود من ذكر هـــذه الكلمات ازالة التعجب .

قوله تعالى ﴿فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن ابراهيم لحليم أواه منيب﴾

اعلم أن هذا هو القصة الخامسة وهى قصة لوط عليه السلام . واعلم أن الروع هو الخوف

وهو ماأوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى : أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد . أخذ يجادلنا فى قوم لوط وجواب لما هو قوله (أخذ) إلا أنه حذف فى اللفظ لدلالة الكلام عليه ، وقيل تقديره : لما ذهب عن ابراهيم الروع جادلنا .

واعلم أن قوله (يجادلنا) أى يجادل رسلنا .

فان قيل : هذه المجادلة إن كانت مع الله تعالى فهى جراءة على الله ، والجراءة على الله تعالى من أعظم الذنوب ، ولأن المقصود من هذه المجادلة إزالة ذلك الحكم وذلك يدل على أنه ماكان راضيا بقضاء الله تعالى وأنه كفر. وإن كانت هذه المجادلة مع الملائكة فهى أيضا عجيبة . لأن المقصود من هذه المجادلة أن يتركوا إهلاك قوم لوط . فان كان قد اعتقد فيهم أنهم من تلقاء أنفسهم يجادلون فى هذا الاهلاك فهذا سوء ظن بهم . وان اعتقد فيهم أنهم بأمر الله جاؤا فهذه المجادلة تقتضى أنه كان يطلب منهم مخالفة أمر الله تعالى وهذا منكر .

والجواب : من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ وهو الجواب الاجمالى أنه تعالى مدحه عقيب هذه الآية فقال (ان ابراهيم لحليم أواه منيب) ولو كان هذا الجدل من الذنوب لما ذكر عقيبه مايدل على المدح العظيم .

﴿والوجه الثانى﴾ وهو الجواب التفصيلى أن المراد من هذه المجادلة سعى ابراهيم فى تأخير العذاب عنهم وتقريره من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أن الملائكة قالوا (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) فقال ابراهيم : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال : فأربعون قالوا : لا. قال : فثلاثون قالوا لا. حتى بلغ العشرة قالوا : لا. قال : أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا. فعند ذلك قال : إن فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا فى سورة العنكبوت فقال (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين .

ثم قال ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك﴾ فبان بهذا أن مجادلة إبراهيم عليه السلام ، انما كانت فى قوم لوط بسبب مقام لوط فيما بينهم .

﴿الوجه الثانى﴾ يحتمل أن يقال إنه عليه السلام كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أنهم ربما أقدموا على الايمان والتوبة عن المعاصى . وربما وقعت تلك المجادلات

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ «٧٦» وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ «٧٧»

بسبب أن ابراهيم كان يقول إن أمر الله ورد بايصال العذاب. ومطلق الأمر لايوجب الفور بل يقبل التراخى فاصبروا مدة أخرى، والملائكة كانوا يقولون إن مطلق الأمر يقبل الفور، وقد حصلت هناك قرائن دالة على الفور. ثم أخذ كل واحد منهم يقرر مذهبه بالوجوه المعلومة فحصلت المجادلة بهذا السبب، وهذا الوجه عندى هو المعتمد.

﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب لعل إبراهيم عليه السلام سأل عن لفظ ذلك الأمر وكان ذلك الأمر مشروطا بشرط فاختلفوا فى أن ذلك الشرط هل حصل فى ذلك القوم أم لا فحصلت المجادلة بسببه، وبالجملة نرى العلماء فى زماننا يجادل بعضهم بعضا عند التمسك بالنصوص. وذلك لايوجب القدح فى واحد منها فكذا ههنا.

ثم قال تعالى ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ وهذا مدح عظيم من الله تعالى لابراهيم. أما الحليم فهو الذى لا يتعجل بمكافأة غيره، بل يتأنى فيه فيؤخر ويعفو ومن هـذا حاله فانه يحب من غيره هذه الطريقة، وهذا كالدلالة على أن جداله كان فى أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب. ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله (أواه منيب) لأن من يستعمل الحلم فى غيره فانه يتأوه إذا شاهـد وصول الشدائد إلى الغير فلمـا رأى مجىء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة. ووصفه أيضا بأنه منيب، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فانه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله فى إزالة ذلك العذاب عنهم أو يقال: إن من كان لايرضى بوقوع غيره فى الشدائد. فأن لايرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع فى عذاب الله إلا بالتوبة والأنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً.

قوله تعالى ﴿ياإبراهيم أعرض عن هـذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب﴾

اعلم أن قوله (ياابراهيم أعرض عن هذا) معناه: أن الملائكة قالوا له: اترك هذه المجادلة لأنه

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ

قد جاء أمر ربك بإيصال هذا العذاب اليهم وإذا لاح وجه دلالة النص على هذا الحكم فلا سبيل الى دفعه فلذلك أمروه بترك المجادلة ، ولما ذكروا (إنه قد جاء أمر ربك) ولم يكن فى هذا اللفظ دلالة على أن هذا الأمر بماذا جاء لاجرم بين الله تعالى إنهم آتيهم عذاب غير مردود . أى عذاب لاسبيل الى دفعه ورده .

ثم قال ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعا﴾ وهؤلاء الرسل هم الرسل الذين بشروا ابراهيم بالولد عليهم السلام . قال ابن عباس رضى الله عنهما : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط وبين القريتين أربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بنى آدم وكانوا فى غاية الحسن ولم يعرف لوط أنهم ملائكة الله وذكروا فيه ستة أوجه : الأول . أنه ظن أنهم من الانس فخاف عليهم خبث قومه وأن يعجزوا عن مقاومتهم . الثانى : ساءه مجيئهم لأنه ماكان يجد ما ينفقه عليهم وما كان قادراً على القيام بحق ضيافتهم . والثالث : ساءه ذلك لأن قومه منعوه من ادخال الضيف داره : الرابع : ساءه مجيئهم . لأنه عرف بالحذر أنهم ملائكة وأنهم إنما جاؤا لاهلاك قومه ، والوجه الأول هو الأصح لدلالة قوله تعالى (وجاء قومه يهرعون اليه) وبقى فى الآية ألفاظ ثلاثة لابد من تفسيرها :

﴿اللفظ الأول﴾ قوله (سيء بهم) ومعناه ساء مجيئهم وساء يسوء فعل لازم مجاوز يقال سؤته فسيء مثل شغلته فشغل وسررته فسر . قال الزجاج : أصله سوىء بهم الاأن الواو سكنت ونقلت كسرتها الى السين .

﴿واللفظ الثانى﴾ قوله (وضاق بهم ذرعا) قال الأزهرى : الذرع يوضع موضع الطاقة والأصل فيه البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوته . فاذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومد عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة . فيقال : مالى به ذرع ولاذراع أى مالى به طاقة ، والدليل على صحة ماقلناه أنهم يجعلون الذراع فى موضع الذرع فيقولون ضقت بالأمر ذراعا .

﴿واللفظ الثالث﴾ قوله (هذا يوم عصيب) أى يوم شديد ، وإنما قيل للشديد عصيب لأنه يعصب الانسان بالشر .

قوله تعالى ﴿وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم

رَشِيدٌ «٧٨» قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ «٧٩» قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ «٨٠»

هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى أليس منكم رجل شديد قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾ .

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أنه لما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام مضت امرأته عجوز السوء فقالت لقومه دخل دارنا قوم مارأيت أحسن وجوهاً ولاأنظف ثياباً ولاأطيب رائحة منهم (فجاءه قومه يهرعون اليه) أى يسرعون ، وبين تعالى أن اسراعهم ربما كان لطلب العمل الخبيث بقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) نقل أن القوم دخلوا دار لوط وأرادوا أن يدخلوا البيت الذى كان فيه جبريل عليه السلام . فوضع جبريل عليه السلام يده على الباب ، فلم يطيقوا فتحه حتى كسروه ، فمسح أعينهم بيده فعموا ، فقالوا : يالوط قدأدخلت علينا السحرة وأظهرت الفتنة . ولأهل اللغة فى (يهرعون) قولان :

﴿القول الأول﴾ أن هذا من باب ماجاءت صيغة الفاعل فيه على لفظ المفعول ولايعرف له فاعل نحو : أولع فلان فى الأمر ، وأرعد زيد ، وزهى عمرو من الزهو .

﴿والقول الثانى﴾ أنه لايجوز ورود الفاعل على لفظ المفعول ، وهذه الأفعال حذف فاعلوها فتأويل أولع زيد أنه أولعه طبعه وأرعد الرجل أرعده غضبه وزهى عمرو معناه جعله ماله زاهيا وأهرع معناه أهرعه خوفه أوحرصه . واختلفوا أيضاً فقال بعضهم : الاهراع هو الاسراع مع الرعدة . وقال آخرون : هو العدو الشديد .

أما قوله تعالى ﴿قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم﴾ ففيه قولان : قال قتادة . المراد بناته لصلبه . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : المراد نساء أمته : لأنهن فى أنفسهن بنات ولهن اضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة . قال أهل النحو : يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب . لأنه كان نبياً لهم فكان كالأب لهم . قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) وهو أب لهم وهذا القول عندى هو المختار . ويدل عليه وجوه : الأول : أن إقدام الانسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متبعد لايليق بأهل المروءة ، فكيف بأكابر الأنبياء ؟ الثانى : وهو أنه قال (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فبناته اللواتى من

صلبه لا تكفى للجمع العظيم . أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل . الثالث : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا ، وزعورا . وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة . فأما القائلون بالقول الأول فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما دعا القوم الى الزنا بالنسوان بل المراد أنه دعاهم الى التزوج بهن . وفيه قولان : أحدهما : أنه دعاهم الى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الايمان . والثانى : أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر فى شريعته ، وهكذا كان فى أول الاسلام بدليل أنه عليه السلام زوج ابنته زينب من أبى العاص بن الربيع وكان مشركا وزوج ابنته من عتبة بن أبى لهب . ثم نسخ ذلك بقوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وبقوله (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) واختلفوا أيضاً ، فقال الأكثرون : كان له بنتان ، وعلى هذا التقدير ذكر الاثنتين بلفظ الجمع ، كما فى قوله فان كان له اخوة (فقد صغت قلوبكما) وقيل : إنهن كن أكثر من اثنتين .

أما قوله تعالى ﴿هن أطهر لكم﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ ظاهر قوله (هن أطهر لكم) يقتضى كون العمل الذى يطلبونه طاهراً ومعلوم أنه فاسد ولأنه لاطهارة فى نكاح الرجل ، بل هذا جار مجرى قولنا : الله أكبر . والمراد أنه كبير ولقوله تعالى (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) ولاخير فيها ولما قال أبو سفيان : اعل أحداواعل هبل قال النبى «الله أعلى وأجل» ولا مقاربة بين الله وبين الصنم

﴿المسألة الثانية﴾ روى عن عبد الملك بن مروان والحسن وعيسى بن عمر أنهم قرؤا (هن أطهر لكم) بالنصب على الحال كما ذكرنا فى قوله تعالى (وهذا بعلى شيخاً) الا أن أكثر النحويين اتفقوا على أنه خطأ قالوا لو قرئ (هؤلاء بناتى هن أطهر) كان هذا نظير قوله (وهذا بعلى شيخاً) إلا أن كلمة «هن» قد وقعت فى البين وذلك يمنع من جعل أطهر حالا وطولوا فيه . ثم قال (فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو ونافع ولاتخزونى باثبات الياء على الأصل . والباقون بحذفها للتخفيف ودلالة الكسر عليه .

﴿المسألة الثانية﴾ فى لفظ (لاتخزونى) وجهان : الأول : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لاتفضحونى فى أضيافى . يريد أنهم إذا هجموا على أضيافه بالمكروه لحقته الفضيحة . والثانى : لاتخزونى فى ضيفى أى لاتخجلونى فيهم ، لأن مضيف الضيف يلزمه الخجالة من كل فعل قبيح يوصل إلى الضيف يقال : خزى الرجل إذا استحيا .

﴿المسألة الثالثة﴾ الضيف ههنا قائم مقام الأضياف ، كما قام الطفل مقام الأطفال . فى قوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا) ويجوز أن يكون الضيف مصدراً فيستغنى عن جمعه كما يقال : رجال صوم . ثم قال (أليس منكم رجل رشيد) وفيه قولان : الأول : (رشيد) بمعنى مرشد أى يقول الحق ويرد هؤلاء الأوباش عن أضيافى . والثانى : رشيد بمعنى مرشد . والمعنى : أليس فيكم رجل أرشده الله تعالى إلى الصلاح . وأسعده بالسداد والرشاد حتى يمنع عن هذا العمل القبيح ، والأول أولى .

ثم قال تعالى ﴿قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾ وفيه وجوه : الأول : مالنا فى بناتك من حاجة ولا شهوة . والتقدير أن من احتاج الى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، فلهذا السبب جعل نفى الحق كناية عن نفى الحاجة . الثانى : أن نجرى اللفظ على ظاهره فنقول : معناه إنهن لسن لنا بأزواج ولا حق لنا فيهن البتة . ولا يميل أيضاً طبعنا اليهن فكيف قيامهن مقام العمل الذى نريده وهو اشارة الى العمل الخبيث . الثالث (مالنا فى بناتك من حق) لأنك دعوتنا الى نكاحهن بشرط الايمان ونحن لا نجيبك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهن حق . ثم انه تعالى حكى عن لوط أنه عند سماع هذا الكلام قال (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ جواب «لو» محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير : لمنعتكم ولبالغت فى دفعكم ونظيره قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) وقوله (ولو ترى اذ وقفوا على النار) قال الواحدى وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع .

﴿المسألة الثانية﴾ (لو أن لى بكم قوة) أى لو أن لى ما أتقوى به عليكم وتسمية موجب القوة بالقوة جائز قال الله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) والمراد السلاح ، وقال آخرون القدرة على دفعهم . وقوله (أو آوى إلى ركن شديد) المراد منه الموضع الحصين المنيع تشبيها له بالركن الشديد من الجبل ،

فان قيل : ما الوجه ههنا فى عطف الفعل على الاسم ؟

قلنا : قال صاحب الكشاف : قرىء (أو آوى) بالنصب باضمار أن ، كأنه قيل لو أن لى بكم قوة أو آوياً .

واعلم أن قوله (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) لابد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة ، وفيه وجوه : الأول : المراد بقوله (لو أن لى بكم قوة) كونه بنفسه قادراً على الدفع وكونه متمكنا إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم ، والمراد بقوله

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ «٨١»

(أو آوى إلى ركن شديد) هو أن لايكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته . الثالث : أنه لما شاهد سفاهة القوم واقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع ، ثم استدرك على نفسه وقال : بل الأولى أن آوى إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى . وعلى هذا التقدير فقوله (أو آوى الى ركن شديد) كلام منفصل عما قبله ولا تعلق له به . وبهذا الطريق لا يلزم عطف الفعل على الاسم ، ولذلك قال النبي عليه السلام «رحم الله أخي لوطا كان يأوى إلى ركن شديد»

قوله تعالى ﴿قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا اليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك انه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾

اعلم أن قوله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام أنه قال (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على مايوجب الفضيحة في حق أضيافه . فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات : أحدها : أنهم رسل الله . وثانيها : أن الكفار لا يصلون إلى ماهموا به . وثالثها : أنه تعالى يهلكهم . ورابعها : أنه تعالى ينجيه مع أهله من ذلك العذاب . وخامسها : إن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله تعالى فحصل له هذه البشارات . وروى أن جبريل عليه السلام قال له إن قومك لن يصلوا إليك فافتح الباب فدخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم . وذلك قوله تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم) ومعنى قوله (لن يصلوا إليك) أى بسوء ومكروه فانا نحول بينهم وبين ذلك . ثم قال (فأسر بأهلك) قرأ نافع وابن كثير (فاسر) موصولة والباقون بقطع الألف وهما لغتان . يقال سريت بالليل وأسريت وأنشد حسان :

أسرت إليك ولم تكن تسرى

لجاء باللغتين فمن قرأ بقطع الألف فحجته قوله سبحانه وتعالى (سبحان الذى أسرى بعبده) ومن وصل فحجته قوله (والليل إذا يسر) والسرى السير فى الليل. يقال: سرى يسرى إذا سار بالليل وأسرى بفلان اذا سير به بالليل. والقطع من الليل بعضه وهو مثل القطعة، يريد اخرجوا ليلا لتسبقوا نزول العذاب الذى موعده الصبح. قال نافع بن الأزرق لعبدالله بن عباس رضى الله عنهما: أخبرنى عن قول الله (بقطع من الليل) قال هو آخر الليل سحر. وقال قتادة: بعد طائفة من الليل، وقال آخرون هو نصف الليل فانه فى ذلك الوقت قطع بنصفين.

ثم قال ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ نهى من معه عن الالتفات والالتفات نظر الانسان الى ما وراءه، والظاهر أن المراد أنه كان لهم فى البلدة أموال وأقمشة وأصدقاء، فالملائكة أمروهم بأن يخرجوا ويتركوا تلك الأشياء ولا يلتفتوا اليها البتة. وكان المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الأشياء وقد يراد منه الانصراف أيضا. كقوله تعالى (قالوا أجئتنا لتلفتنا) أى لتصرفنا. وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله (ولا يلتفت منكم أحد) النهى عن التخلف.

ثم قال ﴿إلا امرأتك﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو (الا امرأتك) بالرفع والباقون بالنصب. قال الواحدى: من نصب وهو الاختيار فقد جعلها مستثناة من الأهل على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك والذى يشهد بصحة هذه القراءة أن فى قراءة عبد الله (فأسر بأهلك إلا امرأتك) فأسقط قوله (ولا يلتفت منكم أحد) من هذا الموضع. وأما الذين رفعوا فالتقدير (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك)

فان قيل: فهذه القراءة توجب أنها أمرت بالالتفات لأن القائل إذا قال لا يقم منكم أحد إلا زيد كان ذلك أمرا لزيد بالقيام.

وأجاب أبو بكر الأنبارى عنه فقال: معنى (إلا) ههنا الاستثناء المنقطع على معنى. لا يلتفت منكم أحد. لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم، وإذا كان هذا الاستثناء منقطعاً كان التفاتها معصية ويتأكد ماذكرنا بما روى عن قتادة أنه قال: إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية فلما سمعت هذا العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأصابها حجر فأهلكها.

واعلم أن القراءة بالرفع أقوى، لأن القراءة بالنصب تمنع من خروجها مع أهله لكن على هذا التقدير الاستثناء يكون من الأهل كأنه أمر لوطاً بأن يخرج بأهله ويترك هذه المرأة فانها هالكة مع الهالكين، وأما القراءة بالنصب فانها أقوى من وجه آخر، وذلك لأن مع القراءة بالنصب يبقى الاستثناء متصلا

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ «٨٢» مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ «٨٣»

ومع القراءة بالرفع يصير الاستثناء منقطعاً . ثم بين الله تعالى أنهم قالوا : إنه مصيبها ما أصابهم . والمراد أنه مصيبها ذلك العذاب الذى أصابهم . ثم قالوا (إن موعدهم الصبح) روى أنهم لما قالوا للوط عليه السلام (إن موعدهم الصبح) قال أريد أعجل من ذلك بل الساعة فقالوا (أليس الصبح بقريب) قال المفسرون إن لوطاً عليه السلام لما سمع هذا الكلام خرج بأهله فى الليل .

قوله تعالى ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى الأمر وجهان : الأول : أن المراد من هذا الأمر ماهو ضد النهى ويدل عليه وجوه : الأول أن لفظ الأمر حقيقة فى هذا المعنى مجاز فى غيره دفعاً للاشتراك . الثانى : أن الأمر لا يمكن حمله ههنا على العذاب ، وذلك لأنه تعالى قال (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) وهذا الجعل هو العذاب ، فدلت هذه الآية على أن هذا الأمر شرط والعذاب جزاء ، والشرط غير الجزاء ، فهذا الأمر غير العذاب ، وكل من قال بذلك قال إنه هو الأمر الذى هو ضد النهى . والثالث : أنه تعالى قال : قبل هذه الآية (إنا أرسلنا الى قوم لوط) فدل هذا على أنهم كانوا مأمورين من عند الله تعالى بالذهاب الى قوم لوط وبإيصال هذا العذاب إليهم .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه تعالى أمر جمعاً من الملائكة بأن يخربوا تلك المدائن فى وقت معين . فلما جاء ذلك الوقت أقدموا على ذلك العمل ، فكان قوله (فلما جاء أمرنا) إشارة الى ذلك التكليف .

فان قيل : لو كان الأمر كذلك ، لوجب أن يقال : فلما جاء أمرنا جعلوا عاليها سافلها ، لأن الفعل صدر عن ذلك المأمور .

قلنا : هذا لا يلزم على مذهبنا ، لأن فعل العبد فعل الله تعالى عندنا . وأيضا أن الذى وقع منهم إنما وقع بأمر الله تعالى وبقدرته ، فلم يبعد إضافته الى الله عز وجل ، لأن الفعل كما تحسن إضافته الى المباشر ، فقد تحسن أيضا إضافته الى السبب .

﴿القول الثانى﴾ أن يكون المراد من الأمر ههنا قوله تعالى (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقد تقدم تفسير ذلك الأمر .

﴿القول الثالث﴾ أن يكون المراد من الأمر العذاب . وعلى هذا التقدير فيحتاج الى الاضمار ، والمعنى : ولما جاء وقت عذابنا جعلنا عاليها سافلها ،

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن ذلك العذاب قد وصفه الله تعالى فى هذه الآية بنوعين من الوصف فالأول : قوله (جعلنا عاليها سافلها) روى أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها الى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمير ونباح الكلاب وصياح الديوك ، ولم تنكفئ لهم جرة ، ولم ينكب لهم إناء ، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض .

واعلم أن هذا العمل كان معجزة قاهرة من وجهين : أحدهما : أن قلع الأرض وإصعادها إلى قريب من السماء فعل خارق للعادات . والثانى : أن ضربها من ذلك البعد البعيد على الأرض بحيث لم تتحرك سائر القرى المحيطة بها البتة ، ولم تصل الآفة إلى لوط عليه السلام وأهله مع قرب مكانهم من ذلك الموضع معجزة قاهرة أيضا . الثانى : قوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) واختلفوا فى السجيل على وجوه : الأول : أنه فارسى معرب وأصله سنككل وأنه شىء مركب من الحجر والطين بشرط أن يكون فى غاية الصلابة ، قال الأزهرى : لما عربته العرب صار عربياً وقد عربت حروفاً كثيرة كالديباج والديوان والاستبرق . والثانى : سجيل ، أى مثل السجل وهو الدلو العظيم . والثالث : سجيل ، أى شديد من الحجارة . الرابع : مرسلة عليهم من أسجلته إذا أرسلته وهو فعيل منه . الخامس : من أسجلته ، أى أعطيته تقديره مثل العطية فى الادرار ، وقيل : كان كتب عليها أسامى المعذبين . السادس : وهو من السجل وهو الكتاب تقديره من مكتوب فى الأزل أى كتب الله أن يعذبهم بها ، والسجيل أخذ من السجل وهو الدلو العظيمة لأنه يتضمن أحكاماً كثيرة ، وقيل : مأخوذ من المساجلة وهى المفاخرة . والسابع : من سجيل أى من جهنم أبدلت النون لاما . والثامن : من السماء الدنيا ، وتسمى سجيلا عن أبى زيد ، والتاسع : السجيل الطين ، لقوله تعالى (حجارة من طين) وهو قول عكرمة وقتادة . قال الحسن : كان أصل الحجر هو من الطين ، إلا أنه صلب بمرور الزمان . والعاشر : سجيل موضع الحجارة ، وهى جبال مخصوصة . ومنه قوله تعالى (من جبال فيها من برد)

واعلم أنه تعالى وصف تلك الحجارة بصفات :

﴿فالصفة الأولى﴾ كونها من سجيل ، وقد سبق ذكره .

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ «٨٤» وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا

﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى (منضود) قال الواحدى : هو مفعول من النضد ، وهو موضع الشيء بعضه على بعض ، وفيه وجوه : الأول : أن تلك الحجارة كان بعضها فوق بعض فى النزول فأتى به على سبيل المبالغة . والثانى : أن كل حجر فان مافيه من الأجزاء منضود بعضها ببعض ، وملتصق بعضها ببعض . والثالث : أنه تعالى كان قد خلقها فى معادنها ونضد بعضها فوق بعض ، وأعدها لاهلاك الظلمة .

واعلم أن قوله (منضود) صفة للسجيل .

﴿الصفة الثالثة﴾ مسومة ، وهذه الصفة صفة الأحجار ومعناها المعلمة . وقد مضى الكلام فيه فى تفسير قوله (والخيل المسومة) واختلفوا فى كيفية تلك العلامة على وجوه : الأول : قال الحسن والسدى : كان عليها أمثال الخواتيم . الثانى : قال ابن صالح : رأيت منها عند أم هانئ حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع . الثالث : قال ابن جريج : كان عليها سيما لاتشارك حجارة الأرض ، وتدل على أنه تعالى إنما خلقها للعذاب . الرابع : قال الربيع : مكتوب على كل حجر اسم من رمى به .

ثم قال تعالى ﴿عند ربك﴾ أى فى خزائنه التى لا يتصرف فيها أحد إلا هو .

ثم قال ﴿وما هى من الظالمين ببعيد﴾ يعنى به كفار مكة ، والمقصود أنه تعالى يرميهم بها . عن أنس أنه قال : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام عن هذا فقال . يعنى عن ظالمى أمتك ، مامن ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة . وقيل : الضمير فى قوله (وما هى) للقرى . أى وما تلك القرى التى وقعت فيها هذه الواقعة من كفار مكة ببعيد ، وذلك لأن القرى كانت فى الشأم . وهى قريب من مكة .

قوله تعالى ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٨٥» بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ «٨٦»

بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾

اعلم أن هذا هو القصة السادسة من القصص المذكورة فى هذه السورة. واعلم أن مدين اسم ابن لابراهيم عليه السلام، ثم صار اسماً للقبيلة، وكثير من المفسرين يذهب الى أن مدين اسم مدينة بناها مدين بن إبراهيم عليه السلام. والمعنى على هذا التقدير: وأرسلنا الى أهل مدين لحذف الأهل.

واعلم أنا بينا أن الأنبياء عليهم السلام يشرعون فى أول الأمر بالدعوة الى التوحيد، فلهذا قال شعيب عليه السلام (مالكم من إله غيره) ثم إنهم بعد الدعوة الى التوحيد يشرعون فى الأهم ثم الأهم، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس فى المكيال والميزان، دعاهم الى ترك هذه العادة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) والنقص فيه على وجهين: أحدهما: أن يكون الايفاء من قبلهم فينقصون من قدره. والآخر: أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من الواجب وذلك يوجب نقصان حق الغير، وفى القسمين حصل النقصان فى حق الغير. ثم قال (إنى أراكم بخير) وفيه وجهان: الأول: أنه حذرهم من غلاء السعر وزوال النعمة إن لم يتوبوا فكأنه قال: اتركوا هذا التطفيف وإلا أزال الله عنكم ماحصل عندكم من الخير والراحة. والثانى: أن يكون التقدير أنه تعالى أتاكم بالخير الكثير والمال والرخص والسعة فلا حاجة بكم إلى هذا التطفيف. ثم قال (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) وفيه أبحاث:

﴿البحث الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: أخاف أى أعلم حصول عذاب يوم محيط وقال آخرون: بل المراد هو الخوف، لأنه يجوز أن يتركوا ذلك العمل خشية أن يحصل لهم العذاب ولما كان هذا التخويف قائماً فالحاصل هو الظن لا العلم.

﴿البحث الثانى﴾ أنه تعالى توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لايخرج منه أحد. والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر، وفى المعنى من صفة العذاب وذلك مجاز مشهور كقوله (هذا يوم عصيب)

﴿البحث الثالث﴾ اختلفوا فى المراد بهذا العذاب فقال بعضهم: هو عذاب يوم القيامة، لأنه اليوم الذى نصب لاحاطة العذاب بالمعذبين. وقال بعضهم: بل يدخل فيه عذاب الدنيا والآخرة

وقال بعضهم : بل المراد منه عذاب الاستئصال فى الدنيا كما فى حق سائر الأنبياء والأقرب دخول كل عذاب فيه واحاطة العذاب بهم كاحاطة الدائرة بما فى داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة فى الوعد كقوله (وأحيط بثمره) ثم قال (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط)

فان قيل : وقع التكرير فى هذه الآية من ثلاثة أوجه لأنه قال أولا (ولا تنقصوا المكيال والميزان) ثم قال (أوفوا المكيال والميزان) وهذا عين الأول . ثم قال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وهذا عين ماتقدم فما الفائدة فى هذا التكرير ؟

قلنا : إن فيه وجوهاً :

﴿الوجه الأول﴾ أن القوم كانوا مصرين على ذلك العمل فاحتج فى المنع منه إلى المبالغة والتأكيد . والتكرير يفيد التأكيد وشدة العناية والاهتمام .

﴿والوجه الثانى﴾ أن قوله (ولا تنقصوا المكيال والميزان) نهى عن التنقيص وقوله (أوفوا المكيال والميزان) أمر بايفاء العدل ، والنهى عن ضد الشىء مغاير للأمر به . وليس لقائل أن يقول : النهى عن ضد الشىء أمر به . فكان التكرير لازما من هذا الوجه . لأنا نقول : الجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى جمع بين الأمر والشىء . وبين النهى عن ضده للمبالغة . كما تقول : صل قرابتك ولا تقطعهم ، فيدل هذا الجمع على غاية التأكيد . الثانى : أن نقول لانسلم أن الأمر كما ذكرتم لأنه يجوز أن ينهى عن التنقيص وينهى أيضا عن أصل المعاملة . فهو تعالى منع من التنقيص وأمر بايفاء الحق ، ليدل ذلك على أنه تعالى لم يمنع عن المعاملات ولم ينه عن المبايعات . وانما منع من التطفيف . وذلك لأن طائفة من الناس يقولون إن المبايعات لاتنفك عن التطفيف ومنع الحقوق فكانت المبايعات محرمة بالكلية . فلأجل ابطال هذا الخيال . منع تعالى فى الآية الأولى من التطفيف وفى الآية الأخرى أمر بالايفاء . وأما قوله ثالثاً (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) فليس بتكرير لأنه تعالى خص المنع فى الآية السابقة بالنقصان فى المكيال والميزان . ثم إنه تعالى عم الحكم فى جميع الأشياء فظهر بهذا البيان أنها غير مكررة . بل فى كل واحد منها فائدة زائدة .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه تعالى قال فى الآية الأولى (ولا تنقصوا المكيال والميزان) وفى الثانية قال (أوفوا المكيال والميزان) والايفاء عبارة عن الاتيان به على سبيل الكمال والتمام . ولا يحصل ذلك إلا إذا أعطى قدراً زائداً على الحق ، ولهذا المعنى قال الفقهاء : إنه تعالى أمر بغسل الوجه وذلك لايحصل إلا عند غسل جزء من أجزاء الرأس . فالحاصل : انه تعالى فى الآية الأولى نهى عن النقصان ، وفى الآية الثانية أمر باعطاء قدر من الزيادة ولا يحصل الجزم واليقين بأداء الواجب

إلا عند أداء ذلك القدر من الزيادة فكأنه تعالى نهى أولا عن سعى الانسان فى أن يجعل مال غيره ناقصاً لتحصل له تلك الزيادة . وفى الثانية أمر بالسعى فى تنقيص مال نفسه ليخرج باليقين عن العهدة وقوله (بالقسط) يعنى بالعدل ومعناه الأمر بايفاء الحق بحيث يحصل معه اليقين بالخروج عن العهدة فالأمر بايتاء الزيادة على ذلك غير حاصل . ثم قال (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) والبخس هو النقص فى كل الأشياء ، وقد ذكرنا أن الآية الأولى دلت على المنع من النقص فى المكيال والميزان ، وهذه الآية دلت على المنع من النقص فى كل الأشياء . ثم قال (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين)

فان قيل : العثو الفساد التام فقوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) جار مجرى أن يقال : ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين .

قلنا : فيه وجوه : الأول : أن من سعى فى إيصال الضرر إلى الغير فقد حمل ذلك الغير على السعى إلى إيصال الضرر إليه فقوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) معناه ولا تسعوا فى افساد مصالح الغير فان ذلك فى الحقيقة سعى منكم فى افساد مصالح أنفسكم . والثانى : أن يكون المراد من قوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) مصالح دنياكم وآخرتكم . والثالث : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين مصالح الاديان . ثم قال (بقية الله خير لكم) قرىء تقية الله وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى . ثم نقول المعنى : ماأبقى الله لكم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف يعنى المال الحلال الذى يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق البخس والتطفيف وقال الحسن : بقية الله أى طاعة الله خير لكم من ذلك القدر القليل ، لأن ثواب الطاعة يبقى أبداً ، وقال قتادة : حظكم من ربكم خير لكم ، وأقول المراد من هذه البقية إما المال الذى يبقى عليه فى الدنيا ، واما ثواب الله ، وأما كونه تعالى راضياً عنه والكل خير من قدر التطفيف ، أما المال الباقى فلأن الناس إذا عرفوا إنساناً بالصدق والأمانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا فى كل المعاملات إليه فيفتح عليه باب الرزق ، وإذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ولم يخالطوه البتة فتضيق أبواب الرزق عليه ، وأما إن حملنا هذه البقية على الثواب فالأمر ظاهر ، لأن كل الدنيا تفنى وتنقرض وثواب الله باق ، وأما إن حملناه على حصول رضا الله تعالى فالأمر فيه ظاهر . فثبت بهذا البرهان أن بقية الله خير . ثم قال (إن كنتم مؤمنين) وانما شرط الايمان فى كونه خيراً لهم لأنهم ان كانوا مؤمنين مقرين بالثواب والعقاب عرفوا أن السعى فى تحصيل الثواب وفى الحذر من العقاب خير لهم من السعى فى تحصيل ذلك القليل .

واعلم أن المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط ، فهذه الآية تدل بظاهرها على أن من لم يحترز

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ «٨٧»

عن هذا التطفيف فانه لايكون مؤمناً .

ثم قال تعالى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن يكون المعنى : إنى نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير (وما أنا عليكم بحفيظ) أى لاقدرة لى على منعكم عن هذا العمل القبيح . الثانى : أنه قد أشار فيما تقدم إلى أن الاشتغال بالبخس والتطفيف يوجب زوال نعمة الله تعالى فقال (وما أنا عليكم بحفيظ) يعنى لولم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعم الله عنكم وأنا لاأقدر على حفظها عليكم فى تلك الحالة .

قوله تعالى ﴿قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أوأن نفعل فى أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم (أصلاتك) بغير واو . والباقون (أصلواتك) على الجمع .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن شعيباً عليه السلام أمرهم بشيئين . بالتوحيد وترك البخس فالقوم أنكروا عليه أمره بهذين النوعين من الطاعة . فقوله (أن نترك مايعبد آباؤنا) إشارة إلى أنه أمرهم بالتوحيد وقوله (أوأن نفعل فى أموالنا مانشاء) إشارة الى أنه أمرهم بترك البخس . أما الأول : فقد أشاروا فيه إلى التمسك بطريقة التقليد ، لأنهم استبعدوا منه أن يأمرهم بترك عبادة ماكان يعبد آباؤهم يعنى الطريقة التى أخذناها من آبائنا وأسلافنا كيف نتركها . وذلك تمسك بمحض التقليد .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى لفظ الصلاة وههنا قولان : الأول : المراد منه الدين والايمان ، لأن الصلاة أظهر شعار الدين فجعلوا ذكر الصلاة كناية عن الدين . أو نقول : الصلاة أصلها من الاتباع ومنه أخذ المصلى من الخيل الذى يتلو السابق لأن رأسه يكون على صلوى السابق وهما ناحيتا الفخذين والمراد : دينك يأمرك بذلك . والثانى : أن المراد منه هذه الأعمال المخصوصة ، روى أن شعيباً كان كثير الصلاة وكان قومه إذارأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا . فقصدوا بقولهم : أصلاتك تأمرك السخرية والهزؤ ، وكما أنك إذا رأيت معتوهاً يطالع كتباً ثم يذكر كلاماً فاسداً فيقال له : هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزؤ والسخرية فكذا ههنا .

قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ «٨٨» وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ

فان قيل: تقدير الآية: أصلواتك تأمرك أن نفعل فى أموالنا مانشاء. وهم إنما ذكروا هـذا الكلام على سبيل الانكار، وهم ماكانوا ينكرون كونهـم فاعلين فى أموالهم ما يشاؤن. فكيف وجه التأويل.

قلنا: فيه وجهان: الأول: التقدير: أصلواتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا. وأن نترك فعل مانشاء، وعلى هذا فقوله (أو أن نفعل) معطوف على مافى قوله (مايعبد آباؤنا) والثانى: أن تجعل الصلاة آمرة وناهية والتقدير: أصلواتك تأمرك بأن نترك عبادة الأوثان وتنهاك أن نفعل فى أموالنا مانشاء، وقرأ ابن أبى عبلة (أو أن تفعل فى أموالنا ماتشاء) بتاء الخطاب فيهما وهو ماكان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس والاقتناع بالحلال القليل وأنه خير من الحرام الكثير.

ثم قال تعالى حكاية عنهم ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ وفيه وجوه:

﴿الوجه الأول﴾ أن يكون المعنى إنك لأنت السفيه الجاهل إلا أنهم عكسوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية به، كما يقال للبخيل الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك.

﴿والوجه الثانى﴾ أن يكون المراد إنك موصوف عند نفسك وعند قومك بالحلم والرشد.

﴿والوجه الثالث﴾ أنه عليه السلام كان مشهوراً عندهم بأنه حليم رشيد، فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم. قالوا له: إنك لأنت الحليم الرشيد المعروف الطريقة فى هذا الباب. فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفاً بالحلم والرشد وهذا الوجه أصوب الوجوه.

قوله تعالى ﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح مااستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما

لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ «٨٩» وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ «٩٠»

قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى حكى عن شعيب عليه السلام ماذكره فى الجواب عن كلماتهم فالأول قوله (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً) وفيه وجوه : الأول : أن قوله (إن كنت على بينة من ربى) إشارة إلى ما آتاه الله تعالى من العلم والهداية والدين والنبوة وقوله (ورزقنى منه رزقاً حسناً) إشارة إلى ما آتاه الله من المال الحلال ، فانه يروى أن شعيباً عليه السلام كان كثير المال .

واعلم أن جواب إن الشرطية محذوف . والتقدير: أنه تعالى لما آتانى جميع السعادات الروحانية وهى البينة والسعادات الجسمانية وهى المال والرزق الحسن فهل يسعنى مع هذا الانعام العظيم أن أخون فى وحيه وأن أخالفه فى أمره ونهيه ، وهذا الجواب شديد المطابقة لما تقدم وذلك لأنهم قالوا له (إنك لأنت الحليم الرشيد) فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا فكأنه قال إنما أقدمت على هذا العمل ، لأن نعم الله تعالى عندى كثيرة وهو أمرنى بهذا التبليغ والرسالة ، فكيف يليق بى مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمره وتكليفه . الثانى : أن يكون التقدير كأنه يقول لما ثبت عندى أن الاشتغال بعبادة غير الله والاشتغال بالبخس والتطفيف عمل منكر ، ثم أنا رجل أريد إصلاح أحوالكم ولا أحتاج إلى أموالكم لأجل أن الله تعالى آتانى رزقاً حسناً فهل يسعنى مع هذه الأحوال أن أخون فى وحى الله تعالى وفى حكمه . الثالث : قوله (إن كنت على بينة من ربى) أى ماحصل عنده من المعجزة وقوله (ورزقنى منه رزقاً حسناً) المراد أنه لايسألهم أجراً ولا جعلا وهو الذى ذكره سائر الأنبياء من قولهم (لاأسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على رب العالمين)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (ورزقنى منه رزقاً حسنا) يدل على أن ذلك الرزق إنما حصل من عند الله تعالى وباعانته وأنه لامدخل للكسب فيه . وفيه تنبيه على أن الاعزاز من الله تعالى والاذلال من الله تعالى . واذا كان الكل من الله تعالى فأنا لا أبالى بمخالفتكم ولا أفرح بموافقتكم . وإنما أكون على تقرير دين الله تعالى وايضاح شرائع الله تعالى .

﴿وأما الوجه الثانى﴾ من الأجوبة التى ذكرها شعيب عليه السلام فقوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) قال صاحب الكشاف: يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مول عنه وخالفنى عنه اذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه. فيقول: خالفنى إلى الماء. يريد أنه قد ذهب اليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادرا. ومنه قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) يعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم فهذا بيان اللغة، وتحقيق الكلام فيه أن القوم اعترفوا بأنه حليم رشيد، وذلك يدل على كمال العقل، وكمال العقل يحمل صاحبه على اختيار الطريق الأصوب الأصلح. فكأنه عليه السلام قال لهم لما اعترفتم بكمال عقلى فاعلموا أن الذى اختاره عقلى لنفسى لابد وأن يكون أصوب الطرق وأصلحها والدعوة إلى توحيد الله تعالى وترك البخس والنقصان يرجع حاصلهما إلى جزأين، التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى وأنا مواظب عليهما غير تارك لهما فى شىء من الأحوال البتة فلما اعترفتم لى بالحلم والرشد وترون أنى لا أترك هذه الطريقة، فاعلموا أن هذه الطريقة خير الطرق، وأشرف الأديان والشرائع.

﴿وأما الوجه الثالث﴾ من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت) والمعنى ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى، وقوله (ما استطعت) فيه وجوه: الأول: أنه ظرف. والتقدير: مدة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه لا آلو فيه جهداً. والثانى: أنه بدل من الاصلاح. أى المقدار الذى استطعت منه. والثالث: أن يكون مفعولا له أى ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت اصلاحه.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام أن القوم كانوا قد أقروا بأنه حليم رشيد. وإنما أقروا له بذلك لأنه كان مشهوراً فيما بين الخلق بهذه الصفة. فكأنه عليه السلام قال لهم انكم تعرفون من حالى أنى لا أسعى إلا فى الاصلاح وازالة الفساد والخصومة. فلما أمرتكم بالتوحيد وترك ايذاء الناس، فاعلموا أنه دين حق وانه ليس غرضى منه إيقاع الخصومة واثارة الفتنة، فانكم تعرفون أنى أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصلح والصلاح بقدر طاقتى. وذلك هو الابلاغ والانذار، وأما الاجبار على الطاعة فلا أقدر عليه. ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب) وبين بهذا أن توكله واعتماده فى تنفيذ كل الأعمال الصالحة على توفيق الله تعالى وهدايته.

واعلم أن قوله عليه السلام توكلت إشارة الى محض التوحيد، لأن قوله عليه السلام توكلت يفيد

الحصر . وهو أنه لاينبغى للانسان أن يتوكل على أحد الا على الله تعالى وكيف وكل ماسوى الحق سبحانه ممكن لذاته . فان بذاته . ولا يحصل إلا بايجاده وتكوينه ، وإذا كان كذلك لم يجز التوكل إلا على الله تعالى وأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الذى ذكرناه ، وأما قوله (واليه أنيب) فهو إشارة إلى معرفة المعاد . وهو أيضا يفيد الحصر لأن قوله (واليه أنيب) يدل على أنه لامرجع للخلق الا إلى الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيب عليه السلام قال «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته فى كلامه بين قومه .

﴿وأما الوجه الرابع﴾ من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله (وياقوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم) قال صاحب الكشاف : جرم مثل كسب فى تعديته تارة إلى مفعول واحد وأخرى إلى مفعولين يقال جرم ذنبا وكسبه وجرمه ذنبا وكسبه اياه ، ومنه قوله تعالى (لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم) أى لايكسبنكم شقاقى اصابة العذاب . وقرأ ابن كثير (يجرمنكم) بضم الياء من أجرمته ذنبا إذا جعلته جارما له أى كاسبا له . وهومنقول من جرم المعتدى الى مفعول واحد ، وعلى هذا فلا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته اياه . والقراءتان مستويتان فى المعنى لاتفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظا كما ان كسبه مالا أفصح من أكسبه .

إذا عرفت هذا فنقول : المراد من الآية لاتكسبنكم معاداتكم اياى أن يصيبكم عذاب الاستئصال فى الدنيا مثل ماحصل لقوم نوح عليه السلام من الغرق ، ولقوم هود من الريح العقيم . ولقوم صالح من الرجفة ، ولقوم لوط من الخسف .

وأما قوله ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ ففيه وجهان : الأول : أن المراد نفى البعد فى المكان لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين . والثانى : أن المراد نفى البعد فى الزمان لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الاهلاكات التى عرفها الناس فى زمان شعيب عليه السلام . وعلى هذين التقديرين فان القرب فى المكان وفى الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب .

فان قيل : لم قال (وما قوم لوط منكم ببعيد) وكان الواجب أن يقال ببعيدين ؟

أجاب عنه صاحب الكشاف من وجهين : الأول : أن يكون التقدير ما إهلاكهم شيء بعيد . الثانى : أنه يجوز أن يسوى فى قريب وبعيد وكثير وقليل بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التى هى الصهيل والنهيق ونحوهما .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ «٩١»

﴿وأما الوجه الخامس﴾ من الوجوه التى ذكرها شعيب عليه السلام فهو قوله : واستغفروا ربكم من عبادة الأوثان ثم توبوا اليه عن البخس والنقصان إن ربى رحيم بأوليائه ودود . قال أبو بكر الأنبارى : الودود فى أسماء الله تعالى المحب لعباده ، من قولهم وددت الرجل أوده ، وقال الأزهرى فى كتاب شرح أسماء الله تعالى ويجوز أن يكون ودود فعولا بمعنى مفعول كركوب وحلوب ، ومعناه أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه لكثرة إفضاله واحسانه على الخلق .

واعلم أن هذا الترتيب الذى راعاه شعيب عليه السلام فى ذكر هذه الوجوه الخمسة ترتيب لطيف . وذلك لأنه بين أولا أن ظهور البينة له وكثرة إنعام الله تعالى عليه فى الظاهر والباطن يمنعه عن الخيانة فى وحى الله تعالى ويصده عن التهاون فى تكاليفه ، ثم بين ثانيا أنه مواظب على العمل بهذه الدعوة ولو كانت باطلة لما اشتغل هو بها مع اعترافكم بكونه حليما رشيدا ، ثم بين صحته بطريق آخر وهو أنه كان معروفا بتحصيل موجبات الصلاح واخفاء موجبات الفتن ، فلو كانت هذه الدعوة باطلة لما اشتغل بها ، ثم لما بين صحة طريقته أشار إلى نفى المعارض وقال لا ينبغى أن تحملكم عداوتى على مذهب ودين تقعون بسببه فى العذاب الشديد من الله تعالى . كما وقع فيه أقوام الأنبياء المتقدمين ، ثم انه لما صحح مذهب نفسه بهذه الدلائل عاد إلى تقرير ما ذكره أولا وهو التوحيد والمنع من البخس بقوله (ثم توبوا اليه) ثم بين لهم أن سبق الكفر والمعصية منهم لا ينبغى أن يمنعهم من الايمان والطاعة لأنه تعالى رحيم ودود يقبل الايمان والتوبة من الكافر والفاسق لأن رحمته لعباده وحبه لهم يوجب ذلك ، وهذا التقرير فى غاية الكمال .

قوله تعالى ﴿قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾

اعلم أنه عليه السلام لما بالغ فى التقرير والبيان ، أجابوه بكلمات فاسدة. فالأول : قولهم (ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول) وفيه مسائل .

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : انه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم ، فلم قالوا (مانفقه) والعلماء ذكروا عنه أنواعا من الجوابات : فالأول : أن المراد : مانفهم كثيرا مما تقول ، لأنهم

كانوا لا يلقون اليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) الثانى : أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ماأقاموا له وزنا ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم يعبأ بحديثه : ماأدرى ماتقول . الثالث : أن هذه الدلائل التى ذكرها ماأقنعتهم فى صحة التوحيد والنبوة والبعث . وما يجب من ترك الظلم والسرقة . فقولهم (مانفقه) أى لم نعرف صحة الدلائل التى ذكرتها على صحة هذه المطالب .

﴿المسألة الثانية﴾ من الناس من قال : الفقه اسم لعلم مخصوص ، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه . واحتجوا بهذه الآية وهى قوله (مانفقه كثيراً مما تقول) فأضاف الفقه الى القول . ثم صار اسماً لنوع معين من علوم الدين ، ومنهم من قال : انه اسم لمطلق الفهم . يقال : أوتى فلان فقهاً فى الدين ، أى فهماً . وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» أى يفهمه تأويله .

﴿والنوع الثانى﴾ من الأشياء التى ذكروها قولهم (وانا لنراك فينا ضعيفا) وفيه وجهان : الأول : أنه الضعيف الذى يتعذر عليه منع القوم عن نفسه ، والثانى : أن الضعيف هو الأعمى بلغة حمير . واعلم أن هذا القول ضعيف لوجوه : الأول : أنه ترك للظاهر من غير دليل ، والثانى : أن قوله (فينا) يبطل هذا الوجه ، ألا ترى أنه لو قال : انا لنراك أعمى فينا كان فاسداً ، لأن الأعمى أعمى فيهم وفى غيرهم . الثالث : أنهم قالوا بعد ذلك (ولولا رهطك لرجمناك) فنفوا عنه القوة التى أثبتوها فى رهطه ، ولما كان المراد بالقوة التى أثبتوها للرهط هى النصرة ، وجب أن تكون القوة التى نفوها عنه هى النصرة ، والذين حملوا اللفظ على ضعف البصر لعلهم انما حملوه عليه ، لأنه سبب للضعف .

واعلم أن أصحابنا يجوزون العمى على الأنبياء ، الا أن هذا اللفظ لايحسن الاستدلال به فى إثبات هذا المعنى لما بيناه . وأما المعتزلة فقد اختلفوا فيه فمنهم من قال : انه لايجوز لكونه متعبدا فانه لايمكنه الاحتراز عن النجاسات ، ولأنه يخل بجواز كونه حاكما وشاهداً ، فلأن يمنع من النبوة كان أولى . والكلام فيه لايليق بهذه الآية ، لأنا بينا أن الآية لادلالة فيها على هذا المعنى .

﴿والنوع الثالث﴾ من الأشياء التى ذكروها قولهم (ولولا رهطك لرجمناك) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : الرهط من الثلاثة الى العشرة . وقيل إلى السبعة ، وقد كان رهطه على ملتهم . قالوا لولا حرمة رهطك عندنا بسبب كونهم على ملتنا لرجمناك ، والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لاحرمة له عندهم ، ولا وقع له فى صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٩٢» وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ «٩٣»

لأجل احترامهم رهطه.

﴿المسألة الثانية﴾ الرجم فى اللغة عبارة عن الرمى، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل، ولما كان هذا الرجم سبباً للقتل لاجرم سموا القتل رجما، وقد يكون بالقول الذى هو القذف، كقوله (رجماً بالغيب) وقوله (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) وقد يكون بالشتم واللعن. ومنه قوله (الشيطان الرجيم) وقد يكون بالطرد كقوله (رجوماً للشياطين)

إذا عرفت هذا فى الآية وجهان: الأول (لرجمناك) لقتلناك. الثانى: لشتمناك وطردناك.

﴿النوع الرابع﴾ من الأشياء التى ذكروها قولهم (وما أنت علينا بعزيز) ومعناه أنك لما لم تكن علينا عزيزاً سهل علينا الاقدام على قتلك وإيذائك.

واعلم أن كل هذه الوجوه التى ذكروها ليست دافعاً لما قرره شعيب عليه السلام من الدلائل والبينات، بل هى جارية مجرى مقابلة الدليل والحجة بالشتم والسفاهة.

قوله تعالى ﴿قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربى بما تعملون محيط وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب﴾

اعلم أن الكفار لما خوفوا شعيبا عليه السلام بالقتل والايذاء. حكى الله تعالى عنه ماذكره فى هذا المقام. وهو نوعان من الكلام:

﴿النوع الأول﴾ قوله (ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط) والمعنى: أن القوم زعموا أنهم تركوا إيذاءه رعاية لجانب قومه. فقال: أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلى إكراماً لرهطى، والله تعالى أولى أن يتبع أمره، فكأنه يقول: حفظتكم

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ «٩٤» كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ «٩٥»

إياى رعاية لأمر الله تعالى أولى من حفظكم إياى رعاية لحق رهطى .

وأما قوله ﴿واتخذتموه وراءكم ظهريا﴾ فالمعنى : أنكم نسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به . قال صاحب الكشاف : والظهرى منسوب الى الظهر ، والكسر من تغيرات النسب ونظيره قولهم فى النسبة إلى الأمس أمسى بكسر الهمزة . وقوله (إن ربى بما تعملون محيط) يعنى أنه عالم بأحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها .

﴿والنوع الثانى﴾ قوله (وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل) والمكانة الحالة يتمكن بها صاحبها من عمله ، والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكل مافى وسعكم وطاقتكم من إيصال الشرور إلى فانى أيضاً عامل بقدر ما آتانى الله تعالى من القدرة .

ثم قال ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ وفيه مسألتان

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول لم لم يقل (فسوف تعلمون) والجواب : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل . وإما بحذف الفاء فانه يجعله جواباً عن سؤال مقدر والتقدير : أنه لما قال (وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل) فكأنهم قالوا فماذا يكون بعد ذلك ؟ فقال (سوف تعلمون) فظهر أن حذف حرف الفاء ههنا أكمل فى باب الفظاعة والتهويل . ثم قال وارتقبوا إنى معكم رقيب) والمعنى : فانتظروا العاقبة إنى معكم رقيب . أى منتظر . والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضريب والصريم بمعنى الضارب والصارم . أو بمعنى المراقب كالعشير والنديم ، أو بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع .

قوله تعالى ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾

روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ «٩٦» إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ «٩٧» يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ «٩٨» وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ «٩٩»

وقوله (ولما جاء أمرنا) يحتمل أن يكون المراد منه ولما جاء وقت أمرنا ملكا من الملائكة بتلك الصيحة ، ويحتمل أن يكون المراد من الأمر العقاب ، وعلى التقديرين فأخبر الله أنه نجى شعيباً ومن معه من المؤمنين برحمة منه وفيه وجهان : الأول : أنه تعالى إنما خلصه من ذلك العذاب لمحض رحمته ، تنبيها على أن كل مايصل إلى العبد فليس إلا بفضل الله ورحمته . والثانى : أن يكون المراد من الرحمة الايمان والطاعة وسائر الأعمال الصالحة وهى أيضا ماحصلت إلا بتوفيق الله تعالى ، ثم وصف كيفية ذلك العذاب فقال (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) وانما ذكر الصحية بالألف واللام إشارة إلى المعهود السابق وهى صيحة جبريل عليه السلام (فاصبحوا فى ديارهم جاثمين) والجاثم الملازم لمكانه الذى لايتحول عنه يعنى أن جبريل عليه السلام لما صاح بهم تلك الصيحة زهق روح كل واحد منهم بحيث يقع فى مكانه ميتاً (كأن لم يغنوا فيها) أى كأن لم يقيموا فى ديارهم أحياء متصرفين مترددين .

ثم قال تعالى ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ وقد تقدم تفسير هذه اللفظة وانما قاس حالهم على ثمود لما ذكرنا أنه تعالى عذبهم مثل عذاب ثمود .

قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود﴾

واعلم أن هذه هى القصة السابعة من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة وهى آخر القصص من هذه السورة ، أما قوله (بآياتنا وسلطان مبين) ففيه وجوه : الأول : أن المراد من الآيات التوراة مع مافيها من الشرائع والاحكام ، ومن السلطان المبين المعجزات القاهرة الباهرة

والتقدير : ولقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف وأيدناه بمعجزات قاهرة وبينات باهرة الثانى : أن الآيات هى المعجزات والبينات وهو كقوله (إن عندكم من سلطان بهذا) وقوله (ماأنزل الله بها من سلطان) وعلى هذا التقدير فى الآية وجهان : الأول : أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته . الثانى : أن يراد بالسلطان المبين العصا . لأنه أشهرها وذلك لأنه تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وهى العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والأنفس . ومنهم من أبدل نقص الثمرات والأنفس باظلال الجبل وفلق البحر ، واختلفوا فى أن الحجة لم سميت بالسلطان . فقال بعض المحققين : لأن صاحب الحجة يقهر من لاحجة معه عند النظر كما يقهر السلطان غيره . فلهذا توصف الحجة بأنها سلطان ، وقال الزجاج : السلطان هو الحجة والسلطان سمى سلطاناً لأنه حجة الله فى أرضه واشتقاقه من السليط . والسليط مايضاء به ومن هذا قيل للزيت السليط وفيه قول ثالث : وهو أن السلطان مشتق من التسليط . والعلماء سلاطين بسبب كمالهم فى القوة العلمية والملوك سلاطين بسبب مامعهم من القدرة والمكنة ، إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك . لأن سلطنة العلماء لاتقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولأن سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء وسلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة .

فان قيل : إذا حملتم الآيات المذكورة فى قوله (بآياتنا) على المعجزات والسلطان أيضاً على الدلائل والمبين أيضاً معناه كونه سبباً للظهور فما الفرق بين هذه المراتب الثلاثة ؟

قلنا : الآيات اسم للقدر المشترك بين العلامات التى تفيد الظن . وبين الدلائل التى تفيد اليقين وأما السلطان فهو اسم لما يفيد القطع واليقين ، إلا أنه اسم للقدر المشترك بين الدلائل التى تؤكد بالحس ، وبين الدلائل التى لم تتأكد بالحس . وأما الدليل القاطع الذى تأكد بالحس فهو السلطان المبين . ولما كانت معجزات موسى عليه السلام هكذا لاجرم وصفها الله بأنها سلطان مبين . ثم قال (الى فرعون وملائه) يعنى وأرسلنا موسى بآياتنا بمثل هذه الآيات إلى فرعون وملائه . أى جماعته . ثم قال (فاتبعوا أمر فرعون) ويحتمل أن يكون المراد أمره إياهم بالكفر بموسى ومعجزاته ويحتمل أن يكون المراد من الأمر الطريق والشأن .

ثم قال تعالى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أى بمرشد إلى خير ، وقيل رشيد أى ذى رشد

وأعلم أن بعد طريق فرعون عن الرشد كان ظاهراً لأنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد وكان يقول : لا إله للعالم وانما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية

لمصلحة العالم وأنكر أن يكون الرشد فى عبادة الله ومعرفته فلما كان هو نافياً لهذين الأمرين كان خالياً عن الرشد بالكلية . ثم إنه تعالى ذكر صفته وصفة قومه فقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ من حيث اللغة يقال : قدم فلان فلاناً بمعنى تقدمه ، ومنه قادمة الرجل كما يقال قدمه بمعنى تقدمه . ومنه مقدمة الجيش .

﴿والبحث الثانى﴾ من حيث المعنى وهو أن فرعون كان قدوة لقومه فى الضلال حال ما كانوا فى الدنيا وكذلك مقدمهم إلى النار وهم يتبعونه ، أو يقال كما تقدم قومه فى الدنيا فأدخلهم فى البحر وأغرقهم فكذلك يتقدمهم يوم القيامة فيدخلهم النار ويحرقهم ، ويجوز أيضاً أن يريد بقوله (وما أمر فرعون برشيد) أى وما أمره بصالح حميد العاقبة ويكون قوله (يقدم قومه) تفسيراً لذلك ، وإيضاحا له ، أى كيف يكون أمره رشيداً مع أن عاقبته هكذا .

فان قيل : لم لم يقل : يقدم قومه فيوردهم النار ؟ بل قال : يقدم قومه فأوردهم النار بلفظ الماضى .

قلنا : لأن الماضى قد وقع ودخل فى الوجود فلا سبيل البتة إلى دفعه ، فاذا عبر عن المستقبل بلفظ الماضى دل على غاية المبالغة . ثم قال (وبئس الورد المورود) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ لفظ «النار» مؤنث . فكان ينبغى أن يقال : وبئست الورد المورود إلا أن لفظ «الورد» مذكر ، فكان التذكير والتأنيث جائزين كما تقول : نعم المنزل دارك ، ونعمت المنزل دارك ، فمن ذكر غلب المنزل ومن أنث بنى على تأنيث الدار هكذا قاله الواحدى .

﴿البحث الثانى﴾ الورد قد يكون بمعنى الورود فيكون مصدراً وقد يكون بمعنى الوارد . قال تعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) وقد يكون بمعنى المورود عليه كالماء الذى يورد عليه . قال صاحب الكشاف : الورد المورود الذى حصل وروده ، فشبه الله تعالى فرعون بمن يتقدم الواردة إلى الماء وشبه أتباعه بالواردين إلى الماء ، ثم قال بئس الورد الذى يوردونه النار ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار ضده .

ثم قال ﴿وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة﴾ والمعنى أنهم أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة وفى يوم القيامة أيضا . ومعناه أن اللعن من الله ومن الملائكة والأنبياء ملتصق بهم فى الدنيا وفى الآخرة لا يزول عنهم . ونظيره قوله فى سورة القصص (وأتبعوا فى هـــذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ «١٠٠» وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ «١٠١»

ثم قال ﴿بئس الرفد المرفود﴾ والرفد هو العطية وأصله الذى يعين على المطلوب سأل نافع بن الأزرق بن عباس رضى الله عنهما عن قوله (بئس الرفد المرفود) قال هو اللعنة بعد اللعنة . قال قتادة : ترادفت عليهم لعنتان من الله تعالى لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة وكل شىء جعلته عونا لشىء فقد رفدته به ،

قوله تعالى ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قصص الأولين قال (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) والفائدة فى ذكرها أمور : أولها : أن الانتفاع بالدليل العقلى المحض إنما يحصل للانسان الكامل ، وذلك انما يكون فى غاية الندرة . فاما إذا ذكرت الدلائل ثم أكدت بأقاصيص الأولين صار ذكر هذه الأقاصيص كالموصل لتلك الدلائل العقلية إلى العقول .

﴿الوجه الثانى﴾ أنه تعالى خلط بهذه الأقاصيص أنواع الدلائل التى كان الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بها . ويذكر مدافعات الكفار لتلك الدلائل وشبهاتهم فى دفعها ، ثم يذكر عقيبهما أجوبة الأنبياء عنها ثم يذكر عقيبها أنهم لما أصروا واستكبروا وقعوا فى عذاب الدنيا وبقى عليهم اللعن والعقاب فى الدنيا وفى الآخرة ، فكان ذكر هذه القصص سبباً لايصال الدلائل والجوابات عن الشبهات إلى قلوب المنكرين . وسبباً لازالة القسوة والغلظة عن قلوبهم فثبت أن أحسن الطرق فى الدعوة إلى الله تعالى ماذكرناه .

﴿الفائدة الثالثة﴾ أنه عليه السلام كان يذكر هذه القصص من غير مطالعة كتب ، ولا تلمذ لأحد وذلك معجزة عظيمة تدل على النبوة كما قررناه .

﴿الفائدة الرابعة﴾ ان الذين يسمعون هذه القصص يتقرر عندهم أن عاقبة الصديق والزنديق والموافق والمنافق إلى ترك الدنيا والخروج عنها ، إلا أن المؤمن يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة ، والكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فى الدنيا

والعقاب فى الآخرة ، فاذا تكررت هذه الأقاصيص على السمع ، فلا بد وأن يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة ويحصل فى القلب خوف يحمله على النظر والاستدلال ، فهذا كلام جليل فى فوائد ذكر هذه القصص .

أما قوله ﴿ذلك من أنباء القرى﴾ ففيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ أن قوله (ذلك) اشارة إلى الغائب ، والمراد منه ههنا الاشارة إلى هذه القصص التى تقدمت ، وهى حاضرة . إلا أن الجواب عنه ماتقدم فى قوله (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

﴿البحث الثانى﴾ أن لفظ «ذلك» يشار به الى الواحد والاثنين والجماعة لقوله تعالى (لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) وأيضاً يحتمل أن يكون المراد ذلك الذى ذكرناه هو كذا وكذا .

﴿البحث الثالث﴾ قال صاحب الكشاف : «ذلك» مبتدأ (من أنباء القرى) خبر (نقصه عليك) خبر بعد خبر أى ذلك المذكور بعض أنباء القرى مقصوص عليك . ثم قال (منها قائم وحصيد) والضمير فى قوله (منها) يعود الى القرى شبه ما بقى من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما عفا منها وبطر بالحصيد ، والمعنى أن تلك القرى بعضها بقى منه شىء وبعضها هلك ومابقى منه أثر البتة .

ثم قال تعالى ﴿وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ وفيه وجوه : الأول : وماظلمناهم بالعذاب والاهلاك ، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية . الثانى : أن الذى نزل بالقوم ليس بظلم من الله بل هو عدل وحكمة ، لأجل أن القوم أولا ظلموا أنفسهم بسبب اقدامهم على الكفر والمعاصى فاستوجبوا لأجل تلك الأعمال من الله ذلك العذاب . الثالث : قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد وما نقصناهم من النعيم فى الدنيا والرزق ، ولكن نقصوا حظ أنفسهم حيث استخفوا بحقوق الله تعالى .

ثم قال ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء﴾ أى ما نفعتهم تلك الآلهة فى شىء البتة .

ثم قال ﴿وما زادوهم غير تتبيب﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : غير تخسير . يقال : تب اذا خسر وتببه غيره اذا أوقعه فى الخسران ، والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار . ثم انه تعالى أخبر أنهم عند مساس الحاجة الى المعين ماوجدوا منها شيئاً لاجلب نفع ولادفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ «١٠٢» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ «١٠٣» وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ «١٠٤»

الاعتقاد زال عنهم به منافع الدنيا والآخرة وجلب اليهم مضار الدنيا والآخرة ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران .

قوله تعالى ﴿وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره الا لأجل معدود﴾

وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم والجحدرى : (إذ أخذ القرى) بألف واحدة ، وقرأ الباقون بألفين .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى لما أخبر الرسول عليه السلام فى كتابه بما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء لما خالفوا الرسل وردوا عليهم من عذاب الاستئصال ، وبين أنهم ظلموا أنفسهم فحل بهم العذاب فى الدنيا قال بعده (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) فبين أن عذابه ليس بمقتصر على من تقدم ، بل الحال فى أخذ كل الظالمين يكون كذلك وقوله (وهى ظالمة) الضمير فيه عائد إلى القرى وهو فى الحقيقة عائد إلى أهلها ، ونظيره قوله (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة) وقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها)

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيدا وتقوية فقال (ان أخذه أليم شديد) فوصف ذلك العذاب بالايلام وبالشدة . ولا منغصة فى الدنيا إلا الألم ، ولا تشديد فى الدنيا وفى الآخرة . وفى الوهم والعقل الا تشديد الألم ،

واعلم أن هذه الآية تدل على أن من أقدم على ظلم فانه يجب عليه أن يتدارك ذلك بالتوبة والانابة لئلا يقع فى الأخذ الذى وصفه الله تعالى بأنه أليم شديد ولا ينبغى أن يظن أن هذه الأحكام

مختصة بأولئك المتقدمين ، لأنه تعالى لما حكى أحوال المتقدمين قال (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) فبين أن كل من شارك أولئك المتقدمين فى فعل مالا ينبغى ، فلابد وأن يشاركهم فى ذلك الأخذ الاليم الشديد .

ثم قال تعالى ﴿إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾ قال القفال : تقرير هذا الكلام أن يقال : إن هؤلاء انما عذبوا فى الدنيا لأجل تكذيبهم الانبياء واشراكهم بالله ، فاذا عذبوا فى الدنيا على ذلك وهى دار العمل ، فلان يعذبوا عليه فى الآخرة التى هى دار الجزاء كان أولى .

واعلم أن كثيرا ممن تنبه لهذا البحث من المفسرين عولوا على هذا الوجه ، بل هو ضعيف . وذلك لأن على هذا الوجه الذى ذكره القفال يكون ظهور عذاب الاستئصال فى الدنيا دليلا على أن القول بالقيامة والبعث والنشر حق وصدق ، وظاهر الآية يقتضى أن العلم بأن القيامة حق كالشرط فى حصول الاعتبار بظهور عذاب الاستئصال ، وهذا المعنى كالمضاد لما ذكره القفال ، لان القفال يجعل العلم بعذاب الاستئصال أصلا للعلم بأن القيامة حق . فبطل ماذكره القفال والاصوب عندى أن يقال : العلم بأن القيامة حق موقوف على العلم بأن المدبر لوجود هذه السموات والارضين فاعل مختار لاموجب بالذات ومالم يعرف الانسان أن إله العالم فاعل مختار وقادر على كل الممكنات وأن جميع الحوادث الواقعة فى السموات والأرضين لاتحصل الا بتكوينه وقضائه ، لايمكنه أن يعتبر بعذاب الاستئصال ، وذلك لان الذين يزعمون أن المؤثر فى وجود هذا العالم موجب بالذات لافاعل مختار ، يزعمون أن هذه الاحوال التى ظهرت فى أيام الانبياء مثل الغرق والحرق والخسف والمسخ والصيحة كلها انما حدثت بسبب قرانات الكواكب واتصال بعضها ببعض ، واذا كان الامر كذلك فحينئذ لايكون حصولها دليلا على صدق الانبياء ، فأما الذى يؤمن بالقيامة ، فلا يتم ذلك الايمان الااذا اعتقد أن إله العالم فاعل مختار وأنه عالم بجميع الجزئيات ، واذا كان الامر كذلك لزم القطع بأن حدوث هذه الحوادث الهائلة والوقائع العظيمة انما كان بسبب أن إله العالم خلقها وأوجدها وأنها ليست بسبب طوالع الكواكب وقراناتها ، وحينئذ ينتفع بسماع هذه القصص ، ويستدل بها على صدق الأنبياء ، فثبت بهذا صحة قوله (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة)

ثم قال تعالى ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآخرة وصف ذلك اليوم بوصفين : أحدهما : أنه يوم مجموع له الناس ، والمعنى أن خلق الأولين والآخرين كلهم يحشرون فى ذلك اليوم ويجمعون . والثانى : أنه يوم مشهود . قال ابن عباس رضى الله عنهما يشهده البر والفاجر . وقال آخرون يشهده أهل السماء

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ «١٠٥» فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ «١٠٦» خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ «١٠٧» وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ «١٠٨»

وأهل الأرض . والمراد من الشهود الحضور . والمقصود من ذكره أنه ربما وقع فى قلب انسان أنهم لما جمعوا فى ذلك الوقت لم يعرف كل أحد إلا واقعة نفسه ، فبين تعالى أن تلك الوقائع تصير معلومة للكل بسبب المحاسبة والمساءلة .

ثم قال تعالى ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ والمعنى أن تأخير الآخرة وافناء الدنيا موقوف على أجل معدود وكل ماله عدد فهو متناه وكل ماكان متناهيا فانه لابد وأن يفنى ، فيلزم أن يقال إن تأخير الآخرة سينتهى الى وقت لابد وأن يقيم الله القيامة فيه ، وأن تخرب الدنيا فيه . وكل ما هو آت قريب .

قوله تعالى ﴿يوم يأتى لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد فاما الذين شقوا فى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة (يأت) بحذف الياء والباقون باثبات الياء . قال صاحب الكشاف : وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل . ونحوه قولهم لا أدر حكاه الخليل وسيبويه .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف : فاعل يأتى هو الله تعالى كقوله (هل ينظرون

إلا أن يأتيهم الله) وقوله (أو يأتى ربك) ويعضده قراءة من قرأ (ومايؤخره) بالياء أقول لا يعجبنى هذا التأويل . لأن قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) حكاه الله تعالى عن أقوام والظاهر أنهم هم اليهود ، وذلك ليس فيه حجة وكذا قوله (أو يأتى ربك) أما ههنا فهو صريح كلام الله تعالى واسناد فعل الاتيان اليه مشكل .

فان قالوا : فما قولك فى قوله تعالى (وجاء ربك)

قلنا : هناك تأويلات ، وأيضاً فهو صريح ، فلا يمكن دفعه فوجب الامتناع منه بل الواجب أن يقال : المراد منه يوم يأتى الشىء المهيب الهائل المستعظم ، فحذف الله تعالى ذكره بتعيينه ليكون أقوى فى التخويف .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال صاحب الكشاف : العامل فى انتصاب الظرف هو قوله (لا تكلم) أو اضمار اذكر .

أما قوله ﴿لا تكلم نفس إلا باذنه﴾ ففيه حذف ، والتقدير : لا تكلم نفس فيه إلا باذن الله تعالى .

فان قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين سائر الآيات التى توهم كونها مناقضة لهذه الآية منها قوله تعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) ومنها أنهم يكذبون ويحلفون بالله عليه وهو قولهم (والله ربنا ما كنا مشركين) ومنها قوله تعالى (وقفوهم إنهم مسؤلون) ومنها قوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون)

والجواب من وجهين : الأول : أنه حيث ورد المنع من الكلام فهو محمول على الجوابات الحقية الصحيحة . الثانى : أن ذلك اليوم يوم طويل وله مواقف ، ففى بعضها يجادلون عن أنفسهم . وفى بعضها يكفون عن الكلام ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم .

أما قوله ﴿فمنهم شقى وسعيد﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : الضمير فى قوله (فمنهم) لأهل الموقف ولم يذكر لأنه معلوم ولأن قوله (لا تكلم نفس إلا باذنه) يدل عليه لأنه قد مر ذكر الناس فى قوله (مجموع له الناس)

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (فمنهم شقى وسعيد) يدل ظاهره على أن أهل الموقف لا يخرجون عن هذين القسمين .

فان قيل : أليس فى الناس مجانين واطفال وهم خارجون عن هذين القسمين ؟

قلنا : المراد من يحشر ممن أطلق للحساب وهم لايخرجون عن هذين القسمين .

فان قيل : قد احتج القاضى بهذه الآية على فساد ما يقال إن أهل الأعراف لا فى الجنه ولا فى النار فما قولكم فيه ؟

قلنا : لما سلم أن الأطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لأنهم لايحاسبون فلم لايجوز أيضاً أن يقال : إن أصحاب الأعراف خارجون عنه لأنهم أيضاً لايحاسبون . لأن الله تعالى علم من حالهم أن ثوابهم يساوى عذابهم ، فلا فائدة فى حسابهم .

فان قيل : القاضى استدل بهذه الآية أيضاً على أن كل من حضر عرصة القيامة فانه لابد وأن يكون ثوابه زائدا أو يكون عقابه زائدا ، فأما من كان ثوابه مساويا لعقابه فانه وإن كان جائزا فى العقل ، إلا أن هذا النص دل على أنه غير موجود .

قلنا : الكلام فيه ماسبق من أن السعيد هو الذى يكون من أهل الثواب . والشقى هو الذى يكون من أهل العقاب ، وتخصيص هذين القسمين بالذكر لايدل على نفى القسم الثالث . والدليل على ذلك : أن أكثر الآيات مشتملة على ذكر المؤمن والكافر فقط . وليس فيه ذكر ثالث لايكون لامؤمنا ولا كافرا مع أن القاضى أثبته . فاذا لم يلزم من عدم ذكر ذلك الثالث عدمه فكذلك لايلزم من ذكر هذا الثالث عدمه .

﴿المسألة الثالثة﴾ اعلم أنه تعالى حكم الآن على بعض أهل القيامة بأنه سعيد وعلى بعضهم بأنه شقى ، ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الأمر امتنع كونه بخلافه . وإلا لزم أن يصير خبر الله تعالى كذبا وعلمه جاهلا وذلك محال . فثبت أن السعيد لاينقلب شقيا وأن الشقى لاينقلب سعيدا ، وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب مرارا لاتحصى . وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : لما نزل قوله تعالى (فمنهم شقى وسعيد) قلت يارسول الله فعلى ماذا نعمل على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال «على شىء قد فرغ منه ياعمر وجفت به الأقلام وجرت به الأقدار . ولكن كل ميسر لما خلق له » وقالت المعتزلة : نقل عن الحسن أنه قال : فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله .

قلنا : الدليل القاطع لايدفع بهذه الروايات وأيضا فلا نزاع أنه انما شقى بعمله وانما سعد بعمله ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره كان الدليل الذى ذكرناه باقيا .

واعلم أنه تعالى لما قسم أهل القيامة إلى هذين القسمين شرح حال كل واحد منهما فقال (فاما الذين شقوا فنى النار لهم فيها زفير وشهيق) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكروا فى الفرق بين الزفير والشهيق وجوها :

﴿الوجه الأول﴾ قال الليث : الزفير أن يملأ الرجل صدره حال كونه فى الغم الشديد من النفس ولم يخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النفس ، وقال الفراء : يقال للفرس إنه عظيم الزفرة أى عظيم البطن وأقول إن الانسان إذا عظم غمه انحصر روح قلبه فى داخل القلب فاذا انحصر الروح قويت الحرارة وعظمت وعند ذلك يحتاج الانسان إلى النفس القوى لأجل أن يستدخل هواء كثيراً بارداً حتى يقوى على ترويح تلك الحرارة ، فلهذا السبب يعظم فى ذلك الوقت استدخال الهواء فى داخل البدن وحينئذ يرتفع صدره وينتفخ جنباه ، ولما كانت الحرارة الغريزية والروح الحيوانى محصوراً فى داخل القلب استولت البرودة على الأعضاء الخارجة فربما عجزت آلات النفس عن دفع ذلك الهواء الكثير المستنشق فيبقى ذلك الهواء الكثير منحصراً فى الصدر ويقرب من أن يختنق الانسان منه وحينئذ تجتهد الطبيعة فى إخراج ذلك الهواء فعلى قياس قول الأطباء الزفير هو استدخال الهواء الكثير لترويح الحرارة الحاصلة فى القلب بسبب انحصار الروح فيه ، والشهيق هو اخراج ذلك الهواء عند مجاهدة الطبيعة فى إخراجه وكل واحدة من هاتين الحالتين تدل على كرب شديد وغم عظيم .

﴿الوجه الثانى﴾ فى الفرق بين الزفير والشهيق . قال بعضهم : الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار بالنهيق . وأما الشهيق فهو بمنزلة آخر صوت الحمار .

﴿الوجه الثالث﴾ قال الحسن : قد ذكرنا أن الزفير عبارة عن الارتفاع . فنقول : الزفير لهيب جهنم يرفعهم بقوته حتى اذا وصلوا الى أعلى درجات جهنم وطمعوا فى أن يخرجوا منها ضربتهم الملائكة بمقامع من حديد ويردونهم الى الدرك الأسفل من جهنم . وذلك قوله تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) فارتفاعهم فى النار هو الزفير . وانحطاطهم مرة أخرى هو الشهيق .

﴿الوجه الرابع﴾ قال أبو مسلم : الزفير مايجتمع فى الصدر من النفس عند البكاء الشديد فينقطع النفس . والشهيق هو الذى يظهر عند اشتداد الكربة والحزن ، وربما تبعهما الغشية ، وربما حصل عقيبه الموت .

﴿الوجه الخامس﴾ قال أبو العالية : الزفير فى الحلق والشهيق فى الصدر .

﴿الوجه السادس﴾ قال قوم : الزفير الصوت الشديد . والشهيق الصوت الضعيف .

﴿الوجه السابع﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما (لهم فيها زفير وشهيق) يريد ندامة ونفسا عالية وبكاء لاينقطع وحزنا لايندفع .

﴿الوجه الثامن﴾ الزفير مشعر بالقوة ، والشهيق بالضعف على ماقررناه بحسب اللغة .

إذا عرفت هذا فنقول : لم يبعد أن يكون المراد من الزفير قوة ميلهم الى عالم الدنيا وإلى اللذات الجسدانية ، والمراد من الشهيق ضعفهم عن الاستسعاد بعالم الروحانيات والاستكمال بالأنوار الالهية والمعارج القدسية .

ثم قال تعالى ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال قوم إن عذاب الكفار منقطع ولها نهاية ، واحتجوا بالقرآن والمعقول . أما القرآن فآيات منها هذه الآية والاستدلال بها من وجهين : الأول : أنه تعالى قال (مادامت السموات والأرض) دل هذا النص على أن مدة عقابهم مساوية لمدة بقاء السموات والأرض ، ثم توافقنا على أن مدة بقاء السموات والأرض متناهية فلزم أن تكون مدة عقاب الكفار منقطعة . الثانى : إن قوله (إلا ماشاء ربك) استثناء من مدة عقابهم وذلك يدل على زوال ذلك العذاب فى وقت هذا الاستثناء ومما تمسكوا به أيضاً قوله تعالى فى سورة عم يتساءلون (لابثين فيها أحقاباً) بين تعالى أن لبثهم فى ذلك العذاب لايكون إلا أحقابا معدودة .

وأما العقل فوجهان : الأول : أن معصية الكافر متناهية ومقابلة الجرم المتناهى بعقاب لانهاية له ظلم وأنه لايجوز . الثانى : أن ذلك العقاب ضرر خال عن النفع فيكون قبيحا بيان خلوه عن النفع أن ذلك النفع لايرجع إلى الله تعالى لكونه متعالياً عن النفع والضرر ولا إلى ذلك المعاقب لأنه فى حقه ضرر محض ولا إلى غيره . لأن أهل الجنة مشغولون بلذاتهم فلا فائدة لهم فى الالتذاذ بالعذاب الدائم فى حق غيرهم ، فثبت أن ذلك العذاب ضرر خال عن جميع جهات النفع فوجب أن لايجوز . وأما الجمهور الأعظم من الأمة ، فقد اتفقوا على أن عذاب الكافر دائم وعند هذا احتاجوا إلى الجواب عن التمسك بهذه الآية . أما قوله (خالدين فيها مادامت السموات والأرض فذكروا عنه جوابين : الأول . قالوا المراد سموات الآخرة وأرضها . قالوا والدليل على أن فى الآخرة سماء وأرضاً قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقوله (وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) وأيضاً لابد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم . وذلك

هو الأرض والسموات .

ولقائل أن يقول : التشبيه إنما يحسن ويجوز إذا كان حال المشبه به معلوما مقرراً فيشبه به غيره تأكيداً لثبوت الحكم فى المشبه . ووجود السموات والأرض فى الآخرة غير معلوم . وبتقدير أن يكون وجوده معلوماً إلا أن بقاءها على وجه لا يفنى البتة غير معلوم ، فاذا كان أصل وجودهما مجهولا لأكثر الخلق ودوامهما أيضاً مجهولا للأكثر . كان تشبيه عقاب الأشقياء به فى الدوام كلاماً عديم الفائدة ، أقصى ما فى الباب أن يقال : لما ثبت بالقرآن وجود سموات وأرض فى الآخرة وثبت دوامهما وجب الاعتراف به . وحينئذ يحسن التشبيه . إلا أنا نقول : لما كان الطريق فى إثبات دوام سموات أهل الآخرة ودوام أرضهم هو السمع ، ثم السمع دل على دوام عقاب الكافر ، فحينئذ الدليل الذى دل على ثبوت الحكم فى الأصل حاصل بعينه فى الفرع . وفى هذه الصورة أجمعوا على أن القياس ضائع والتشبيه باطل ، فكذا ههنا .

﴿والوجه الثانى﴾ فى الجواب قالوا إن العرب يعبرون عن الدوام والأبد بقولهم مادامت السموات والأرض ، ونظيره أيضاً قولهم ما اختلف الليل والنهار ، وماطما البحر ، وما أقام الجبل . وأنه تعالى خاطب العرب على عرفهم فى كلامهم فلما ذكروا هذه الأشياء بناء على اعتقادهم أنها باقية أبد الآباد ، علمنا أن هذه الألفاظ بحسب عرفهم تفيد الأبد والدوام الخالى عن الانقطاع .

ولقائل أن يقول : هل تسلمون أن قول القائل : خالدين فيها مادامت السموات والأرض . يمنع من بقائها موجودة بعد فناء السموات . أو تقولون إنه لا يدل على هذا المعنى . فان كان الأول ، فالاشكال لازم ، لأن النص لما دل على أنه يجب أن تكون مدة كونهم فى النار مساوية لمدة بقاء السموات ويمنع من حصول بقائهم فى النار بعد فناء السموات ، ثم ثبت أنه لا بد من فناء السموات فعندها يلزمكم القول بانقطاع ذلك العقاب ، وأما إن قلتم هذا الكلام لا يمنع بقاء كونهم فى النار بعد فناء السموات والأرض ، فلا حاجة بكم إلى هذا الجواب البتة . فثبت أن هذا الجواب على كلا التقديرين ضائع .

واعلم أن الجواب الحق عندى فى هذا الباب شىء آخر ، وهو أن المعهود من الآية أنه متى كانت السموات والأرض دائمتين . كان كونهم فى النار باقياً فهذا يقتضى أن كلما حصل الشرط حصل المشروط ولا يقتضى أنه إذا عدم الشرط يعدم المشروط : ألا ترى أنا نقول : إن كان هذا إنساناً فهو حيوان .

فان قلنا : لكنه إنسان فانه ينتج أنه حيوان . أما إذا قلنا لكنه ليس بانسان لم ينتج أنه ليس بحيوان . لأنه ثبت فى علم المنطق أن استثناء نقيض المقدم لاينتج شيئاً . فكذا ههنا إذا قلنا متى دامت السموات دام عقابهم ، فاذا قلنا لكن السموات دائمة لزم أن يكون عقابهم حاصلا . أما إذا قلنا لكنه مابقيت السموات لم يلزم عدم دوام عقابهم .

فان قالوا : فاذا كان العقاب حاصلا سواء بقيت السموات أولم تبق لم يبق لهذا التشبيه فائدة ؟

قلنا بل فيه أعظم الفوائد وهو أنه يدل على نفاذ ذلك العذاب دهراً داهراً ، وزماناً لايحيط العقل بطوله وامتداده ، فأما أنه هل يحصل له آخر أم لا فذلك يستفاد من دلائل أخر . وهذا الجواب الذى قررته جواب حق ولكنه إنما يفهمه إنسان ألف شيئاً من المعقولات .

﴿وأما الشبهة الثانية﴾ وهى التمسك بقوله تعالى (إلا ماشاء ربك) فقد ذكروا فيه أنواعاً من الأجوبة .

﴿الوجه الأول﴾ فى الجواب وهو الذى ذكره ابن قتيبة وابن الأنبارى والفراء . قالوا هذا استثناء استثناه الله تعالى ولا يفعله البتة . كقولك : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك مع أن عزيمتك تكون على ضربه ، فكذا ههنا وطولوا فى تقرير هذا الجواب ، وفى ضرب الأمثلة فيه . وحاصله ما ذكرناه .

ولقائل أن يقول : هذا ضعيف لأنه إذا قال : لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك ، معناه : لأضربنك إلا إذا رأيت أن الأولى ترك مضرب . وهذا لايدل البتة على أن هذه الرؤية قد حصلت أم لا بخلاف قوله (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) فان معناه الحكم بخلودهم فيها إلا المدة التى شاء ربك ، فههنا اللفظ يدل على أن هذه المشيئة قد حصلت جزماً . فكيف يحصل قياس هذا الكلام على ذلك الكلام .

﴿الوجه الثانى﴾ فى الجواب أن يقال : إن كلمة (إلا) ههنا وردت بمعنى : سوى . والمعنى أنه تعالى لما قال (خالدين فيها مادامت السموات والأرض) فهم منه أنهم يكونون فى النار فى جميع مدة بقاء السموات والأرض فى الدنيا ، ثم قال سوى مايتجاوز ذلك من الخلود الدائم فذكر أولا فى خلودهم ماليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له بقوله (إلا ماشاء ربك) والمعنى : إلا ماشاء ربك من الزيادة التى لا آخر لها .

﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب وهو أن المراد من هذا الاستثناء زمان وقوفهم فى الموقف فكأنه تعالى قال فأما الذين شقوا ففى النار إلا وقت وقوفهم للمحاسبة فانهم فى ذلك الوقت لايكونون

فى النار . وقال أبو بكر الأصم المراد إلا ماشاء ربك وهو حال كونهم فى القبر ، أو المراد إلاماشاء ربك حال عمرهم فى الدنيا وهـذه الأقوال الثلاثة متقاربة ، والمعنى : خالدين فيها بمقدار مكثهم فى الدنيا أو فى البرزخ أو مقدار وقوفهم للحساب ثم يصيرون إلى النار .

﴿الوجه الرابع﴾ فى الجواب قالوا : الاستثناء يرجع إلى قوله (لهم فيها زفير وشهيق) وتقريره أن نقول : قوله (لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها) يفيـد حصول الزفير والشهيق مع الخلود فاذا دخل الاستثناء عليه وجب أن يحصل وقت لايحصل فيه هـذا المجموع لـكنه ثبت فى المعقولات أنه كما ينتفى المجموع بانتفاء جميع أجزائه فـكذلك ينتفى بانتفاء فرد واحـد من أجزائه فاذا انتهوا آخر الأمر إلى أن يصيروا ساكنين هامدين خامدين فحينئذ لم يبق لهم زفير وشهيق فانتفى أحـد أجزاء ذلك المجموع فحينئذ يصح ذلك الأستثناء من غير حاجة إلى الحكم بانقطاع كونهم فى النار .

﴿الوجه الخامس﴾ فى الجواب أن يحمل هذا الاستثناء على أن أهل العذاب لايكونون أبداً فى النار ، بل قد ينقلون إلى البرد والزمهرير وسائر أنواع العذاب وذلك يكفى فى صحة هذا الاستثناء

﴿الوجه السادس﴾ فى الجواب قال قوم : هذا الاستثناء يفيد إخراج أهل التوحيد من النار ، لأن قوله (فأما الذين شقوا ففى النار) يفيد أن جملة الأشقياء محكوم عليهم بهذا الحكم ، ثم قوله (إلا ماشاء ربك) يوجب أن لا يبقى ذلك الحكم على ذلك المجموع . ويكفى فى زوال حكم الخلود عن المجموع زواله عن بعضهم ، فوجب أن لايبقى حكم الخلود لبعض الأشقياء ، ولما ثبت أن الخلود واجب للـكفار وجب أن يقال : الذين زال حكم الخلود عنهم هم الفساق من أهل الصلاة ، وهذا كلام قوى فى هذا الباب .

فان قيل : فهذا الوجه إنما يتعين اذا فسدت سائر الوجوه التى ذكرتموها ، فما الدليل على فسادها . وأيضا فمثل هذا الاستثناء مذكور فى جانب السعداء ، فانه تعالى قال (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ)

قلنا : إنا بهـذا الوجه بينا أن هـذه الآية لاتدل على انقطاع وعيد الـكفار ، ثم اذا أردنا الاستدلال بهذه الآية على صحة قولنا فى أنه تعالى يخرج الفساق من أهل الصلاة من النار ،

قلنا : أما حمل كلمة «إلا» على سوى فهو عدول عن الظاهر ، وأما حمل الاستثناء على حال عمر الدنيا والبرزخ والموقف فبعيد أيضا ، لأن الاستثناء وقع عن الخـلود فى النار ، ومن المعلوم أن الخلود فى النار كيفية من كيفيات الحصول فى النار . فقبل الحصول فى النار امتنع حصول الخلود فى النار . واذا لم يحصل الخلود لم يحصل المستثنى منه وامتنع حصول الاستثناء . وأما قوله الاستثناء عائد

إلى الزفير والشهيق فهذا أيضا ترك للظاهر، فلم يبق للآية محمل صحيح إلا هذا الذى ذكرناه وأما قوله المراد من الاستثناء نقله من النار إلى الزمهرير . فنقول : لو كان الأمر كذلك لوجب أن لا يحصل العذاب بالزمهرير إلا بعد انقضاء مدة السموات والأرض . والأخبار الصحيحة دات على أن النقل من النار إلى الزمهرير وبالعكس يحصل فى كل يوم مراراً فبطل هـذا الوجه . وأما قوله إن مثل هـذا الاستثناء حاصل فى جانب السعداء فنقول : أجمعت الأمة على أنه يمتنع أن يقال : إن أحـدا يدخل الجنة ثم يخرج منها إلى النار ، ولأجل هذا الاجماع افتقرنا فيه إلى حمل ذلك الاستثناء على أحد تلك التأويلات . أما فى هذه الآية لم يحصل هذا الاجماع ، فوجب اجراؤها على ظاهرها فهذا تمـام الكلام فى هذه الآية .

واعلم أنه تعالى لمـا ذكر هذا الاستثناء قال (إن ربك فعال لمـا يريد) وهذا يحسن انطباقه على هذه الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفساق من النار ، كأنه تعالى يقول أظهرت القهر والقدرة ثم أظهرت المغفرة والرحمة لأنى فعال لمـا أريد وليس لأحد على حكم البتة .

ثم قال ﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والـكسائى وحفص عن عاصم (سعدوا) بضم السين والباقون بفتحها وانمـا جاز ضم السين لأنه على حذف الزيادة من أسعد ولأن سعد لا يتعدى وأسعد يتعدى وسعد وأسعد بمعنى ومنه المسعود من أسماء الرجال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الاستثناء فى باب السعداء يجب حمله على أحد الوجوه المذكورة فيما تقدم وههنا وجه آخر . وهو أنه ربمـا اتفق لبعضهم أن يرفع من الجنـة الى العرش وإلى المنازل الرفيعة التى لا يعلمها إلا الله تعالى . قال الله تعالى (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكـبر) وقوله (عطاء غير مجذوذ) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ جذه يجذه جذا اذا قطعه وجذ الله دابرهم ، فقوله (غير مجذوذ) أى غير مقطوع ، ونظيره قوله تعالى فى صفة نعيم الجنة (لا مقطوعة ولا ممنوعة)

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أنه تعالى لمـا صرح فى هذه الآية أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة ، فلما خص هذا الموضع بهذا البيان ولم يذكر ذلك فى جانب الأشقياء دل ذلك على أن المراد من ذلك الاستثناء هو الانقطاع ، فهذا تمـام الكلام فى هذه الآية .

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ «١٠٩» وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ «١١٠» وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «١١١»

قوله تعالى ﴿فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول عليه الصلاة والسلام أحوال الكفار من قومه فقال (فلا تك فى مرية) والمعنى: فلا تكن. إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن النون اذا وقع على طرف الكلام لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة فلاجرم أسقطوه ، والمعنى: فلا تك فى شك من حال مايعبدون فى أنها لاتضر ولا تنفع.

ثم قال تعالى ﴿مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل﴾ والمراد أنهم أشبهوا آباءهم فى لزوم الجهل والتقليد.

ثم قال ﴿وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص﴾ فيحتمل أن يكون المراد إنا موفوهم نصيبهم أى ما يخصهم من العذاب. ويحتمل أن يكون المراد أنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق فانا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية. ويحتمل أيضاً أن يكون المراد إنا موفوهم نصيبهم من إزالة العذر وإزاحة العلل وإظهار الدلائل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، ويحتمل أيضاً أن يكون الكل مراداً.

قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية الأولى اصرار كفار مكة على انكار التوحيد. بين أيضاً اصرارهم على انكار نبوته عليه السلام وتكذيبهم بكتابه ، وبين تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا على

هـذه السيرة الفاسدة مع كل الأنبياء عليهم السلام وضرب لذلك مثلا : وهو أنه لما أنزل التوراة على موسى عليه السلام اختلفوا فيه فقبله بعضهم وأنكره آخرون . وذلك يدل على أن عادة الخلق هكذا .

ثم قال تعالى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم﴾ وفيه وجوه : الأول : أن المراد : ولولا ما تقدم من حكم الله تعالى بتأخير عذاب هـذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذى يستحقه هؤلاء الكفار عند عظيم كفرهم إنزال عذاب الاستئصال عليهم لكن المتقدم من قضائه أخر ذلك عنهم فى دنياهم . الثانى : لولا كلمة سبقت من ربك وهى أن الله تعالى إنما يحكم بين المختلفين يوم القيامة . وإلا لكان من الواجب تمييز المحق عن المبطل فى دار الدنيا . الثالث (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى أن رحمته سبقت غضبه وأن إحسانه راجح على قهره وإلا لقضى بينهم ولما قرر تعالى هـذا المعنى قال (وإنهم لفى شك منه مريب) يعنى أن كفار قومك لفى شك من هـذا القرآن مريب .

ثم قال تعالى ﴿وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المعنى أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالهم سواء فى أنه تعالى يوفيهم جزاء أعمالهم فى الآخرة ، فجمعت الآية الوعد والوعيد فان توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصى وعيد عظيم . وقوله تعالى (إنه بما يعملون خبير) توكيد الوعد والوعيد . فانه لما كان عالما بجميع المعلومات كان عالماً بمقادير الطاعات والمعاصى فكان عالما بالقدر اللائق بكل عمل من الجزاء ، فحينئذ لا يضيع شىء من الحقوق والأجزية وذلك نهاية البيان .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ أبو عمرو والكسائى وإن مشددة النون (لما) خفيفة قال أبو على : اللام فى (لما) هى التى تقتضيه إن وذلك لأن حرف إن يقتضى أن يدخل على خبرها أو اسمها لام كقوله (إن الله لغفور رحيم) وقوله (إن فى ذلك لآية) واللام الثانية هى التى تجىء بعد القسم كقولك والله لتفعلن ولما اجتمع لامان دخلت ما لتفصل بينهما فكلمة ما على هذا التقدير زائده . وقال الفراء : ما موصولة بمعنى من وبقية التقرير كما تقدم ومثله (وإن منكم لمن ليبطئن) .

﴿والقراءة الثانية﴾ فى هذه الآية قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وإن كلا لما مخففتان . والسبب فيه أنهم أعملوا إن مخففة كما تعمل مشددة لأن كلمة إن تشبه الفعل فكما يجوز أعمال الفعل تاماً ومحذوفاً فى قولك لم يكن زيد قائما . ولم يك زيد قائما فكذلك ان وإن .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١١٢» وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ «١١٣»

﴿والقراءة الثالثة﴾ قرأ حمزة وابن عامر وحفص : (وإن كلا لمـا) مشددتان ، قالوا : وأحسن ماقيل فيه إن أصل لمـا لمـاً بالتنوين كقوله (أكلا لمـا) والمعنى أن كلا ملومين أى مجموعين كأنه قيل : وان كلا جميعا .

﴿المسألة الثالثة﴾ سمعت بعض الأفاضل قال : إنه تعالى لمـا أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين فى هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات : أولها : كلمة (إن) وهى للتأكيد . وثانيها : كلمة «كل» وهى أيضا للتأكيد . وثالثها : اللام الداخلة على خبر (إن) وهى تفيد التأكيد أيضا . ورابعها : حرف (ما) إذا جعلناه على قول الفراء موصولا . وخامسها : القسم المضمر ، فان تقدير الكلام وإن جميعهم والله ليوفينهم . وسادسها : اللام الثانيـة الداخلة على جواب القسم . وسابعها : النون المؤكدة فى قوله (ليوفينهم) فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد فى هذه الكلمة الواحدة تدل على أن أمر الربوبية والعبودية لايتم إلا بالبعث والقيامة وأمر الحشر والنشر ثم أردفه بقوله (إنه بمـا يعملون خبير) وهو من أعظم المؤكدات .

قوله تعالى ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بمـا تعملون بصير ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لمـا أطنب فى شرح الوعد والوعيد قال لرسوله (فاستقم كما أمرت) وهـذه الكلمة كلمة جامعة فى كل مايتعلق بالعقائد والأعمال . سواء كان مختصابه أوكان متعلقاً بتبليغ الوحى وبيان الشرائع ، ولا شك أن البقاء على الاستقامة الحقيقية مشكل جداً وأنا أضرب لذلك مثالا يقرب صعوبة هذا المعنى الى العقل السلم . وهو أن الخط المستقيم الذى يفصل بين الظل وبين الضوء جزء واحد لايقبل القسمة فى العرض ، إلا أن عين ذلك الخط ممـا لايتميز فى الحس عن طرفيه ، فانه إذا قرب طرف الظل من طرف الضوء اشتبه البعض بالبعض فى الحس . فلم يقع الحس على إدراك ذلك الخط بعينه بحيث يتميز عن كل ماسواه .

إذا عرفت هذا فى المثال فاعرف مثاله فى جميع أبواب العبودية . فأولها : معرفة الله تعالى وتحصيل هذه المعرفة على وجه يبقى العبد مصونا فى طرف الاثبات عن التشبيه . وفى طرف النفى عن التعطيل فى غاية الصعوبة . واعتبر سائر مقامات المعرفة من نفسك . وأيضاً فالقوة الغضبية والقوة الشهوانية حصل لكل واحدة منهما طرفا إفراط وتفريط وهما مذمومان . والفاصل هو المتوسط بينهما بحيث لايميل الى أحد الجانبين ، والوقوف عليه صعب ثم العمل به أصعب . فثبت أن معرفة الصراط المستقيم فى غاية الصعوبة ، بتقدير معرفته فالبقاء عليه والعمل به أصعب . ولما كان هذا المقام فى غاية الصعوبة لاجرم قال ابن عباس : مانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع القرآن آية أشد ولا أشق عليه من هذه الآية . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «شيبتنى هود وأخواتها» ، وعن بعضهم قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت له : روى عنك أنك قلت شيبتنى هود وأخواتها فقال «نعم» فقلت وبأى آية ؟ فقال بقوله (فاستقم كما أمرت)

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية أصل عظيم فى الشريعة وذلك لأن القرآن لما ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتبة فى اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله (فاستقم كما أمرت) ولما ورد الأمر فى الزكاة بأداء الابل من الابل والبقر من البقر وجب اعتبارها وكذا القول فى كل ماورد أمر الله تعالى به وعندى أنه لايجوز تخصيص النص بالقياس ، لأنه لما دل عموم النص على حكم وجب الحكم بمقتضاه لقوله (فاستقم كما أمرت) والعمل بالقياس انحراف عنه . ثم قال (ومن تاب معك) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى : من فى محل الرفع من وجوه : الأول : أن يكون عطفاً على الضمير المستتر فى قوله (فاستقم) وأغنى الوصل بالجار عن تأكيده بضمير المتصل فى صحة العطف أى فاستقم أنت وهم . والثانى : أن يكون عطفاً على الضمير فى أمرت . والثالث : أن يكون ابتداء على تقدير ومن تاب معك فليستقم .

﴿المسألة الثانية﴾ أن الكافر والفاسق يجب عليهما الرجوع عن الكفر والفسق . ففى تلك الحالة لايصح اشتغالهما بالاستقامة ، وأما التائب عن الكفر والفسق فانه يصح منه الاشتغال بالاستقامة على مناهج دين الله تعالى والبقاء على طريق عبودية الله تعالى ، ثم قال (ولا تطغوا) ومعنى الطغيان أن يجاوز المقدار . قال ابن عباس : يريد تواضعوا لله تعالى ولا تتكبروا على أحد وقيل ولا تطغوا فى القرآن فتحلوا حرامه وتحرموا حلاله ، وقيل : لاتتجاوزوا ماأمرتم به وحد لكم . وقيل : ولا تعدلوا عن طريق شكره والتواضع له عند عظم نعمه عليكم والأولى دخول الكل فيه ، ثم قال (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) والركون هو السكون إلى الشىء والميل إليه بالمحبة ونقيضه

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ «١١٤» وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «١١٥»

النفور عنه ، وقرأ العامة بفتح التاء والكاف والماضى من هذا ركن كعلم وفيه لغة أخرى ركن يركن قال الأزهرى : وليست بفصيحة . قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم فى شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل فى الركون ، ومعنى قوله (فتمسكم النار) أى أنكم إن ركنتم اليهم فهذه عاقبة الركون ، ثم قال (ومالكم من دون الله من أولياء) أى ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله .

ثم قال ﴿ثم لا تنصرون﴾ والمراد لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة .

واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لابد وأن تمسه النار وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم فى نفسه .

قوله تعالى ﴿وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالاستقامة أردفه بالأمر بالصلاة وذلك يدل على أن أعظم العبادات بعد الايمان بالله هو الصلاة وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ رأيت فى بعض كتب القاضى أبى بكر الباقلانى أن الخوارج تمسكوا بهذه الآية فى إثبات أن الواجب ليس إلا الفجر والعشاء من وجهين .

﴿الوجه الأول﴾ أنهما واقعان على طرفى النهار والله تعالى أوجب إقامة الصلاة طرفى النهار ، فوجب أن يكون هذا القدر كافياً .

فان قيل : قوله (وزلفاً من الليل) يوجب صلوات أخرى .

قلنا : لا نسلم فان طرفى النهار موصوفان بكونهما زلفاً من الليل فان مالا يكون نهاراً يكون ليلا غاية مافى الباب أن هذا يقتضى عطف الصفة على الموصوف إلا أن ذلك كثير فى القرآن والشعر .

﴿الوجه الثانى﴾ أنه تعالى قال (إن الحسنات يذهبن السيئات) وهذا يشعر بان من صلى طرفى النهار كان إقامتهما كفارة لكل ذنب سواهما فبتقدير أن يقال إن سائر الصلوات واجبة إلا

أن إقامتهما يجب أن تكون كفارة لترك سائر الصلوات . واعلم أن هذا القول باطل باجماع الأمة فلا يلتفت اليه .

﴿المسألة الثانية﴾ كثرت المذاهب فى تفسير طرفى النهار والأقرب أن الصلاة التى تقام فى طرفى النهار وهى الفجر والعصر ، وذلك لأن أحد طرفى النهار طلوع الشمس . والطرف الثانى منه غروب الشمس . فالطرف الأول هو صلاة الفجر . والطرف الثانى لايجوز أن يكون صلاة المغرب لأنها داخلة تحت قوله (وزلفاً من الليل) فوجب حمل الطرف الثانى على صلاة العصر .

إذا عرفت هذا كانت الآية دليلا على قول أبى حنيفة رحمه الله فى أن التنوير بالفجر أفضل ، وفى أن تأخير العصر أفضل . وذلك لأن ظاهر هذه الآية يدل على وجوب إقامة الصلاة فى طرفى النهار وبينا أن طرفى النهار هما الزمان الأول لطلوع الشمس ، والزمان الثانى لغروبها ، وأجمعت الأمة على أن إقامة الصلاة فى ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة . فقد تعذر العمل بظاهر هذه الآية ، فوجب حمله على المجاز ، وهو أن يكون المراد : أقم الصلاة فى الوقت الذى يقرب من طرفى النهار ، لأن مايقرب من الشىء يجوز أن يطلق عليه اسمه ، واذا كان كذلك فكل وقت كان أقرب الى طلوع الشمس . وإلى غروبها كان أقرب الى ظاهر اللفظ ، وإقامة صلاة الفجر عند التنوير أقرب الى وقت الطلوع من إقامتها عند التغليس ، وكذلك إقامة صلاة العصر عند مايصير ظل كل شىء مثليه أقرب الى وقت الغروب من إقامتها عند مايصير ظل كل شىء مثله ، والمجاز كلما كان أقرب الى الحقيقة كان حمل اللفظ عليه أولى ، فثبت أن ظاهر هذه الآية يقوى قول أبى حنيفة فى هاتين المسألتين .

وأما قوله ﴿وزلفاً من الليل﴾ فهو يقتضى الأمر باقامة الصلاة فى ثلاث زلف من الليل ، لأن أقل الجمع ثلاثة وللمغرب والعشاء وقتان ، فيجب الحكم بوجوب الوتر حتى يحصل زلف ثلاثة يجب إيقاع الصلاة فيها ، واذا ثبت وجوب الوتر فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وجب فى حق غيره لقوله تعالى (واتبعوه) ونظير هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) فالذى هو قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر ، والذى هو قبل غروبها هو صلاة العصر .

ثم قال تعالى ﴿ومن آناء الليل فسبح﴾ وهو نظير قوله (وزلفاً من الليل)

﴿المسألة الثالثة﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ماتقولون فى رجل أصاب من امرأة محرمة كلما يصيبه الرجل من امرأته غير الجماع ، فقال عليه الصلاة والسلام «ليتوضأ وضوءا حسنا ثم ليقم وليصل» فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقيل

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ «١١٦»

للنبي عليه الصلاة والسلام: هذا له خاصة، فقال «بل هو للناس عامة» وقوله (وزلفاً من الليل) قال الليث: زلفة من أول الليل طائفة، والجمع الزلف. قال الواحدى: وأصل الكلمة من الزلفى والزلفى هى القربى، يقال: أزلفته فازدلف أى قربته فاقترب.

﴿المسألة الرابعة﴾ قال صاحب الكشاف: قرئ (زلفا) بضمتين و(زلفا) باسكان اللام وزلفى بوزن قربى فالزلف جمع زلفة كظلم جمع ظلمة والزلف بالسكون نحو بسرة وبسر والزلف بضمتين نحو: يسر فى يسر، والزلفى بمعنى الزلفة كما أن القربى بمعنى القربة وهو مايقرب من آخر النهار من الليل، وقيل فى تفسير قوله (وزلفاً من الليل) وقرباً من الليل، ثم قال (ان الحسنات يذهبن السيئات) وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير الحسنات قولان: الأول: قال ابن عباس: المعنى أن الصلوات الخمس كفارات لسائر الذنوب بشرط الاجتناب عن الكبائر. والثانى: روى عن مجاهد أن الحسنات هى قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر.

﴿المسألة الثانية﴾ احتج من قال إن المعصية لا تضر مع الايمان بهذه الآية وذلك لأن الايمان أشرف الحسنات وأجلها وأفضلها. ودلت الآية على أن الحسنات يذهبن السيئات، فالايمان الذى هو أعلى الحسنات درجة يذهب الكفر الذى هو أعلى درجة فى العصيان فلأن يقوى على المعصية التى هى أقل السيئات درجة كان أولى، فان لم يفد إزالة العقاب بالكلية فلا أقل من أن يفيد إزالة العذاب الدائم المؤبد.

ثم قال تعالى ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ فقوله (ذلك) اشارة إلى قوله (فاستقم كما أمرت) إلى آخرها (ذكرى للذاكرين) عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين.

ثم قال ﴿واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين﴾ قيل على الصلاة وهو كقوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها)

قوله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا

ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن الأمم المتقدمين حل بهم عذاب الاستئصال بين أن السبب فيه أمران :

﴿السبب الأول﴾ أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد فى الأرض . فقال تعالى (فلولا كان من القرون) والمعنى فهلا كان ، وحكى عن الخليل أنه قال كل ما كان فى القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا إلا التى فى الصفات . قال صاحب الكشاف : وما صحت هذه الرواية عنه بدليل قوله تعالى فى غير الصافات (لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء . ولولا رجال مؤمنون . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ، وقوله (أولوا بقية) فالمعنى أولو فضل وخير ، وسمى الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله ، فصار هذا اللفظ مثلا فى الجودة يقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه قولهم فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ، ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وقرئ (أولو ابقية) بوزن لقية من بقاه يبقيه إذا راقبه وانتظره ، والبقية المرة من مصدره ، والمعنى فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله تعالى . ثم قال (إلا قليلا) ولا يمكن جعله استثناء متصلا لأنه على هذا التقدير يكون ذلك ترغيبا لأولى البقية فى النهى عن الفساد إلا القليل من الناجين منهم كما تقول هلا قرأ قومك القرآن إلا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء من المرغبين فى قراءة القرآن . وإذا ثبت هذا قلنا : إنه استثناء منقطع ، والتقدير : لكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهى .

﴿والسبب الثانى﴾ لنزول عذاب الاستئصال قوله (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) والترفة النعمة وصبى مترف إذا كان منعم البدن ، والمترف الذى أبطرته النعمة وسعة المعيشة وأراد بالذين ظلموا تاركى النهى عن المنكرات أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وقرأ أبو عمرو فى رواية الجعفى (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا) أى واتبعوا حراماً أترفوا فيه ، ثم قال (وكانوا مجرمين) ومعناه ظاهر .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ «١١٧» وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ «١١٨» إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ «١١٩»

قوله تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾

اعلم أنه تعالى بين أنه ماأهلك أهل القرى إلا بظلم وفيه وجوه:

﴿الوجه الأول﴾ أن المراد من الظلم ههنا الشرك قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والمعنى أنه تعالى لايهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم والحاصل أن عذاب الاستئصال لاينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا فى المعاملات وسعوا فى الايذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة. وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. ويقال فى الأثر الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، فمعنى الآية (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) أى لايهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح والسداد. وهذا تأويل أهل السنة لهذه الآية. قالوا: والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق.

﴿والوجه الثانى﴾ فى التأويل وهو الذى تختاره المعتزلة هو أنه تعالى لو أهلكهم حال كونهم مصلحين لما كان متعالياً عن الظلم فلا جرم لايفعل ذلك بل إنما يهلكهم لأجل سوء أفعالهم.

ثم قال تعالى ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ والمعتزلة يحملون هذه الآية على مشيئة الالجاء والاجبار وقد سبق الكلام عليه.

ثم قال تعالى ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ والمراد افتراق الناس فى الأديان والأخلاق والأفعال.

واعلم أنه لاسبيل إلى استقصاء مذاهب العالم فى هـذا الموضع ومن أراد ذلك فليطالع كتابنا الذى سميناه بالرياض المونقة إلاأنا نذكر ههنا تقسيما جامعاً للمذاهب . فنقول : الناس فريقان منهم من أقر بالعلوم الحسية كعلمنا بأن النار حارة والشمس مضيئة . والعلوم البديهية كعلمنا بأن النفى والاثبات لايجتمعان ، ومنهـم من أنكرهما . والمنكرون هم السوفطائيـة ، والمقرون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم ، وهم فريقان : منهم من سلم أنه يمكن تركيب تلك العلوم البـديهية بحيث يستنتج منها نتائج علمية نظرية ، ومنهم من أنكره ، وهم الذين ينكرون أيضاً النظر الى العلوم ، وهم قليلون ، والأولون هم الجمهور الأعظم من أهل العالم ، وهم فريقان : منهم من لايثبت لهذا العالم الجسمانى مبدأ أصلا وهم الأقلون ، ومنهم من يثبت له مبدأ وهؤلاء فريقان : منهم من يقول : ذلك المبدأ موجب بالذات ، وهم جمهور الفلاسفة فى هـذا الزمان ، ومنهم من يقول : إنه فاعل مختار وهم أكثر أهل العالم ، ثم هؤلاء فريقان : منهم من يقول : إنه ماأرسل رسولا الى العباد ، ومنهم من يقول : إنه أرسل الرسول ، فالأولون هم البراهمة .

والقسم الثانى أرباب الشرائع والأديان ، وهم المسلمون والنصارى واليهود والمجوس ، وفى كل واحد من هذه الطوائف اختلافات لاحد لها ولاحصر . والعقول مضطربة . والمطالب غامضة ، ومنازعات الوهم والخيال غير منقطعة ، ولما حسن من بقراط أن يقول فى صناعة الطب العمر قصير ، والصناعة طويلة ، والقضاء عسر ، والتجربة خطر ، فلأن يحسن ذكره فى هـذه المطالب العالية والمباحث الغامضة ، كان ذلك أولى .

فان قيل : إنكم حملتم قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين) على الاختلاف فى الأديان ، فما الدليل عليه ، ولم لايجوز أن يحمل على الاختلاف فى الألوان والألسنة والأرزاق والأعمال .

قلنا : الدليل عليه أن ماقبل هـــذه الآية هو قوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) فيجب حمل هذا الاختلاف على مايخرجهم من أن يكونوا أمة واحدة ، ومابعد هذه الآية هو قوله (إلا من رحم ربك) فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى يصح أن يستثنى منه قوله (إلامن رحم ربك) وذلك ليس إلا ماقلنا .

ثم قال تعالى ﴿إلا من رحم ربك﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الهداية والايمان لاتحصل إلا بتخليق الله تعالى ، وذلك لأن هـذه الآية تدل على أن زوال الاختلاف فى الدين لايحصل إلا لمن خصه الله برحمته ، وتلك الرحمة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل ، وارسال الرسل ، وانزال الكتب ، وازاحة العذر ، فان كل ذلك حاصل فى حق الكفار ، فلم يبق إلا أن

يقال : تلك الرحمة هو أنه سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة . قال القاضى معناه : إلا من رحم ربك بأن يصير من أهل الجنة والثواب ، فيرحمه الله بالثواب ، ويحتمل إلا من رحمه الله بألطافه ، فصار مؤمناً بألطافه وتسهيله . وهذان الجوابان فى غاية الضعف .

﴿أما الأول﴾ فلأن قوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) يفيد أن ذلك الاختلاف إنما زال بسبب هذه الرحمة . فوجب أن تكون هذه الرحمة جارية مجرى السبب المتقدم على زوال هذا الاختلاف ، والثواب شىء متأخر عن زوال هذا الاختلاف . فالاختلاف جار مجرى المسبب له ، ومجرى المعلول ، فحمل هذه الرحمة على الثواب بعيد .

﴿وأما الثانى﴾ وهو حمل هذه الرحمة على الالطاف . فنقول : جميع الالطاف التى فعلها فى حق المؤمن فهى مفعولة أيضاً فى حق الكافر ، وهذه الرحمة أمر اختص به المؤمن ، فوجب أن يكون شيئاً زائداً على تلك الألطاف . وأيضا فحصول تلك الألطاف هل يوجب رجحان وجود الايمان على عدمه أو لا يوجبه . فان لم يوجبه كان وجود تلك الألطاف وعدمها بالنسبة الى حصول هذا المقصود سيان ، فلم يك لطفاً فيه ، وان أوجب الرجحان فقد بينا فى الكتب العقلية أنه متى حصل الرجحان فقد وجب ، وحينئذ يكون حصول الايمان من الله ، ومما يدل على أن حصول الايمان لا يكون إلا بخلق الله ، أنه مالم يتميز الايمان عن الكفر ، والعلم عن الجهل ، امتنع القصد الى تكوين الايمان والعلم ، وإنما يحصل هذا الامتياز اذا علم كون أحد هذين الاعتقادين مطابقاً للمعتقد وكون الآخر ليس كذلك ، وإنما يصح حصول هذا العلم ، أن لو عرف أن ذلك المعتقد فى نفسه كيف يكون ، وهذا يوجب أنه لا يصح من العبد القصد الى تكوين العلم بالشىء إلا بعد أن كان عالما ، وذلك يقتضى تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو محال . فثبت أن زوال الاختلاف فى الدين وحصول العلم والهداية لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ، وهو المطلوب .

ثم قال تعالى ﴿ولذلك خلقهم﴾ وفيه ثلاثة أقوال :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس : وللرحمة خلقهم . وهذا اختيار جمهور المعتزلة . قالوا : ولا يجوز أن يقال : وللاختلاف خلقهم ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن عود الضمير الى أقرب المذكورين أولى من عوده الى أبعدهما ، وأقرب المذكورين ههنا هو الرحمة . والاختلاف أبعدهما . والثانى : أنه تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الايمان ، لكان لا يجوز أن يعذبهم عليه ، إذ كانوا مطيعين له بذلك الاختلاف . الثالث : إذا فسرنا الآية بهذا المعنى ، كان مطابقا لقوله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون)

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ «١٢٠»

فان قيل : لو كان المراد وللرحمة خلقهم لقال : ولتلك خلقهم ولم يقل : ولذلك خلقهم قلنا : إن تأنيث الرحمة ليس تأنيثاً حقيقياً . فكان محمولا على الفضل والغفران كقوله (هذا رحمة من ربى) وقوله (ان رحمة الله قريب من المحسنين)

﴿والقول الثانى﴾ أن المراد وللاختلاف خلقهم .

﴿والقول الثالث﴾ وهو المختار أنه خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف . روى أبو صالح عن ابن عباس أنه قال : خلق الله أهل الرحمة لئلا يختلفوا ، وأهل العذاب لأن يختلفوا ، وخلق الجنة وخلق لها أهلا ، وخلق النار وخلق لها أهلا ، والذى يدل على صحة هذا التأويل وجوه : الأول : الدلائل القاطعة الدالة على أن العلم والجهل لا يمكن حصولهما فى العبد إلا بتخليق الله تعالى . الثانى : أن يقال : إنه تعالى لما حكم على البعض بكونهم مختلفين وعلى الآخرين بأنهم من أهل الرحمة وعلم ذلك امتنع انقلاب ذلك . وإلا لزم انقلاب العلم جهلا وهو محال . الثالث : أنه تعالى قال بعده (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وهذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواماً للهداية والجنة ، وأقواماً آخرين للضلالة والنار ، وذلك يقوى هذا التأويل .

قوله تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة فى هذه السورة ذكر فى هذه الآية نوعين من الفائدة

﴿الفائدة الأولى﴾ تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى . وذلك لأن الانسان إذا ابتلى بمحنة وبلية فاذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه . كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ، فاذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع اتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من قومه ، وأمكنه الصبر عليه .

﴿والفائدة الثانية﴾ قوله (وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) وفى قوله (فى هذه) وجوه : أحدها : فى هذه السورة . وثانيها : فى هذه الآية . وثالثها : فى هذه الدنيا ، وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ «١٢١» وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ «١٢٢» وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ «١٢٣»

واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك ، لاحتمال أن يكون الحق المذكور فى هذه السورة أكمل حالا مما ذكر فى سائر السور ، ولو لم يكن فيها إلا قوله (فاستقم كما أمرت) لكان الأمر كما ذكرنا ، ثم إنه تعالى بين أنه جاء فى هذه السورة أمور ثلاثة . الحق والموعظة والذكرى .

أما الحق : فهو إشارة إلى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة .

وأما الذكرى : فهى إشارة إلى الارشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة .

وأما الموعظة : فهى إشارة إلى التنفير هن الدنيا وتقبيح أحوالها فى الدار الآخرة ، والمذكرة لما هنالك من السعادة والشقاوة ، وذلك لأن الروح إنما جاء من ذلك العالم إلا أنه لاستغراقه فى محبة الجسد فى هذا العالم نسى أحوال ذلك العالم فالكلام الالهى يذكره أحوال ذلك العالم . فلهذا السبب صح إطلاق لفظ الذكر عليه .

ثم ههنا دقيقة أخرى عجيبة : وهى أن المعارف الالهية لابد لها من قابل ومن موجب ، وقابلها هو القلب ، والقلب مالم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الالهية والتجليات القدسية ، لم يحصل الانتفاع بسماع الدلائل ، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر اصلاح القلب ، وهو تثبيت الفؤاد ، ثم لما ذكر صلاح حال القابل ، أردفه بذكر الموجب ، وهو مجىء هذه السوه المشتملة على الحق والموعظة والذكرى . وهذا الترتيب فى غاية الشرف والجلالة .

قوله تعالى ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾

اعلم أنه تعالى لما بلغ الغاية فى الأعذار والانذار ، والترغيب والترهيب ، أتبع ذلك بأن قال للرسول (وقل للذين لا يؤمنون) ولم تؤثر فيهم هذه البيانات البالغة (اعملوا على مكانتكم إنا عاملون) وهذا عين ماحكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه ، والمعنى : افعلوا كل ماتقدرون

عليه فى حق من الشر ، فنحن أيضا عاملون . وقوله (اعملوا) وإن كانت صيغته صيغة الأمر ، إلا أن المراد منها التهديد . كقوله تعالى لابليس (واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) وكقوله (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فانا منتظرون ماوعدنا الرحمن من أنواع الغفران والاحسان . قال ابن عباس رضى الله عنهما : (وانتظروا) الهلاك فانا منتظرون لكم العذاب . ثم إنه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال (ولله غيب السموات والأرض)

واعلم أن مجموع مايحتاج الانسان إلى معرفته أمور ثلاثة . وهى : الماضى والحاضر والمستقبل . أما الماضى فهو أن يعرف الموجود الذى كان موجوداً قبله ، وذلك الموجود المتقدم عليه هو الذى نقله من العدم إلى الوجود . وذلك هو الاله تعالى وتقدس .

واعلم أن حقيقة ذات الاله وكنه هويته غير معلومة للبشر البتة . وإنما المعلوم للبشر صفاته . ثم إن صفاته قسمان : صفات الجلال ، وصفات الاكرام . أما صفات الجلال . فهى سلوب ، كقولنا : إنه ليس بجوهر ولا جسم ، ولا كذا ولا كذا . وهذه السلوب فى الحقيقة ليست صفات الكمال ، لأن السلوب عدم ، والعدم المحض والنفى الصرف ، لا كمال فيه ، فقولنا لا تأخذه سنة ولا نوم إنما أفاد الكلام لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغير ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدل على كمال أصلا . ألا ترى أن الميت والجماد لا تأخذه سنة ولا نوم وقوله (وهو يطعم ولا يطعم) إنما أفاد الجلال والكمال والكبرياء . لأن قوله (ولا يطعم) يفيد كونه واجب الوجود لذاته غنياً عن الطعام والشراب بل عن كل ماسواه ، فثبت أن صفات الكمال والعز والعلو هى الصفات الثبوتية وأشرف الصفات الثبوتية الدالة على الكمال والجلال صفتان : العلم والقدرة ، فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاته فى هذه الآية بهما فى معرض التعظيم والثناء والمدح . أما صفة العلم فقوله (ولله غيب السموات والأرض) والمراد أن علمه نافذ فى جميع الكليات والجزئيات والمعدومات والموجودات والحاضرات والغائبات . وتمام البيان والشرح فى دلالة هذا اللفظ على نهاية الكمال ماذكرناه فى تفسير قوله سبحانه وتعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) وأما صفة القدرة ، فقوله (وإليه يرجع الأمر كله) والمراد أن مرجع الكل إليه ، وإنما يكون كذلك لو كان مصدر الكل ومبدأ الكل هو هو والذى يكون مبدأ لجميع الممكنات واليه يكون مرجع كل المحدثات والكائنات ، كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهاراً للعدم بالوجود والتحصيل جبارا له بالقوة والفعل والتكميل . فهذان الوصفان هما المذكوران فى شرح جلال المبدأ ونعت كبريائه .

﴿والمرتبة الثانية﴾ من المراتب التى يجب على الانسان كونه عالما بها أن يعرف ماهو مهم له فى زمان حياته فى الدنيا، وما ذلك إلا تكميل النفس بالمعارف الروحانية والجلايا القدسية، وهذه المرتبة لها بداية ونهاية. أما بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانية والروحانية. أما العبادات الجسدانية، فأفضل الحركات الصلاة، وأكمل السكنات الصيام، وأنفع البر الصدقة.

وأما العبادة الروحانية فهى: الفكر، والتأمل فى عجائب صنع الله تعالى فى ملكوت السموات والأرض. كما قال تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) وأما نهاية هذه المرتبة، فالانتهاء من الأسباب إلى مسببها، وقطع النظر عن كل الممكنات والمبدعات، وتوجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال، واستغراق الروح فى أضواء عالم الكبرياء، ومن وصل إلى هذه الدرجة رأى كل ما سواه مهرولا تائها فى ساحة كبريائه هالكا فانياً فى فناء سناء أسمائه. وحاصل الكلام: أن أول درجات السير الى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، فلهذا السبب قال (فاعبده وتوكل عليه)

﴿والمرتبة الثالثة﴾ من المراتب المهمة لكل عامل معرفة المستقبل. وهو أنه يعرف كيف يصير حاله بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانية، وهل لأعماله أثر فى السعادة والشقاوة، وإليه الاشارة بقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) والمقصود أنه لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين، وذلك بأن يحضروا فى موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا فى الصغير والكبير، ثم يحصل عاقبة الأمر فريق فى الجنة وفريق فى السعير، فظهر أن هذه الآية وافية بالاشارة إلى جميع المطالب العلوية، والمقاصد القدسيه، وأنه ليس وراءها للعقول مرتقى ولا للخواطر منتهى والله الهادى للصواب، تمت الصورة بحمد الله وعونه، وقد وجد بخط المصنف رضى الله عنه فى النسخة المنتقل منها تم تفسير هذه السورة قبل طلوع الصبح ليلة الاثنين من شهر رجب ختمه الله بالخير والبركة سنة إحدى وستمائة، وقد كان لى ولد صالح حسن السيرة فتوفى فى الغربة فى عنفوان شبابه، وكان قلبي كالمحترق لذلك السبب، فانا أنشد الله إخوانى فى الدين وشركائى فى طلب اليقين وكل من نظر فى هذا الكتاب وانتفع به أن يذكر ذلك الشاب بالرحمة والمغفرة، وأن يذكر هذا المسكين بالدعاء وهو يقول (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة يوسف

مكية، إلا الآيات : ١ و ٢ و ٣ و ٧ ، فمدنية

وآياتها : ١١١ ، نزلت بعد سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

الرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ «١» إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «٢»

سورة يوسف

مائة وإحدى عشرة آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾

وقد ذكرنا فى أول سورة يونس تفسير (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) فقوله (تلك) إشارة إلى آيات هذه السورة أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة المسماة (الر) هى (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن، وإنما وصف القرآن بكونه مبيناً لوجوه : الأول : أن القرآن معجزة قاهرة وآية بينة لمحمد صلى الله عليه وسلم. والثانى : أنه بين فيه الهدى والرشد، والحلال والحرام، ولما بينت هذه الأشياء فيه كان الكتاب مبيناً لهذه الأشياء. الثالث : أنه بينت فيه قصص الأولين وشرحت فيه أحوال المتقدمين.

ثم قال ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين، سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر. وعن كيفية قصة يوسف، فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها أنه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ «٣»

تعالى عبر عن هـذه القصة بألفاظ عربيـة ، ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها . والتقدير : إنا أنزلنا هـذا الـكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه قرآناً عربياً ، وسمى بعض القرآن قرآناً ، لأن القرآن اسم جنس يقع على الـكل والبعض .

﴿المسألة الثانية﴾ احتج الجبائى بهذه الآية على كون القرآن مخلوقا من ثلاثة أوجه : الأول : أن قوله (إنا أنزلناه) يدل عليه . فان القديم لايجوز تنزيله وإنزاله وتحويله من حال إلى حال الثانى : أنه تعالى وصفه بكونه عربيا والقديم لا يكون عربياً ولافارسيا . الثالث : أنه لمـا قال (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) دل على أنه تعالى كان قادراً على أن ينزله لاعربياً ، وذلك يدل على حدوثه . الرابع : أن قوله (تلك آيات الـكتاب) يدل على أنه مركب من الآيات والكلمات ، وكل ما كان مركباً كان محدثاً .

والجواب عن هذه الوجوه بأسرها أن نقول : إنها تدل على أن المركب من الحروف والكلمات والألفاظ والعبارات محدث وذلك لانزاع فيه . انمـا الذى ندعى قدمه شىء آخر فسقط هذا الاستدلال

﴿المسألة الثالثة﴾ احتج الجبائى بقوله (لعلكم تعقلون) فقال : كلمة «لعل» يجب حملها على الجزم والتقدير : إنا أنزلناه قرآناً عربيا لتعقلوا معانيه فى أمر الدين ، إذ لايجوز أن يراد بلعلكم تعقلون؟ الشك لأنه على الله محال ، فثبت أن المراد أنه أنزله لارادة أن يعرفوا دلائله ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من كل العباد أن يعقلوا توحيده وأمر دينه ، من عرف منهم ، ومن لم يعرف ، بخلاف قول المجبرة .

والجواب : هب أن الأمر على ماذكرتم إلا أنه يدل على أنه تعالى أنزل هذه السورة . وأراد منهم معرفة كيفية هذه القصة ولـكن لم قلتم إنها تدل على أنه تعالى أراد من الكل الايمـان والعمل الصالح

قوله تعـالى ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بمـا أوحينا إليك هـذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى سعيد بن جبير انه تعالى لمـا أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه

وسلم وكان يتلوه على قومه . فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزل (الله نزل أحسن الحديث كتاباً) فقالوا لو ذكرتنا فنزل (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله)

﴿المسألة الثانية﴾ القصص اتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله فى اللغة المتابعة قال تعالى (وقالت لأخته قصيه) أى اتبعى أثره وقال تعالى (فارتدا على آثارهما قصصا) أى اتباعا وإنما سميت الحكاية قصصاً لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً كما يقال تلا القرآن إذا قرأه لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية والقصص فى هذه الآية يحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الاقتصاص يقال قص الحديث يقصه قصاً وقصصاً إذا طرده وساقه كما يقال أرسله يرسله إرسالا ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك هذا قدرة الله تعالى أى مقدوره وهذا الكتاب علم فلان أى معلومه وهذا رجاؤنا أى مرجونا فان حملناه على المصدر كان المعنى نقص عليك أحسن الاقتصاص . وعلى هذا التقدير فالحسن يعود إلى حسن البيان لا إلى القصة والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة فى الفصاحة الى حد الاعجاز ألا ترى أن هذه القصة مذكورة فى كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة فى الفصاحة والبلاغة وإن حملناه على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب التى ليست فى غيرها فان إحدى الفوائد التى فى هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدر الله تعالى وأنه تعالى إذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه .

﴿والفائدة الثانية﴾ دلالتها على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان .

﴿والفائدة الثالثه﴾ أن الصبر مفتاح الفرج كما فى حق يعقوب عليه السلام فانه لما صبر فاز بمقصوده . وكذلك فى حق يوسف عليه السلام .

فأما قوله (بما أوحينا اليك هذا القرآن) فالمعنى بوحينا اليك هذا القرآن . وهذا التقدير إن جعلنا «ما» مع الفعل بمنزلة المصدر .

ثم قال ﴿وإن كنت من قبله﴾ يريد من قبل أن نوحى اليك (لمن الغافلين) عن قصة يوسف وإخوته ، لأنه عليه السلام إنما علم ذلك بالوحى . ومنهم من قال : المراد أنه كان من الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال تعالى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان)

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ «٤»

قوله تعالى ﴿إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾

وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ تقدير الآية: اذكر (إذ قال يوسف) قال صاحب الكشاف: الصحيح أنه اسم عبرانى، لأنه لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف، وقرأ بعضهم (يوسف) بكسر السين (ويوسف) بفتحها. وأيضاً روى فى يونس هذه اللغات الثلاث، وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال «اذا قيل من الكريم فقولوا الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام»

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ ابن عامر (ياأبت) بفتح التاء فى جميع القرآن، والباقون بكسر التاء. أما الفتح فوجهه أنه كان فى الأصل ياأبتاه على سبيل الندبة، فحذفت الألف والهاء. وأما الكسر فأصله ياأبى. فحذفت الياء واكتفى بالكسرة عنها ثم أدخل هاء الوقف فقال (ياأبت) ثم كثر استعماله حتى صار كأنه من نفس الكلمة فأدخلوا عليه الاضافة، وهذا قول ثعلب وابن الأنبارى.

واعلم أن النحويين طولوا فى هذه المسألة، ومن أراد كلامهم فليطالع كتبهم.

﴿المسألة الثالثة﴾ أن يوسف عليه السلام رأى فى المنام أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر سجدت له، وكان له أحد عشر نفرا من الاخوة. ففسر الكواكب بالاخوة، والشمس والقمر بالأب والأم، والسجود بتواضعهم له. ودخولهم تحت أمره، وإنما حملنا قوله (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) على الرؤيا لوجهين: الأول: أن الكواكب لاتسجد فى الحقيقة. فوجب حمل هذا الكلام على الرؤيا. والثانى: قول يعقوب عليه السلام (لاتقصص رؤياك على إخوتك) وفى الآية سؤالات:

﴿السؤال الأول﴾ قوله (رأيتهم لى ساجدين) فقوله (ساجدين) لايليق إلا بالعقلاء. والكواكب جمادات، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء فى حق الجمادات.

قلنا: إن جماعة من الفلاسفة الذين يزعمون أن الكواكب أحياء ناطقة احتجوا بهذه الآية، وكذلك احتجوا بقوله تعالى (وكل فى فلك يسبحون) والجمع بالواو والنون مختص بالعقلاء. وقال

الواحدى: إنه تعالى لما وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل. فأخبر عنها كما يخبر عمن يعقل كما قال فى صفة الأصنام (وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون) وكما فى قوله (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم)

﴿السؤال الثانى﴾ قال (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر) ثم أعاد لفظ الرؤيا مرة ثانية، وقال (رأيتهم لى ساجدين) فما الفائدة فى هذا التكرير؟

الجواب: قال القفال رحمه الله: ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له. وقال بعضهم: إنه لما قال (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر) فكأنه قيل له: كيف رأيت؟ فقال: رأيتهم لى ساجدين، وقال آخرون: يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من الرؤيا. وهذا القائل لم يبين أن أيهما يحمل على الرؤية وأيهما الرؤيا فذكر قولا مجملا غير مبين.

﴿السؤال الثالث﴾ لم أخر الشمس والقمر؟

قلنا: أخرهما لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما فى قوله (وملائكته ورسله وجبريل وميكال)

﴿السؤال الرابع﴾ المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كما فى قوله:

ترى الأكم فيه سجدا للحوافر

قلنا: كلاهما محتمل، والأصل فى الكلام حمله على حقيقته. ولامانع أن يرى فى المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له.

﴿السؤال الخامس﴾ متى رأى يوسف عليه السلام هذه الرؤيا؟

قلنا: لاشك أنه رآها حال الصغر. فاما ذلك الزمان بعينه فلا يعلم إلا بالاخبار. قال وهب: رأى يوسف عليه السلام وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة فى الأرض كهيئة الدائرة. وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعتها فذكر ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لأخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتى عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لاتذكرها لهم فيكيدوا لك كيدا. وقيل: كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل: ثمانون سنة.

واعلم أن الحكماء يقولون إن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة انما يظهر تعبيرها بعد حين. قالوا: والسبب فى ذلك أن رحمة الله تقتضى أن لايحصل الاعلام بوصول

قَالَ يَا بُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْانْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ «٥» وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٦»

الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل ، وأما الاعلام بالخير فانه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم.

﴿السؤال السادس﴾ قال بعضهم : المراد من الشمس والقمر أبوه وخالته فما السبب فيه ؟

قلنا : انما قالوا ذلك من حيث ورد فى الخبر أن والدته توفيت ومادخلت عليه حال ما كان بمصر قالوا : ولو كان المراد من الشمس والقمر أباه وأمه لما ماتت لأن رؤيا الأنبياء عليهم السلام لابد وأن تكون وحياً وهذه الحجة غير قوية لأن يوسف عليه السلام ما كان فى ذلك الوقت من الأنبياء.

﴿السؤال السابع﴾ وما تلك الكواكب ؟

قلنا : روى صاحب الكشاف أن يهودياً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد أخبرنى عن النجوم التى رآهن يوسف فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فقال عليه الصلاة والسلام لليهودى «إن أخبرتك هل تسلم» قال نعم قال «جربان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلت من السماء وسجدت له» فقال اليهودى : أى والله انها لأسماؤها

واعلم أن كثيراً من هــذه الأسماء غير مذكور فى الكتب المصنفة فى صورة الكواكب والله أعلم بحقيقة الحال .

قوله تعالى ﴿قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليم حكيم﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حفص (يابنى) بفتح الياء والباقون بالكسر .

﴿المسألة الثانية﴾ أن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك المعنى ليعقوب عليه السلام بالأمارات الكثيرة فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له فقال لاتخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها فيكيدوا لك كيداً .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال الواحدى : الرؤيا مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى . إلا أنه لما صار اسما لهذا المتخيل فى المنام جرى مجرى الأسماء . قال صاحب الكشاف : الرؤيا بمعنى الرؤية إلا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة . فلاجرم فرق بينهما بحرفى التأنيث ، كما قيل : القربة والقربى وقرئ رويّاك بقلب الهمزة واواً وسمع الكسائى يقرأ ريّاك ورِيّاك بالادغام وضم الراء وكسرها وهى ضعيفة .

ثم قال تعالى ﴿فيكيدوا لك كيدا﴾ وهو منصوب باضمار أن والمعنى إن قصصتها عليهم كادوك فان قيل : فلم لم يقل فيكيدوك كما قال (فكيدونى) .

قلنا : هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون ، وكقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك ، وقيل هى من صلة الكيد على معنى فيكيدوا كيداً لك . قال أهل التحقيق : وهذا يدل على أنه قد كان لهم علم بتعبير الرؤيا وإلا لم يعلموا من هذه الرؤيا ما يوجب حقداً وغضبا .

ثم قال ﴿إن الشيطان للانسان عدو مبين﴾ والسبب فى هذا الكلام انهم لو أقدموا على الكيد لكان ذلك مضافا إلى الشيطان ونظيره قول موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان ، ثم إن يعقوب عليه السلام قصد بهذه النصيحة تعبير تلك الرؤيا وذكروا أموراً : أولها : قوله (وكذلك يجتبيك ربك) يعنى وكما اجتباك بمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبر شأن كذلك يجتبيك لأمور عظام . قال الزجاج : الاجتباء مشتق من جبيت الشىء إذا خلصته لنفسك ومنه جبيت الماء فى الحوض . واختلفوا فى المراد بهذا الاجتباء ، فقال الحسن : يجتبيك ربك بالنبوة ، وقال آخرون : المراد منه اعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة فاما تعيين النبوة فلا دلالة فى اللفظ عليه . وثانيها : قوله (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وفيه وجوه : الأول : المراد منه تعبير الرؤيا سماه تأويلا لأنه يؤل أمره الى مارآه فى المنام يعنى تأويل أحاديث الناس فيما يرونه فى منامهم . قالوا : إنه عليه السلام كان فى علم التعبير غاية ، والثانى : تأويل الأحاديث فى كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله ، وتأويل الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثالث : الأحاديث جمع حديث ،

والحديث هو الحادث، وتأويلها مآلها، ومآل الحوادث الى قدرة الله تعالى وتكوينه وحكمته، والمراد من تأويل الأحاديث كيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات الروحانية والجسمانية على قدرة الله تعالى وحكمته وجلالته، وثالثها: قوله (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب)

واعلم أن من فسر الاجتباء بالنبوة لا يمكنه أن يفسر إتمام النعمة ههنا بالنبوة أيضا وإلا لزم التكرار، بل يفسر إتمام النعمة ههنا بسعادات الدنيا وسعادات الآخرة. أما سعادات الدنيا فالاكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع فى المال والجاه والحشم وإجلاله فى قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد. وأما سعادات الآخرة: فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق فى معرفة الله تعالى. وأما من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية، فههنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور: الأول: أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان. وماذاك فى حق البشر إلا بالنبوة، فان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة الى كمال النبوة، فالكمال المطلق والتمام المطلق فى حق البشر ليس إلا النبوة، والثانى: قوله (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) ومعلوم أن النعمة التامة التى بها حصل امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا النبوة، فوجب أن يكون المراد باتمام النعمة هو النبوة.

واعلم أنا لما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء، وذلك لأنه قال (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) وهذا يقتضى حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام العمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به فى حق من عدا أبنائه فوجب أن لا يبقى معمولا به فى حق أولاده. وأيضا أن يوسف عليه السلام قال (إنى رأيت أحد عشر كوكبا) وكان تأويله أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال. ويستضىء بعلمهم ودينهم أهل الأرض، لأنه لا شىء أضوأ من الكواكب وبها يهتدى. وذلك يقتضى أن يكون جملة أولاد يعقوب أنبياء ورسلا.

فان قيل: كيف يجوز أن يكونوا أنبياء وقد أقدموا على ما أقدموا عليه فى حق يوسف عليه السلام؟

قلنا: ذاك وقع قبل النبوة، وعندنا العصمة إنما تعتبر فى وقت النبوة لا قبلها.

﴿القول الثانى﴾ أن المراد من قوله (ويتم نعمته عليك) خلاصه من المحن، ويكون وجه التشبيه فى ذلك بابراهيم واسحق عليهما السلام هو انعام الله تعالى على ابراهيم بانجائه من النار وعلى ابنه اسحق بتخليصه من الذبح.

﴿والقول الثالث﴾ أن اتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه فى الدنيا بنعمة الآخرة بأن

لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ «٧» إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ «٨»

جعلهم فى الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى فى الجنة .

واعلم أن القول الصحيح هو الأول ، لأن النعمة التامة فى حق البشر ليست إلا النبوة . وكل ماسواها فهى ناقصة بالنسبة اليها ، ثم إنه عليه السلام لما وعده بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله (إن ربك عليم حكيم) فقوله (عليم) اشارة إلى قوله (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) وقوله (حكيم) اشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث . لايضع النبوة إلا فى نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية .

فان قيل : هذه البشارات التى ذكرها يعقوب عليه السلام هل كان قاطعا بصحتها أم لا ؟ فان كان قاطعا بصحتها . فكيف حزن على يوسف عليه السلام . وكيف جاز أن يشتبه عليه أن الذئب أكله ، وكيف خاف عليه من إخوته أن يهلكوه ، وكيف قال لأخوته وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ، مع علمه بأن الله سبحانه سيجتبيه ويجعله رسولا . فاما إذا قلنا إنه عليه السلام ما كان عالما بصحة هذه الأحوال . فكيف قطع بها ؟ وكيف حكم بوقوعها ؟ حكما جازما من غير تردد .

قلنا : لايبعد أن يكون قوله (وكذلك يجتبيك ربك) مشروطا بأن لا يكيدوه ، لأن ذكر ذلك قد تقدم ، وأيضاً فبتقدير أن يقال : إنه عليه السلام كان قاطعا بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المناصب إلا أنه لايمتنع أن يقع فى المضايق الشديدة ثم يتخلص منها ويصل إلى تلك المناصب فكان خوفه لهذا السبب ويكون معنى قوله (وأخاف أن يأكله الذئب) الزجر عن التهاون فى حفظه وإن كان يعلم أن الذئب لايصل اليه .

قوله تعالى ﴿لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين﴾

فى هذه الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ ذكر صاحب الكشاف أسماء إخوة يوسف : يهودا . روبيل . شمعون لاوى ، ربالون ، يشجر ، دينة ، دان . نفتالى ، جاد ، آشر . ثم قال : السبعة الأولون من ليا بنت

خالة يعقوب والأربعة الآخرون من سريتين . زلفة وبلهة ، فلما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف .

﴿المسألة الثانيـة﴾ قوله (آيات للسائلين) قرأ ابن كثير آية بغير ألف حمله على شأن يوسف والباقون (آيات) على الجمع لأن أمور يوسف كانت كثيرة وكل واحد منها آية بنفسه .

﴿المسألة الثالثة﴾ ذكروا فى تفسير قوله تعالى (آيات للسائلين) وجوهاً الأول : قال ابن عباس دخل حبر من اليهود على النبى صلى الله عليه وسلم فسمع منه قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هى فى التوراة ، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع ، فقالوا له من علمك هذه القصة ؟ فقال : الله علمى ، فنزل (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) وهذا الوجه عندى بعيد ، لأن المفهوم من الآية أن فى واقعة يوسف آيات للسائلين وعلى هذا الوجه الذى نقلناه ما كانت الآيات فى قصة يوسف ، بل كانت الآيات فى أخبار محمد صلى الله عليه وسلم عنها من غير سبق تعلم ولا مطالعة وبين الكلامين فرق ظاهر . والثانى : أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول عليه الصلاة والسلام وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد فذكر الله تعالى هذه القصة وبين أن إخوة يوسف بالغوا فى إيذائه لأجل الحسد وبالآخرة فان الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته ، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجراً له عن الاقدام على الحسد والثالث : أن يعقوب لما عبر رؤيا يوسف وقع ذلك التعبير ودخل فى الوجود بعد ثمانين سنة فكذلك أن الله تعالى لما وعد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء ، فاذا تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذباً فيه فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه . الرابع : أن إخوة يوسف بالغوا فى إبطال أمره ، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى لا كما سعى فيه الأعداء ، فكذلك واقعة محمد صلى الله عليه وسلم فان الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعى الكفار فى إبطال أمره . وأما قوله (للسائلين) فاعلم أن هذه القصة فيها آيات كثيرة لمن سأل عنها ، وهو كقوله تعالى (فى أربعة أيام سواء للسائلين)

ثم قال تعالى ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (ليوسف) اللام لام الابتداء ، وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة . أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لاشبهة فيه وأخوه هو بنيامين ، وإنما قالوا أخوه ، وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة والعصبة والعصابة العشرة فصاعدا ، وقيل إلى الأربعين سموا بذلك

لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ، ونقل عن على عليه السلام أنه قرأ (ونحن عصبة) بالنصب قيل : معناه ونحن نجتمع عصبة .

﴿المسألة الثانية﴾ المراد منه بيان السبب الذى لأجله قصدوا إيذاء يوسف . وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد فى الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه : الأول : أنهم كانوا أكبر سناً منهما . وثانيها : أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياماً بمصالح الأب منهما . وثالثها : أنهم قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات ، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات . إذا ثبت ما ذكرناه من كونهم متقدمين عل يوسف وأخيه فى هذه الفضائل ، ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم . لاجرم قالوا (إن أبانا لفى ضلال مبين) يعنى هذا حيف ظاهر وضلال بين . وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ إن من الأمور المعلومة أن تفضيل بعض الأولاد على بعض يورث الحقد والحسد ، ويورث الآفات . فلما كان يعقوب عليه السلام عالما بذلك فلم أقدم على هذا التفضيل وأيضاً الأسن والأعلم والأنفع أفضل ، فلم قلب هذه القضية ؟

والجواب : أنه عليه السلام مافضلهما على سائر الأولاد إلا فى المحبة . والمحبة ليست فى وسع البشر فكان معذوراً فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم .

﴿السؤال الثانى﴾ أن أولاد يعقوب عليه السلام إن كانوا قد آمنوا بكونه رسولا حقاً من عند الله تعالى فكيف اعترضوا عليه . وكيف زيفوا طريقته وطعنوا فى فعله . وإن كانوا مكذبين لنبوته . فهذا يوجب كفرهم .

والجواب : أنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولا حقاً من عندالله تعالى ، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالا مخصوصة بمجرد الاجتهاد ، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد . وذلك لأنهم كانوا يقولون هما صبيان مابلغا العقل الكامل ونحن متقدمون عليهما فى السن والعقل والكفاية والمنفعة وكثرة الخدمة والقيام بالمهمات وإصراره على تقديم يوسف علينا يخالف هذا الدليل . وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول : زيادة المحبة ليست فى الوسع والطاقة ، فليس لله على فيه تكليف . وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه : أحدها : أن أمهما ماتت وهما صغار . وثانيها : لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والنجابة مالم يجد فى سائر الأولاد . وثالثها : لعله عليه السلام وإن كان صغيرا إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد . والحاصل

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ «٩» قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ «١٠»

أن هذه المسألة كانت اجتهادية . وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة . فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر أو فى عرضه .

﴿السؤال الثالث﴾ أنهم نسبوا أباهم الى الضلال المبين ، وذلك مبالغه فى الذم والطعن ، ومن بالغ فى الطعن فى الرسول كفر ، لاسيما اذا كان الطاعن ولداً فان حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم .

والجواب : المراد منه الضلال عن رعاية المصالح فى الدنيا لا البعد عن طريق الرشد والصواب .

﴿السؤال الرابع﴾ أن قولهم (ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) محض الحسد ، والحسد من أمهات الكبائر ، لاسيما وقد أقدموا على الكذب بسبب ذلك الحسد ، وعلى تضييع ذلك الأخ الصالح وإلقائه فى ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق ، وألقوا أباهم فى الحزن الدائم والأسف العظيم ، وأقدموا على الكذب فما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة فى الشر والفساد إلا وقد أتوا بها ، وكل ذلك يقدح فى العصمة والنبوة .

والجواب : الأمر كما ذكرتم ، إلا أن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام فى وقت حصول النبوة . وأما قبلها فذلك غير واجب والله أعلم .

قوله تعالى ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾

واعلم انه لما قوى الحسد وبلغ النهاية قالوا لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه : وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين : القتل ، أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه ولا وجه فى الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك ، ثم ذكروا العلة فيه وهى قولهم (يخل لكم وجه أبيكم) والمعنى أن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه فاذا أفقده أقبل علينا بالميل والمحبة (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) وفيه وجوه : الأول : أنهم علموا أن ذلك الذى عزموا عليه من الكبائر فقالوا : إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين . والثانى : أنه ليس المقصود ههنا صلاح الدين بل المعنى يصلح شانكم عند أبيكم ويصير أبوكم محباً لكم مشتغلا بشأنكم . الثالث : المراد أنكم بسبب

هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لاصلاح مهم ، فاذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لاصلاح مهماتكم . واختلفوا فى أن هذا القائل الذى أمر بالقتل من كان ؟ على قولين : أحدهما : أن بعض إخوته قال هذا . والثانى : أنهم شاوروا أجنبياً فأشار عليهم بقتله ، ولم يقل ذلك أحد من اخوته ، فأما من قال بالأول فقد اختلفوا . فقال وهب : إنه شمعون ، وقال مقاتل : روبيل .

فان قيل: كيف يليق هذا بهم وهم أنبياء ؟

قلنا : من الناس من أجاب عنه بأنهم كانوا فى هذا الوقت مراهقين وما كانوا بالغين ، وهذا ضعيف ، لأنه يبعد من مثل نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام أن يبعث جماعة من الصبيان من غير أن يكون معهم إنسان عاقل يمنعهم من القبائح . وأيضاً أنهم قالوا (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) وهذا يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين ، وذلك ينافى كونهم من الصبيان ، ومنهم من أجاب بأن هذا من باب الصغائر ، وهذا أيضاً بعيد لأن إيذاء الأب الذى هو نبى معصوم ، والكذب معه والسعى فى إهلاك الأخ الصغير كل واحد من ذلك من أمهات الكبائر ، بل الجواب الصحيح أن يقال : إنهم ما كانوا أنبياء . وإن كانوا أنبياء إلا أن هذه الواقعة إنما أقدموا عليها قبل النبوة .

ثم إنه تعالى حكى أن قائلا قال (لا تقتلوا يوسف) قيل إنه كان روبيل وكان ابن خالة يوسف وكان أحسنهم رأياً فيه فمنعهم عن القتل ، وقيل يهودا ، وكان أقدمهم فى الرأى والفضل والسن .

ثم قال ﴿وألقوه فى غيابت الجب﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع (فى غيابات الجب) على الجمع فى الحرفين ، هـذا والذى بعده ، والباقون (غيابة) على الواحد فى الحرفين . أما وجه الغيابات فهو أن للجب أقطارا ونواحى ، فيكون فيها غيابات ، ومن وحد قال : المقصود موضع واحد من الجب يغيب فيه يوسف ، فالتوحيد أخص وأدل على المعنى المطلوب . وقرأ الجحدرى (فى غيبة الجب)

﴿المسألة الثانية﴾ قال أهل اللغة : الغيابة كل ما غيب شيئا وستره ، فغيابة الجب غوره ، وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله . والجب البئر التى ليست بمطوية سميت جبا ، لأنها قطعت قطعا ولم يحصل فيها غير القطع من طى أو ما أشبه ذلك . وإنما ذكرت الغيابة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه فى موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيابة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقى فى موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين .

﴿المسألة الثالثة﴾ الألف واللام فى الجب تقتضى المعهود السابق . واختلفوا فى ذلك الجب

قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ «١١» أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ «١٢»

فقال قتادة : هو بئر ببيت المقدس ، وقال وهب : هو بأرض الأردن ، وقال مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب ، وانما عينوا ذلك الجب للعلة التى ذكروها وهى قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً ، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب ، لأن السيارة إذا جازوا وردوها ، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الانسان فيها ، وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان القاؤه فيها أبعد عن الهلاك .

﴿المسألة الرابعة﴾ الالتقاط تناول الشيء من الطريق ، ومنه : اللقطة واللقيط . وقرأ الحسن (تلتقطه) بالتاء على المعنى ، لأن بعض السيارة أيضاً سيارة . والسيارة الجماعة الذين يسيرون فى الطريق للسفر . قال ابن عباس : يريد المارة وقوله (إن كنتم فاعلين) فيه إشارة إلى أن الأولى أن لاتفعلوا شيئاً من ذلك ، وأما إن كان ولابد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) يعنى الأولى أن لاتفعلوا ذلك .

قوله تعالى ﴿قالوا يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾

اعلم أن هذا الكلام يدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخافهم على يوسف ولولا ذلك وإلا لما قالوا هذا القول .

واعلم أنهم لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم فى غاية المحبة ليوسف وفى غاية الشفقة عليه ، وكانت عادتهم أن يغيبوا عنه مدة إلى الرعى فسألوه أن يرسله معهم وقد كان عليه السلام يحب تطييب قلب يوسف فاغتر بقولهم وأرسله معهم . وفى الآية مسائل .

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : (لاتأمنا) قرئ باظهار النونين وبالادغام باشمام وبغير إشمام . والمعنى لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به .

﴿المسألة الثانية﴾ فى (يرتع ويلعب) خمس قراآت :

﴿القراءة الأولى﴾ قرأ ابن كثير : بالنون ، وبكسر عين نرتع من الارتعاء ، ويلعب بالياء . والارتعاء افتعال من رعيت ، يقال : رعت الماشية الكلأ ترعاه رعيا إذا أكلته . وقوله (نرتع)

قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ «١٣» قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ «١٤»

الارتعاء للابل والمواشى ، وقد أضافوه إلى أنفسهم ، لأن المعنى نرتع إبلنا ، ثم نسبوه إلى أنفسهم لأنهم هم السبب فى ذلك الرعى . والحاصل أنهم أضافوا الارتعاء والقيام بحفظ المال إلى أنفسهم لأنهم بالغون كاملون وأضافوا اللعب إلى يوسف لصغره .

﴿القراءة الثانية﴾ قرأ نافع : كلاهما بالياء وكسر العين من يرتع أضاف الارتعاء إلى يوسف بمعنى أنه يباشر رعى الابل ليتدرب بذلك فمرة يرتع ومرة يلعب كفعل الصبيان .

﴿القراءة الثالثة﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر (نرتع) بالنون وجزم العين ومثله نلعب . قال ابن الأعرابى : الرتع الأكل بشره ، وقيل : إنه الخصب ، وقيل : المراد من اللعب الاقدام على المباحات وهذا يوصف به الانسان ، وأما نلعب فروى أنه قيل لأبى عمرو : كيف يقولون نلعب وهم أنبياء ؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ، وأيضا جاز أن يكون المراد من اللعب الاقدام على المباحات لأجل انشراح الصدر كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لجابر «فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك» وأيضا كان لعبهم الاستباق ، والغرض منه تعلم المحاربة والمقاتلة مع الكفار . والدليل عليه قولهم : إنا ذهبنا نستبق وإنما سموه لعبا لأنه فى صورته .

﴿القراءة الرابعة﴾ قرأ أهل الكوفة : كليهما بالياء وسكون العين ، ومعناه اسناد الرتع واللعب إلى يوسف عليه السلام .

﴿القراءة الخامسة﴾ (يرتع) بالياء (ونلعب) بالنون وهذا بعيد ، لأنهم إنما سألوا إرسال يوسف معهم ليفرح هو باللعب لا ليفرحوا باللعب ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾

اعلم أنهم لما طلبوا منه أن يرسل يوسف معهم اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة . والثانى : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقلة اهتمامهم به . قيل : إنه رأى فى النوم أن الذئب شد على يوسف ، فكان يحذره فمن هذا ذكر ذلك ، وكأنه لقنهم الحجة . وفى أمثالهم البلاء موكل بالمنطق . وقيل : الذئاب كانت فى أراضيهم كثيرة ، وقرئ (الذئب) بالهمز على الأصل وبالتخفيف . وقيل : اشتقاقه من

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «١٥»

تذابت الريح اذا أتت من كل جهة . فلما ذكر يعقوب عليه السلام هذا الكلام أجابوا بقولهم (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا اذا لخاسرون) وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ مافائدة اللام فى قوله (لئن أكله الذئب)

والجواب من وجهين :الأول : أن كلمة إن تفيد كون الشرط مستلزماً للجزاء . أى إن وقعت هذه الواقعة فنحن خاسرون ، فهذه اللام دخلت لتأكيد هذا الاستلزام . الثانى : قال صاحب الكشاف هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره : والله لئن أكله الذئب لكنا خاسرين .

﴿السؤال الثانى﴾ مافائدة الواو فى قوله (ونحن عصبة)

الجواب : أنها واو الحال حلفوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال بمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذاً لقوم خاسرون .

﴿السؤال الثالث﴾ ما المراد من قولهم (إنا إذاً لخاسرون)

الجواب فيه وجوه : الأول : خاسرون أى هالكون ضعفاً وعجزاً . ونظيره قوله تعالى (لئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون) أى لعاجزون . الثانى : أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار . وأن يقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون . الثالث : المعنى أنا ان لم نقدر على حفظ أخينا فقد هلكت مواشينا وخسرناها . الرابع : أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم فى خدمة أبيهم واجتهدوا فى القيام بمهماته وانما تحملوا تلك المتاعب ليفوزوا منه بالدعاء والثناء فقالوا : لو قصرنا فى هذه الخدمة فقد أحبطنا كل تلك الأعمال وخسرنا كل ماصدر منا من أنواع الخدمة .

﴿السؤال الرابع﴾ أن يعقوب عليه السلام اعتذر بعذرين فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر؟

والجواب : أن حقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الأول ، وهو شدة حبه له فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه .

قوله تعالى ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾

اعلم أنه لابد من الاضمار فى هذه الآية فى موضعين : الأول : أن تقدير الآية قالوا (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون) فأذن له وأرسله معهم ثم يتصل به قوله (فلما ذهبوا به) والثانى أنه لابد لقوله (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب) من جواب إذ جواب لما غير مذكور وتقديره فجعلوه فيها . وحذف الجواب فى القرآن كثير بشرط أن يكون المذكور دليلا عليه وههنا كذلك . قال السدى : إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة . وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولايرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يايعقوب لو تعلم مايصنع بابنك . فقال يهودا أليس قد أعطيتمونى موثقا أن لا تقتلوه فانطلقوا به الى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه ، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب . فقال لهم ردوا على قميصى لأتوارى به . فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك ، ثم دلوه فى البئر حتى اذا بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى الى صخرة فقام بها وهو يبكى فنادوه فظن أنه رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام . وروى أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال ياشاهدا غير غائب . وياقريبا غير بعيد . وياغالبا غير مغلوب . اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا . وروى أن ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه ، فدفعه ابراهيم الى اسحق . واسحق الى يعقوب . فجعله يعقوب فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه إياه .

ثم قال تعالى ﴿وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى قوله (وأوحينا اليه) قولان : أحدهما : أن المراد منه الوحى والنبوة والرسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحققين . ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أنه عليه السلام هل كان فى ذلك الوقت بالغاً أو كان صبياً قال بعضهم : إنه كان فى ذلك الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة . وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحى والنبوة كما فى حق عيسى عليه السلام .

﴿والقول الثانى﴾ إن المراد من هذا الوحى الالهام كما فى قوله تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) وقوله (وأوحى ربك إلى النحل) والأول : أولى . لأن الظاهر من الوحى ذلك .

فان قيل : كيف يجعله نبياً فى ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة ؟

قلنا : لايمتنع أن يشرفه بالوحى والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة

وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ «١٦» قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ «١٧» وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ «١٨»

تقديم الوحى تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه .

﴿المسألة الثانية﴾ فى قوله (وهم لا يشعرون) قولان : الأول : المراد أن الله تعالى أوحى إلى يوسف إنك لتخبرن إخوتك بصنيعهم بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون فى ذلك الوقت إنك يوسف ، والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت قهره وقدرته. وروى أنهم حين دخلوا عليه لطلب الحنطة وعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن ، فقال : إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف فطرحتموه فى البئر وقلتم لأبيكم أكله الذئب ، والثانى : أن المراد إنا أوحينا الى يوسف عليه السلام فى البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال ، وهم ما كانوا يشعرون بنزول الوحى عليه . والفائدة فى إخفاء نزول ذلك الوحى عنهم أنهم لو عرفوه فربما ازداد حسدهم فكانوا يقصدون قتله .

﴿المسألة الثالثة﴾ اذا حملنا قوله (وهم لا يشعرون) على التفسير الأول ، كان هذا أمرا من الله تعالى نحو يوسف فى أن يستر نفسه عن أبيه وأن لا يخبره بأحوال نفسه ، فلهذا السبب كتم أخبار نفسه عن أبيه طول تلك المدة ، مع علمه بوجد أبيه به خوفا من مخالفة أمر الله تعالى ، وصبر على تجرع تلك المرارة . فكان الله سبحانه وتعالى قد قضى على يعقوب عليه السلام أن يوصل اليه تلك الغموم الشديدة والهموم العظيمة ليكثر رجوعه الى الله تعالى . وينقطع تعلق فكره عن الدنيا فيصل الى درجة عالية فى العبودية لا يمكن الوصول اليها إلا بتحمل المحن الشديدة . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وجاؤا أباهم عشاء يبكون قالوا ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين وجاؤا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون﴾

اعلم أنهم لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء باكين ورواه ابن جنى

عشا بضم العين والقصر. وقال: عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال: هل أصابكم فى غنمكم شيء؟ قالوا لا قال: فما فعل يوسف؟ قالوا (ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحه على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص، وروى أن امرأة تحاكمت إلى شريح فبكت فقال الشعبي: يا أبا أمية ما تراها تبكى؟ قال: قدجاء اخوة يوسف يبكون وهم ظلمة كذبة. لا ينبغى للانسان أن يقضى إلا بالحق. واختلفوا فى معنى الاستباق قال الزجاج: يسابق بعضهم بعضاً فى الرمى، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «لاسبق إلا فى خف أو نصل أو حافر» يعنى بالنصل الرمى، وأصل السبق فى الرمى بالسهم هو أن يرمى اثنان ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة. ثم يوصف المتراميان بذلك فيقال: استبقا وتسابقا إذا فعلا ذلك ليتبين أيهما أسبق سهما ويدل على صحة هذا التفسير ماروى أن فى قراءة عبد الله (إنا ذهبنا ننتضل)

﴿والقول الثانى﴾ فى تفسير الاستباق ماقاله السدى ومقاتل (نستبق) نشتد ونعدو ليتبين أينا أسرع عدواً.

فان قيل: كيف جاز أن يستبقوا وهم رجال بالغون وهذا من فعل الصبيان؟

قلنا: الاستباق منهم كان مثل الاستباق فى الخيل وكانوا يجربون بذلك أنفسهم ويدربونها على العدو ولأنه كالآلة لهم فى محاربة العدو ومدافعة الذئب إذا اختلس الشاة وقوله (فأكله الذئب) قيل أكل الذئب يوسف وقيل عرضوا، وأرادوا أكل الذئب المتاع. والوجه هو الأول.

ثم قالوا ﴿وماأنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ ليس المعنى أن يعقوب عليه السلام لايصدق من يعلم أنه صادق، بل المعنى لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا فى يوسف لشدة محبتك إياه ولظننت أنا قد كذبنا. والحاصل انا وإن كنا صادقين لكنك لاتصدقنا لأنك تتهمنا. وقيل: المعنى: إناوإن كناصادقين فانك لاتصدقنا لأنه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا.

﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الايمان فى أصل اللغة عبارة عن التصديق لأن المراد من قوله (وما أنت بمؤمن لنا) أى بمصدق. واذا ثبت أن الأمر كذلك فى أصل اللغة وجب أن يبقى فى عرف الشرع كذلك. وقد سبق الاستقصاء فيه فى أول سورة البقرة فى تفسير قوله (الذين يؤمنون بالغيب)

ثم قال تعالى ﴿وجاؤا على قميصه بدم كذب﴾ وفيه مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ إنما جاؤا بهذا القميص المطلخ بالدم ليوهم كونهم صادقين فى مقالتهم . قيل : ذبحوا جدياً ولطخوا ذلك القمص بدمه . قال القاضى : ولعل غرضهم فى نزع قميصه عند إلقائه فى غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم ، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً فى نفس القميص ولا بد فى المعصية من أن يقرن بهذا الخذلان ، فلو خرقوه مع لطخه بالدم لكان الايهام أقوى . فلما شاهد يعقوب القميص صحيحا علم كذبهم .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (وجاؤا على قميصه) أى وجاؤا فوق قميصه بدم كما يقال : جاؤا على جمالهم بأحمال .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أصحاب العربية وهم الفراء والمبرد والزجاج وابن الانبارى (بدم كذب) أى مكذوب فيه ، إلا أنه وصف بالمصدر على تقدير دم ذى كذب ولكنه جعل نفسه كذباً للمبالغة قالوا : والمفعول والفاعل يسميان بالمصدر كما يقال : ماء سكب ، أى مسكوب ودرهم ضرب الأمير وثوب نسج اليمن ، والفاعل كقوله (إن أصبح ماؤكم غوراً) ورجل عدل وصوم . ونساء نوح ولما سميا بالمصدر سمى المصدر أيضاً بهما فقالوا : للعقل المعقول . وللجلد المجلود ، ومنه قوله تعالى (بأيكم المفتون) وقوله (إذا مزقتم كل ممزق) قال الشعبى : قصة يوسف كلها فى قميصه . وذلك لأنهم لما ألقوه فى الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيه ، ولما شهد الشاهد قال (إن كان قميصه قد من قبل) ولما أتى بقميصه إلى يعقوب عليه السلام فألقى على وجهه ارتد بصيرا . ثم ذكر تعالى أن إخوة يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام (بل سولت لكم أنفسكم أمراً)

قال ابن عباس : معناه : بل زينت لكم أنفسكم أمراً . والتسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى إتمامه قال الأزهرى : كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان . وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره . وأصله مهموز غير أن العرب استثقلوا فيه الهمز . وقال صاحب الكشاف : (سولت) سهلت من السول وهو الاسترخاء

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (بل) رد لقولهم (أكله الذئب) كأنه قال : ليس كما تقولون (بل سولت لكم أنفسكم) فى شأنه (أمراً) أى زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون . واختلفوا فى السبب الذى به عرف كونهم كاذبين على وجوه : الأول : أنه عرف ذلك بسبب أنه كان يعرف الحسد الشديد فى قلوبهم . والثانى : أنه كان عالما بأنه حى لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف (وكذلك يجتبيك ربك) وذلك دليل قاطع على أنهم كاذبون فى ذلك .

القول الثالث : قال سعيد بن جبير : لما جاؤا على قميصه بدم كذب ، وما كان متخرقاً ، قال كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه . وعن السدى أنه قال : إن يعقوب عليه السلام قال إن هذا الذئب كان رحيما . فكيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه ؟ وقيل : إنه عليه السلام لما قال ذلك قال بعضهم : بل قتله اللصوص . فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إلى قميصه أحوج منه إلى قتله ؟ فلما اختلفت أقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم . ثم قال يعقوب عليه السلام (فصبر جميل) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ منهم من قال : إنه مرفوع بالابتداء ، وخبره محذوف ، والتقدير : فصبر جميل أولى من الجزع ، ومنهم من أضمر المبتدأ قال الخليل : الذى أفعله صبر جميل . وقال قطرب : معناه : فصبرى صبر جميل . وقال الفراء : فهو صبر جميل .

﴿المسألة الثانية﴾ كان يعقوب عليه السلام قد سقط حاجباه وكان يرفعهما بخرقة . فقيل له : ماهذا ؟ فقال طول الزمان وكثرة الأحزان : فأوحى الله تعالى إليه يايعقوب أتشكونى ؟ فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . وروى عن عائشة رضى الله عنها فى قصة الافك أنها قالت : والله لئن حلفت لاتصدقونى وإن اعتذرت لاتعذرونى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وولده (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) فأنزل الله عز وجل فى عذرها ما أنزل .

﴿المسألة الثالثة﴾ عن الحسن أنه سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله (فصبر جميل) فقال : «صبر لاشكوى فيه فمن بث لم يصبر» ويدل عليه من القرآن قوله تعالى (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) وقال مجاهد : فصبر جميل . أى من غير جزع ، وقال الثورى : من الصبر أن لاتحدث بوجعك ولا بمصيبتك ، ولاتزكى نفسك ، وههنا بحث وهو أن الصبر على قضاء الله تعالى واجب فاما الصبر على ظلم الظالمين ، ومكر الماكرين فغير واجب ، بل الواجب إزالته لاسيما فى الضرر العائد إلى الغير ، وههنا أن اخوة يوسف لما ظهر كذبهم وخيانتهم فلم صبر يعقوب على ذلك ؟ ولم لم يبالغ فى التفتيش والبحث سعياً منه فى تخليص يوسف عليه السلام عن البلية والشدة ان كان فى الاحياء وفى إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه . فثبت أن الصبر فى المقام مذموم .

ومما يقوى هذا السؤال أنه عليه الصلاة والسلام كان عالماً بأنه حى سليم لأنه قال له (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) والظاهر أنه انما قال هذا الكلام من الوحى وإذا كان عالما بأنه حى سليم فكان من الواجب أن يسعى فى طلبه . وأيضاً إن يعقوب عليه السلام كان رجلا عظيم القدر فى نفسه . وكان من بيت عظيم شريف . وأهل العالم كانوا يعرفونه ويعتقدون فيه ويعظمونه فلو بالغ فى الطلب والتفحص لظهر ذلك واشتهر ولزال وجه التلبيس . فما السبب فى أنه

عليه السلام مع شدة رغبته فى حضور يوسف عليه السلام ، ونهاية حبه له لم يطلبه مع أن طلبه كان من الواجبات . فثبت أن هذا الصبر فى هذا المقام مذموم عقلا وشرعا .

والجواب عنه : أن نقول لاجواب عنه إلا أن يقال إنه سبحانه وتعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه ، وتغليظاً للأمر عليه ، وأيضاً لعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لايمكنونه من الطلب والتفحص ، وأنه لو بالغ فى البحث فربما أقدموا على إيذائه وقتله ، وأيضاً لعله عليه السلام علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة . ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده ومارضى بالقائهم فى ألسنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب فى العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم وإن انتقم فانه يحترق قلبه على الولد الذى ينتقم منه . فلما وقع يعقوب عليه السلام فى هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله تعالى (فصبر جميل) يدل على أن الصبر على قسمين : منه ماقد يكون جميلا وماقد يكون غير جميل ، فالصبر الجميل هو أن يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى ، ثم يعلم أن الله سبحانه مالك الملك ولا اعتراض على المالك فى أن يتصرف فى ملك نفسه فيصير استغراق قلبه فى هذا المقام مانعاً له من إظهار الشكاية .

﴿والوجه الثانى﴾ أنه يعلم أن منزل هذا البلاء ، حكيم لا يجهل ، وعالم لايغفل ، عليم لاينسى رحيم لا يطغى ، واذا كان كذلك ، فكان كل ما صدر عنه حكمة وصوابا ، فعند ذلك يسكت ولا يعترض .

﴿والوجه الثالث﴾ أنه ينكشف له أن هذا البلاء من الحق ، فاستغراقه فى شهود نور المبلى يمنعه من الاشتغال بالشكاية عن البلاء . ولذلك قيل . المحبة التامة لاتزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء ، لأنها لو ازدادت بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ . وموصل النصيب لايكون محبوباً بالذات بل بالعرض ، فهذا هو الصبر الجميل . أما اذا كان الصبر لالأجل الرضا بقضاء الحق سبحانه بل كان لسائر الأغراض . فذلك الصبر لا يكون جميلا ، والضابط فى جميع الأفعال والأقوال والاعتقادات أن كل ما كان لطلب عبودية الله تعالى كان حسنا وإلا فلا ، وههنا يظهر صدق ماروى فى الأثر «استفت قلبك ، ولو أفتاك المفتون» فليتأمل الرجل تأملا شافيا . أن الذى أتى به هل الحامل والباعث عليه طلب العبودية أم لا ؟ فان أهل العلم لو أفتونا بالشىء مع أنه لايكون فى نفسه كذلك لم يظهر منه نفع البتة . ولما ذكر يعقوب قوله (فصبر جميل) قال (والله المستعان على

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ «١٩» وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ «٢٠»

ماتصفون) والمعنى: أن إقدامه على الصبر لايمكن إلا بمعونة الله تعالى، لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قوية. والدواعي الروحانية تدعوه الى الصبر والرضا، فكأنه وقعت المحاربة بين الصنفين، فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله (فصبر جميل) يجرى مجرى قوله (إياك نعبد) وقوله (والله المستعان على ماتصفون) يجرى مجرى قوله (وإياك نستعين)

قوله تعالى ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾

اعلم أنه تعالى بين كيف سهل السبيل فى خلاص يوسف من تلك المحنة، فقال (وجاءت سيارة) يعنى رفقة تسير للسفر. قال ابن عباس: جاءت سيارة أى قوم يسيرون من مدين إلى مصر فاخطؤا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق، فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام، وكان الجب فى قفرة بعيدة عن العمران لم يكن إلا للرعاة، وقيل: كان ماؤه ملحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف عليه السلام فارسلوا رجلا يقال له: مالك بن ذعر الخزاعى ليطلب لهم الماء، والوارد الذى يرد الماء ليستقى القوم (فأدلى دلوه) ونقل الواحدى عن عامة أهل اللغة أنه يقال: أدلى دلوه إذا أرسلها فى البئر ودلاها إذا نزعها من البئر يقال: أدلى يدلى إدلاء إذا أرسل ودلا يدلو دلواً إذا جذب وأخرج، والدلو معروف، والجمع دلاء (قال يابشرى هذا غلام) وههنا محذوف، والتقدير: فظهر يوسف قال المفسرون: لما أدلى الوارد دلوه وكان يوسف فى ناحية من قعر البئر تعلق بالحبل فنظر الوارد اليه ورأى حسنه نادى، فقال: يابشرى. وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائى (بشرى) بغير الألف وبسكون الياء، والباقون يابشراى بالألف وفتح الياء على الاضافة.

﴿المسألة الثانية﴾ فى قوله (يابشرى) قولان:

﴿القول الأول﴾ أنها كلمة تذكر عند البشارة ونظيره قولهم: ياعجبا من كذا وقوله (يا أسفا

على يوسف) وعلى هذا القول ففى تفسير النداء وجهان : الأول : قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الاشياء التى لاتجيب تنبيه المخاطبين وتوكيد القصة فاذا قلت : ياعجباه فكأنك قلت اعجبوا . الثانى : قال أبو على : كأنه يقول : ياأيتها البشرى هـذا الوقت وقتك ، ولو كنت ممن يخاطب لخوطبت الآن ولأمرت بالحضور .

واعلم أن سبب البشارة هو أنهم وجدوا غلاما فى غاية الحسن وقالوا : نبيعه بثمن عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى ،

﴿والقول الثانى﴾ وهو الذى ذكره السدى أن الذى نادى صاحبه وكان اسمه ، فقال يابشرى كما تقول يازيد . وعن الأعمش أنه قال : دعا امرأة اسمها بشرى (يابشرى) قال أبو على الفارسى : إن جعلنا البشرى اسما للبشارة ، وهو الوجه جاز أن يكون فى محل الرفع كما قيل : يارجل لاختصاصه بالنداء ، وجاز أن يكون فى موضع النصب على تقدير : أنه جعل ذلك النداء شائعاً فى جنس البشرى ، ولم يخص كما تقول : يارجلا (وياحسرة على العباد)

وأما قوله تعالى ﴿وأسروه بضاعة﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ الضمير فى (وأسروه) الى من يعود؟ فيه قولان : الأول : أنه عائد الى الوارد وأصحابه أخفوا من الرفقة أنهم وجدوه فى الجب ، وذلك لأنهم قالوا : إن قلنا للسيارة التقطناه شاركونا فيه ، وإن قلنا اشتريناه : سألونا الشركة ، فالأصوب أن نقول : إن أهل الماء جعلوه بضاعة عندنا على أن نبيعه لهم بمصر . والثانى : نقل عن ابن عباس أنه قال (وأسروه) يعنى : إخوة يوسف أسروا شأنه ، والمعنى : أنهم أخفوا كونه أخا لهم ، بل قالوا : إنه عبد لنا أبق منا وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية ، والأول أولى لأن قوله (وأسروه بضاعة) يدل على أن المراد أسروه حال ماحكموا بأنه بضاعة ، وذلك إنما يليق بالوارد لا باخوة يوسف .

﴿المسألة الثانية﴾ البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت اللحم اذا قطعته . قال الزجاج : وبضاعة منصوبة على الحال كأنه قال : وأسروه حال ماجعلوه بضاعة .

ثم قال تعالى ﴿والله عليم بما يعملون﴾ والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكب والشمس والقمر فى النوم سجدت له وذكر ذلك حسده إخوته عليه واحتالوا فى ابطال ذلك الأمر عليه فأوقعوه فى البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود ، وأنه تعالى جعل وقوعه فى ذلك البلاء سبباً إلى وصوله الى مصر . ثم تمادت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار ملك مصر وحصل ذلك الذى رآه فى النوم فكان العمل الذى عمله الاعداء فى دفعه عن ذلك المطلوب صيره

الله تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب ، فلهذا المعنى قال (والله عليم بما يعملون)

ثم قال تعالى ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ أما قوله (وشروه) ففيه قولان :

﴿القول الأول﴾ المراد من الشراء هو البيع ، وعلى هذا التقدير ففى ذلك البائع قولان :

﴿القول الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره . فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا : هـذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم : فبيعوه منا فباعوه منهم ، والمراد من قوله (وشروه) أى باعوه يقال : شريت الشىء اذا بعته ، وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع ، لأن الضمير فى قوله (وشروه) وفى قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) عائد الى شىء واحد لكن الضمير فى قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) عائد الى الاخوة فكذا فى قوله (وشروه) يجب أن يكون عائداً إلى الاخوة ، واذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع .

﴿والقول الثانى﴾ أن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر ، وقال محمد بن إسحق : ربك أعلم أإخوته باعوه أم السيارة ، وههنا قول آخر وهو أنه يحتمل أن يقال : المراد من الشراء نفس الشراء . والمعنى أن القوم اشتروه وكانوا فيه من الزاهدين ، لأنهم علموا بقرائن الحال أن إخوة يوسف كذابون فى قولهم إنه عبدنا وربما عرفوا أيضاً أنه ولد يعقوب فكرهوا شراءه خوفاً من الله تعالى ، ومن ظهور تلك الواقعة ، إلا أنهم مع ذلك اشتروه بالآخرة لأنهم اشتروه بثمن قليل . مع أنهم أظهروا من أنفسهم كونهم فيه من الزاهدين ، وغرضهم أن يتوصلوا بذلك إلى تقليل الثمن ، ويحتمل أيضاً أن يقال إن الاخوة لما قالوا : إنه عبدنا أبق صار المشترى عديم الرغبة فيه . قال مجاهد : وكانوا يقولون استوثقوا منه لئلا يابق .

ثم اعلم أنه تعالى وصف ذلك الثمن بصفات ثلاث .

﴿الصفة الأولى﴾ كونه بخساً . قال ابن عباس : يريد حراماً لأن ثمن الحر حرام . وقال كل بخس فى كتاب الله نقصان إلا هذا فانه حرام ، قال الواحدى سموا الحرام بخساً لأنه ناقص البركة ، وقال قتادة : بخس ظلم والظلم نقصان يقال ظلمه أى نقصه . وقال عكرمة والشعبى قليل وقيل : ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً ، وقيل كانت الدراهم زيوفا ناقصة العيار . قال الواحدى رحمه الله تعالى : وعلى الأقوال كلها ، فالبخس مصدر وضع موضع الاسم ، والمعنى بثمن مبخوس .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (دراهم معدودة) قيل تعد عداً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا إذا بلغ أوقية . وهى الأربعون ويعدون مادونها فقيل للقليل معدود ، لأن الكثيرة يمتنع من عدها

وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٢١»

لكثرتها ، وعن ابن عباس كانت عشرين درهما ، وعن السدى اثنين وعشرين درهما . قالوا والاخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئاً .

الصفة الثالثة﴾ قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) ومعنى الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان فى كذا إذا لم يرغب فيه وأصله القلة . يقال : رجل زهيد إذا كان قليل الطمع ، وفيه وجوه : أحدها : أن إخوة يوسف باعوه، لأنهم كانوا فيه من الزاهدين . والثانى : أن السيارة الذين باعوه كانوا فيه من الزاهدين، لأنهم التقطوه والملتقط للشىء متهاون به لايبالى بأى شىء يبيعه. أو لأنهم خافوا أن يظهر المستحق فينزعه من يدهم . فلاجرم باعوه بأوكس الأثمان . والثالث : أن الذين اشتروه كانوا فيه من الزاهدين ، وقد سبق توجيه هذه الأقوال فيما تقدم ، والضمير فى قوله (فيه) يحتمل أن يكون عائدا إلى يوسف عليه السلام ، ويحتمل أن يكون عائدا إلى الثمن البخس والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾

وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه ثبت فى الأخبار أن الذى اشتراه إما من الاخوة أو من الواردين على الماء ذهب به الى مصر وباعه هناك . وقيل إن الذى اشتراه قطفير أو إطفير وهو العزيز الذى كان يلى خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق ، وقد آمن بيوسف ومات فى حياة يوسف عليه السلام فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فابى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة وأقام فى منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الملك والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفى وهو ابن مائة وعشرين سنة . وقيل كان الملك فى أيامه فرعون موسى عاش أربعمائة سنة بدليل قوله تعالى (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف ، وقيل اشتراه

العزيز بعشرين ديناراً . وقيل أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا فى ثمنه حتى بلغ ثمنه ما يساويه فى الوزن من المسك والورق والحرير . فابتاعه قطفير بذلك الثمن ، وقالوا : اسم تلك المرأة زليخا ، وقيل راعيل .

واعلم أن شيئاً من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن . ولم يثبت أيضاً فى خبر صحيح وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات . فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها .

﴿المسألة الثانية﴾ قوله (أكرمى مثواه) أى منزله ومقامه عندك من قولك ثويت بالمكان إذا أقمت به ، ومصدره الثواء والمعنى : اجعلى منزله عندك كريماً حسناً مرضياً بدليل قوله (إنه ربى أحسن مثواى) وقال المحققون أمر العزيز امرأته باكرام مثواه دون إكرام نفسه . يدل على أنه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال والتعظيم وهو كما يقال : سلام الله على المجلس العالى . ولما أمرها باكرام مثواه علل ذلك بأن قال (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أى يقوم باصلاح مهماتنا ، أو نتخذه ولداً . لأنه كان لا يولد له ولد ، وكان حصوراً .

ثم قال تعالى ﴿وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾ أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز ، حتى توصل بذلك الى أن صار متمكناً من الأمر والنهى فى أرض مصر

واعلم أن الكمالات الحقيقية ليست إلا القدرة والعلم وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ذكره بهذين الوصفين . أما تكميله فى صفة القدرة والمكنة فاليه الاشارة بقوله (مكنا ليوسف فى الأرض) وأما تكميله فى صفة العلم . فاليه الاشارة بقوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) وقد تقدم تفسير هذه الكلمة .

واعلم أنا ذكرنا أنه عليه السلام لما ألقى فى الجب قال تعالى (وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) وذلك يدل ظاهرا على أنه تعالى أوحى اليه فى ذلك الوقت . وعندنا الارهاص جائز ، فلا يبعد أن يقال : إن ذلك الوحى اليه فى ذلك الوقت ما كان لأجل بعثته الى الخلق . بل لأجل تقوية قلبه وإزالة الحزن عن صدره . ولأجل أن يستأنس بحضور جبريل عليه السلام . ثم انه تعالى قال ههنا (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) والمراد منه إرساله الى الخلق بتبليغ التكاليف ، ودعوة الخلق الى الدين الحق . ويحتمل أيضاً أن يقال : إن ذلك الوحى الأول كان لأجل الرسالة والنبوة ويحمل قوله (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) على أنه تعالى أوحى اليه بزيادات ودرجات يصير بها كل يوم أعلى حالا مما كان قبله وقال ابن مسعود : أشد الناس فراسة ثلاثة : العزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا ، والمرأة لما رأت موسى . فقالت (يا أبت استأجره)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ «٢٢»

وأبو بكر حين استخلف عمر .

ثم قال تعالى ﴿والله غالب على أمره﴾ وفيه وجهان : الأول . غالب على أمر نفسه لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه ، والثانى : والله غالب على أمر يوسف ، يعنى أن انتظام أموره كان إلهياً ، وما كان بسعيه وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله . واعلم أن من تأمل فى أحوال الدنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقن أن الأمر كله لله ، وأن قضاء الله غالب .

قوله تعالى ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾ فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ وجه النظم أن يقال : بين تعالى أن إخوته لما أساؤا اليه ، ثم إنه صبر على تلك الشدائد والمحن مكنه الله تعالى فى الأرض ، ثم لما بلغ أشده آتاه الله الحكم والعلم ، والمقصود بيان أن جميع ما فاز به من النعم كان كالجزاء على صبره على تلك المحن ، ومن الناس من قال : إن النبوة جزاء على الأعمال الحسنة ، ومنهم من قال : إن من اجتهد وصبر على بلاء الله تعالى وشكر نعماء الله تعالى وجد منصب الرسالة . واحتجوا على صحة قولهم : بأنه تعالى لما ذكر صبر يوسف على تلك المحن ذكر أنه أعطاه النبوة والرسالة .

ثم قال تعالى ﴿وكذلك نجزى المحسنين﴾ وهذا يدل على أن كل من أتى بالطاعات الحسنة التى أتى بها يوسف ، فان الله يعطيه تلك المناصب ، وهذا بعيد لاتفاق العلماء على أن النبوة غير مكتسبة .

واعلم أن من قال : إن يوسف ما كان رسولا ولا نبيا البتة . وإنما كان عبداً أطاع الله تعالى فأحسن الله اليه . وهذا القول باطل بالاجماع . وقال الحسن : إنه كان نبيا من الوقت الذى قال الله تعالى فى حقه (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) وما كان رسولا ، ثم إنه صار رسولا من هذا الوقت أعنى قوله (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) ومنهم من قال : إنه كان رسولا من الوقت الذى ألقى فى غيابة الجب .

﴿المسألة الثانية﴾ قال أبو عبيدة تقول العرب بلغ فلان أشده اذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان وهذا اللفظ يستعمل فى الواحد والجمع يقال بلغ أشده وبلغوا أشدهم ، وقد ذكرنا تفسير الأشد فى سورة الأنعام عند قوله (حتى يبلغ أشده) وأما التفسير فروى ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس ، ولما بلغ أشده قال ثلاثاً وثلاثين سنة : وأقول هذه الرواية شديدة

الانطباق على القوانين الطبية وذلك لأن الأطباء قالوا إن الانسان يحدث فى أول الأمر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا إلى أن ينتهى إلى غاية الكمال . ثم يأخذ فى التراجع والانتقاص إلى أن لا يبقى منه شىء ، فكانت حالته شبيهة بحال القمر، فانه يظهر هلالا ضعيفاً ثم لا يزال يزداد إلى أن يصير بدراً تاماً . ثم يتراجع إلى أن ينتهى إلى العدم والمحاق .

إذا عرفت هذا فنقول : مدة دور القمر ثمانية وعشرون يوماً وكسر فاذا جعلت هذه الدورة أربعة أقسام ، كان كل قسم منها سبعة أيام . فلاجرم رتبوا أحوال الأبدان على الأسابيع فالانسان إذا ولد كان ضعيف الخلقة نحيف التركيب إلى أن يتم له سبع سنين ، ثم إذا دخل فى السبعة الثانية حصل فيه آثار الفهم والذكاء والقوة . ثم لا يزال فى الترقى إلى أن يتم له أربع عشرة سنة . فاذا دخل فى السنة الخامسة عشرة دخل فى الأسبوع الثالث . وهناك يكمل العقل ويبلغ إلى حد التكليف وتتحرك فيه الشهوة ، ثم لا يزال يرتقى على هذه الحالة الى أن يتم السنة الحادية والعشرين ، وهناك يتم الأسبوع الثالث ويدخل فى السنة الثانية والعشرين ، وهذا الأسبوع آخر أسابيع النشو والنماء ، فاذا تمت السنة الثامنة والعشرون فقد تمت مدة النشو والنماء ، وينتقل الانسان منه الى زمان الوقوف وهو الزمان الذى يبلغ الانسان فيه أشده . وبتمام هذا الأسبوع الخامس يحصل للانسان خمسة وثلاثون سنة ، ثم إن هذه المراتب مختلفة فى الزيادة والنقصان : فهذا الأسبوع الخامس الذى هو أسبوع الشدة والكمال يبتدأ من السنة التاسعة والعشرين الى الثالثة والثلاثين ، وقد يمتد الى الخامسة والثلاثين ، فهذا هو الطريق المعقول فى هذا الباب ، والله أعلم بحقائق الأشياء .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى تفسير الحكم والعلم ، وفيه أقوال :

﴿القول الأول﴾ أن الحكم والحكمة أصلهما حبس النفس عن هواها ، ومنعها مما يشينها . فالمراد من الحكم الحكمة العملية ، والمراد من العلم الحكمة النظرية . وإنما قدم الحكمة العملية هنا على العلمية ، لأن أصحاب الرياضات يشتغلون بالحكمة العملية . ثم يترقون منها الى الحكمة النظرية . وأما أصحاب الأفكار العقلية والأنظار الروحانية فانهم يصلون الى الحكمة النظرية أولا ، ثم ينزلون منها الى الحكمة العملية ، وطريقة يوسف عليه السلام هو الأول . لأنه صبر على البلاء والمحنة ففتح الله عليه أبواب المكاشفات ، فلهذا السبب قال (آتيناه حكما وعلما)

﴿القول الثانى﴾ الحكم هو النبوة ، لأن النبي يكون حاكما على الخلق ، والعلم علم الدين .

﴿والقول الثالث﴾ يحتمل أن يكون المراد من الحكم صيرورة نفسه المطمئنة حاكمة على نفسه الأمارة بالسوء مستعلية عليها قاهرة لها ومتى صارت القوة الشهوانية والغضبية مقهورة ضعيفة

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ «٢٣»

فاضت الأنوار القدسية والأضواء الالهية من عالم القدس على جوهر النفس وتحقيق القول فى هذا الباب أن جوهر النفس الناطقة خلقت قابلة للمعارف الكلية والأنوار العقلية ، إلا أنه قد ثبت عندنا بحسب البراهين العقلية وبحسب المكاشفات العلوية أن جواهر الأرواح البشرية مختلفة بالماهيات فمنها ذكية وبليدة . ومنها حرة ونذلة . ومنها شريفة وخسيسة ، ومنها عظيمة الميل إلى عالم الروحانيات وعظيمة الرغبة فى الجسمانيات فهذه الأقسام كثيرة وكل واحد من هذه المقامات قابل للاشد والأضعف والأكمل والأنقص فاذا اتفق أن كان جوهر النفس الناطقة جوهراً مشرقا شريفا شديد الاستعداد لقبول الأضواء العقلية واللوائح الالهية ، فهذه النفس فى حال الصغر لا يظهر منها هذه الأحوال . لأن النفس الناطقة إنما تقوى على أفعالها بواسطة استعمال الآلات الجسدانية وهذه الآلات فى حال الصغر تكون الرطوبات مستولية عليها ، فاذا كبر الانسان واستولت الحرارة الغريزية على البدن نضجت تلك الرطوبات وقلت واعتدلت ، فصارت تلك الآلات البدنية صالحة لأن تستعملها النفس الانسانية وإذا كانت النفس فى أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنية تكمل معارفها وتقوى أنوارها ويعظم لمعان الأضواء فيها . فقوله (ولما بلغ أشده) إشارة إلى اعتدال الآلات البدنية ، وقوله (آتيناه حكما وعلما) إشارة إلى استكمال النفس فى قوتها العملية والنظرية ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن ، فلما رأته المرأة طمعت فيه ويقال : أيضاً إن زوجها كان عاجزاً يقال : راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هى عن نفسه إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع (وغلقت الأبواب) والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا فى المواضع المستورة لاسيما اذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد وقوله (وغلقت الابواب) أى أغلقتها قال الواحدى : وأصل هذا من قولهم فى كل شىء تشبث فى شىء فلزمه قد غلق يقال : غلق فى الباطل وغلق فى غضبه ، ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالألف فيقال : أغلق الباب اذا جعله بحيث يعسر فتحه . قال المفسرون : وإنما جاء غلقت على التكثير لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعته الى نفسها

ثم قال تعالى ﴿وقالت هيت لك﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الواحدى : هيت لك اسم للفعل نحو : رويدا ، وصه ، ومه . ومعناه هلم فى قول جميع أهل اللغة ، وقال الأخفش (هيت لك) مفتوحة الهاء والتاء ، ويجوز أيضاً كسر التاء ورفعها . قال الواحدى : قال أبو الفضل المنذرى : أفادنى ابن التبريزى عن أبى زيد قال : هيت لك بالعبرانية هيالح . أى تعـال عربه القرآن ، وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران سقطت الى بكة فتكلموا بها . قال ابن الانبارى : وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران كما اتفقت لغة العرب والروم فى «القسطاس» ولغة العرب والفرس فى السجيل ولغة العرب والترك فى «الغساق» ولغة العرب والحبشة فى «ناشئة الليل»

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ نافع وابن عامر فى رواية ابن ذكوان (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء ، وقرأ ابن كثير (هيت لك) مثل حيث ، وقرأ هشام بن عمار عن أبى عامر (هئت لك) بكسر الهاء وهمز الياء وضم التاء مثل جئت من تهيأت لك ، والباقون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء ، ثم إنه تعالى قال : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام . قال يوسف عليه السلام (معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى) فقوله (معاذ الله) أى أعوذ بالله معاذاً ، والضمير فى قوله (إنه) للشأن والحديث (ربى أحسن مثواى) أى ربى وسيدى ومالكى أحسن مثواى حين قال لك : أكرمى مثواه ، فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الاحسان بهذه الخيانة القبيحة (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجازون الاحسان بالاساءة ، وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم أو لأن عملهم يقتضى وضع الشيء فى غير موضعه ، وههنا سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أن يوسف عليه السلام كان حراً وما كان عبداً لأحد فقوله (إنه ربى) يكون كذبا وذلك ذنب وكبيرة .

والجواب : أنه عليه السلام أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً له وأيضاً أنه رباه وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة فعنى بكونه ربا له كونه مربيا له ، وهذا من باب المعاريض الحسنة ، فان أهل الظاهر يحملونه على كونه ربا له وهو كان يعنى به أنه كان مربيا له ومنعما عليه .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يدل قول يوسف عليه السلام (معاذ الله) على صحة مذهبنا فى القضاء والقدر

والجواب : أنه يدل عليه دلالة ظاهرة لأن قوله عليه السلام أعوذ بالله معاذاً ، طلب من الله أن يعيذه من ذلك العمل ، وتلك الاعاذة ليست عبارة عن اعطاء القدرة والعقل والآلة ، وازاحة

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ «٢٤»

الاعذار، وازالة الموانع وفعل الالطاف، لأن كل ما كان فى مقدور الله تعالى من هذا الباب فقد فعله، فيكون ذلك إما طلباً لتحصيل الحاصل، أوطلباً لتحصيل الممتنع وأنه محال فعلمنا أن تلك الأعاذة التى طلبها يوسف من الله تعالى لامعنى لها، إلا أن يخلق فيه داعية جازمة فى جانب الطاعة وأن يزيل عن قلبه داعية المعصية، وذلك هو المطلوب، والدليل على أن المراد ماذكرناه مانقل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وقع بصره على زينب قال «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» وكان المراد منه تقوية داعية الطاعة، وإزالة داعية المعصية فكذا ههنا، وكذا قوله عليه السلام «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» فالمراد من الأصبعين داعية الفعل، وداعية الترك وهاتان الداعيتان لايحصلان الا بخلق الله تعالى، والا لافتقرت إلى داعية أخرى ولزم التسلسل فثبت أن قول يوسف عليه السلام (معاذ الله) من أدل الدلائل على قولنا والله أعلم.

﴿السؤال الثالث﴾ ذكر يوسف عليه السلام فى الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء: أحدها: قوله (معاذالله) والثانى: قوله تعالى عنه (انه ربى أحسن مثواى) والثالث: قوله (إنه لا يفلح الظالمون) فما وجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض؟

والجواب: هذا الترتيب فى غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة انعامه وألطافه فى حق العبد فقوله (معاذ الله) اشارة الى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية، فلما كان هذا الرجل قد أنعم فى حقى يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالاساءة، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزى فى الدنيا، وعذاب شديد فى الآخرة، واللذة القليلة اذا لزمها ضرر شديد، فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها فقوله (إنه لايفلح الظالمون) اشارة اليه، فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب.

قوله تعالى ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾

اعلم أن هذه الآية من المهمات التى يجب الاعتناء بالبحث عنها وفى هذه الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ فى انه عليه السلام هل صدر عنه ذنب أم لا ؟ وفى هـذه المسألة قولان :
الأول : أن يوسف عليه السلام هم بالفاحشة . قال الواحدى : فى كتاب البسيط قال المفسرون : الموثوق بعلمهم المرجوع الى روايتهم هم يوسف أيضاً بهـذه المرأة هما صحيحا وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زالت كل شهوة عنه . قال جعفر الصادق رضى الله عنه : باسناده عن على عليه السـلام أنه قال : طمعت فيه وطمع فيها فكان طمعه فيها أنه هم أن يحل التكة ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حل الهميان وجلس منها مجلس الخائن وعنه أيضا أنها استلقت له وجلس بين رجليها ينزع ثيابه ، ثم إن الواحـدى طول فى كلمات عديمـة الفائدة فى هذا الباب . وماذكر آية يحتج بها ولاحديثاً صحيحاً يعول عليـه فى تصحيح هذه المقالة ، وماأمعن النظر فى تلك الكلمات العارية عن الفائدة روى أن يوسف عليه السلام لما قال : ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب قال له جبريل عليه السلام ولاحين هممت يايوسف فقال يوسف عندذلك (وما أبرىء نفسى) ثم قال والذين أثبتوا هذا العمل ليوسف كانوا أعرف بحقوق الأنبياء عليهم السلام وارتفاع منازلهم عند الله تعالى من الذين نفوا الهم عنه ، فهذا خلاصة كلامه فى هذا الباب .

﴿والقول الثانى﴾ أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل ، والهم المحرم . وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين ، وبه نقول وعنه نذب .

واعلم أن الدلائل الدالة على وجوب عصمة الأنبياء عليهم السلام كثيرة ، ولقد استقصيناها فى سورة البقرة فى قصة آدم عليه السلام فلا نعيدها إلا أنانزيد ههنا وجوها :

﴿فالحجة الأولى﴾ أن الزنا من منكرات الـكبائر والخيانة فى معرض الأمانة أيضا من منكرات الذنوب ، وأيضا مقابلة الاحسان العظيم بالاساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضا من منكرات الذنوب ، وأيضا الصبى إذا تربى فى حجر انسان وبقى مكفى المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شبابه وكمال قوته فاقدام هذا الصبى على إيصال أقبح أنواع الاساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال .

إذا ثبت هـذا فنقول : إن هـذه المعصية التى نسبوها الى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الجهات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه ، فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ! المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة . ثم إنه تعالى قال فى غير هذه الواقعة (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ، ولاشك أن المعصية التى نسبوها اليه أعظم أنواع

وأفحش أقسام الفحشاء. فكيف يليق برب العالمين أن يشهد فى عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء مع أنه كان قد أتى بأعظم أنواع السوء والفحشاء. وأيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر، وذلك لأنا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفى هذه المعصية عنه، إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكى عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة. ثم إنه يمدحه ويثنى عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم، فان مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح العظيم والثناء البالغ عقيبه، فان ذلك يستنكر جداً فكذا ههنا والله أعلم. الثالث: أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة، أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها باظهار الندامة والتوبة والتواضع، ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما فى سائر المواضع وحيث لم يوجد شىء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه فى هذه الواقعة ذنب ولا معصية. الرابع: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة. يوسف عليه السلام، وتلك المرأة وزوجها، والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وابليس أقر ببراءته أيضا عن المعصية، واذا كان الأمر كذلك، فحينئذ لم يبق للمسلم توقف فى هذا الباب. أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام (هى راودتنى عن نفسى) وقوله عليه السلام (رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وأيضا قالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك، فهو قوله (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك) وأما الشهود. فقوله تعالى (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) فقد شهد الله تعالى فى هذه الآية على طهارته أربع مرات: أولها: قوله (لنصرف عنه السوء) واللام للتأكيد والمبالغة. والثانى: قوله (والفحشاء) أى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء. والثالث: قوله (إنه من عبادنا) مع أنه تعالى قال (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) والرابع: قوله (المخلصين) وفيه قراءتان: تارة باسم الفاعل وأخرى باسم

المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص . ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته . وعلى كلا الوجهين فانه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه اليه . وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته ، فلأنه قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى (إنه من عبادنا المخلصين) فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى . وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من اتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته ولعلهم يقولون كنا فى أول الأمر تلامذة إبليس إلى أن تخرجنا عليه فزدنا عليه فى السفاهة كما قال الخوارزمى :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

فلو مات قبلى كنت أحسن بعده ... طرائق فسق ليس يحسنها بعدى

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام برىء عما يقوله هؤلاء الجهال .

وإذا عرفت هذا فنقول : الكلام على ظاهر هذه الآية يقع فى مقامين :

﴿المقام الأول﴾ أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها . والدليل عليه : أنه تعالى قال (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) وجواب (لولا) ههنا مقدم ، وهو كما يقال : قد كنت من الهالكين لولا أن فلانا خلصك ، وطعن الزجاج فى هذا الجواب من وجهين : الأول : أن تقديم جواب (لولا) شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح . الثانى : أن (لولا) يجاب جوابها باللام . فلو كان الأمر على ماذكرتم لقال : ولقد همت ولهم بها لولا . وذكر غير الزجاج سؤالا ثالثا وهو أنه لولم يوجد الهم لما كان لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

واعلم أن ماذكره الزجاج بعيد . لأنا نسلم أن تأخير جواب (لولا) حسن جائز ، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب . وكيف ونقل عن سيبويه أنه قال : إنهم يقدمون الأهم فالأهم ، والذى هم بشأنه أعنى فكان الأمر فى جواز التقديم والتأخير مربوطا بشدة الاهتمام . وأما تعيين بعض الألفاظ بالمنع فذلك مما لا يليق بالحكمة . وأيضا ذكر جواب (لولا) باللام جائز . أما هذا لا يدل على أن ذكره بغير اللام لا يجوز . ثم إنا نذكر آية أخرى تدل على فساد قول الزجاج فى هذين السؤالين ، وهو قوله تعالى (إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها)

﴿وأما السؤال الثالث﴾ وهو أنه لولم يوجد الهم لم يبق لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

فنقول : بل فيه أعظم الفوائد ، وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته فى النساء ، وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته عن ذلك العمل ، ثم نقول : إن الذى يدل على أن جواب (لولا) ماذكرناه أن (لولا) تستدعى جوابا ، وهذا المذكور يصلح جواباً له ، فوجب الحكم بكونه جواباً لا يقال إنا نضمر له جوابا ، وترك الجواب كثير فى القرآن ، لأنا نقول : لانزاع أنه كثير فى القرآن ، إلا أن الأصل أن لايكون محذوفا . وأيضاً فالجواب إنما يحسن تركه وحذفه اذا حصل فى اللفظ مايدل على تعينه ، وههنا بتقدير أن يكون الجواب محذوفا فليس فى اللفظ مايدل على تعين ذلك الجواب ، فان ههنا أنواعا من الاضمارات يحسن إضمار كل واحد منها ، وليس إضمار بعضها أولى من إضمار الباقى فظهر الفرق . والله أعلم .

﴿المقام الثانى﴾ فى الكلام على هذه الآية أن نقول : سلمنا أن الهم قد حصل إلا أنا نقول : إن قوله (وهم بها) لايمكن حمله على ظاهره لأن تعليق الهم بذات المرأة محال لأن الهم من جنس القصد والقصد لايتعلق بالذوات الباقية . فثبت أنه لابد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئا آخر يغاير ماذكروه وبيانه من وجوه : الأول : المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح لأن الهم هو القصد ، فوجب أن يحمل فى حق كل أحد على القصد الذى يليق به ، فاللائق بالمرأة القصد الى تحصيل اللذة والتنعم والتمتع واللائق بالرسول المبعوث الى الخلق القصد الى زجر العاصى عن معصيته والى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يقال : هممت بفلان أى بضربه ودفعه

فان قالوا : فعلى هذا التقدير لايبقى لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) فائدة .

قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين : الأول : أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله . فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صونا للنفس عن الهلاك ، والثانى : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به ، فكان يتمزق ثوبه من قدام ، وكان فى علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه ممزقا من خلف لكانت المرأة هى الخائنة ، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى . فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً عنها ، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية .

﴿الوجه الثانى﴾ فى الجواب أن يفسر الهم بالشهوة ، وهذا مستعمل فى اللغة الشائعة . يقول القائل : فيما لايشتهيه مايهمنى هذا . وفيما يشتهيه هذا أهم الأشياء الى ، فسمى الله تعالى شهوة يوسف

عليه السلام هما ، فمعنى الآية : ولقد اشتهته واشتهاها لولا أن رأى برهان ربه لدخل ذلك العمل فى الوجود . الثالث : أن يفسر الهم بحديث النفس . وذلك لأن المرأة الفائقة فى الحسن والجمال اذا تزينت وتهيأت للرجل الشاب القوى فلا بد وأن يقع هناك بين الحكمة والشهوة الطبيعية وبين النفس والعقل مجاذبات ومنازعات . فتارة تقوى داعية الطبيعة والشهوة وتارة تقوى داعية العقل والحكمة . فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية ، ومثال ذلك أن الرجل الصالح الصائم فى الصيف الصائف . اذا رأى الجلاب المبرد بالثلج فان طبيعته تحمله على شربه ، إلا أن دينه وهداه يمنعه منه ، فهذا لا يدل على حصول الذنب . بل كلما كانت هذه الحالة أشد كانت القوة فى القيام بلوازم العبودية أكمل ، فقد ظهر بحمد الله تعالى صحة هذا القول الذى ذهبنا اليه ولم يبق فى يد الواحدى إلا مجرد التصلف وتعديد أسماء المفسرين ، ولو كان قد ذكر فى تقرير ذلك القول شبهة لأجبنا عنها . إلا أنه مازاد على الرواية عن بعض المفسرين .

واعلم أن بعض الحشوية روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «ما كذب ابراهيم عليه السلام الا ثلاث كذبات» فقلت الأولى أن لا نقبل مثل هذه الأخبار فقال على طريق الاستنكار فان لم نقبله لزمنا تكذيب الرواة فقلت له : يامسكين ان قبلناه لزمنا الحكم بتكذيب ابراهيم عليه السلام وان رددناه لزمنا الحكم بتكذيب الرواة ولاشك أن صون ابراهيم عليه السلام عن الكذب أولى من صون طائفة من المجاهيل عن الكذب .

اذا عرفت هذا الأصل فنقول للواحدى : ومن الذى يضمن لنا أن الذين نقلوا هذا القول عن هؤلاء المفسرين كانوا صادقين أم كاذبين . والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ فى أن المراد بذلك البرهان ماهو أما المحققون المثبتون للعصمة فقد فسروا رؤية البرهان بوجوه : الأول : أنه حجة الله تعالى فى تحريم الزنا . والعلم بما على الزانى من العقاب والثانى : أن الله تعالى طهر نفوس الأنبياء عليهم السلام عن الأخلاق الذميمة . بل نقول : انه تعالى طهر نفوس المتصلين به عنها كما قال (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فالمراد برؤية البرهان هو حصول تلك الأخلاق وتذكير الأحوال الرادعة لهم عن الاقدام على المنكرات . والثالث : أنه رأى مكتوباً فى سقف البيت (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) والرابع : أنه النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش . والدليل عليه أن الأنبياء عليهم السلام بعثوا لمنع الخلق عن القبائح والفضائح . فلو أنهم منعوا الناس عنها ، ثم أقدموا على أقبح أنواعها وأفحش أقسامها لدخلوا تحت قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)

وأيضاً أن الله تعالى عير اليهود بقوله (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وما يكون عيباً فى حق اليهود كيف ينسب إلى الرسول المؤيد بالمعجزات .

وأما الذين نسبوا المعصية الى يوسف عليه السلام فقد ذكروا فى تفسير ذلك البرهان أموراً : الأول : قالوا إن المرأة قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب فقال يوسف لم فعلت ذلك ؟ قالت أستحى من إلهى هذا أن يرانى على معصية . فقال يوسف أتستحين من صنم لا يعقل ولا يسمع ولا أستحى من إلهى القائم على كل نفس بما كسبت فوالله لا أفعل ذلك أبداً قالوا : فهذا هو البرهان . الثانى : نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تمثل له يعقوب فرآه عاضاً على أصابعه ويقول له : أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوب فى زمرة الأنبياء فاستحى منه . قال وهو قول عكرمة . ومجاهد . والحسن . وسعيد بن جبير . وقتادة . والضحاك . ومقاتل . وابن سيرين قال سعيد بن جبير : تمثل له يعقوب فضرب فى صدره فخرجت شهوته من أنامله . والثالث : قالوا إنه سمع فى الهواء قائلا يقول يا ابن يعقوب لا تكن كالطير يكون له ريش فاذا زنا ذهب ريشه . والرابع : نقلوا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لم ينزجر برؤية صورة يعقوب حتى ركضه جبريل عليه السلام فلم يبق فيه شىء من الشهوة إلا خرج ، ولما نقل الواحدى هذه الروايات تصلف وقال : هذا الذى ذكرناه قول أئمة التفسير الذين أخذوا التأويل عمن شاهد التنزيل فيقال له : انك لا تأتينا البتة إلا بهذه التصلفات التى لا فائدة فيها فأين هذا من الحجة والدليل ، وأيضا فان ترادف الدلائل على الشىء الواحد جائز ، وأنه عليه الصلاة والسلام كان ممتنعاً عن الزنا بحسب الدلائل الأصلية ، فلما انضاف اليها هذه الزواجر قوى الانزجار وكمل الاحتراز والعجب أنهم نقلوا أن جرواً دخل حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وبقى هناك بغير عمله قالوا : فامتنع جبريل عليه السلام من الدخول عليه أربعين يوماً ، وههنا زعموا أن يوسف عليه السلام حال اشتغاله بالفاحشة ذهب اليه جبريل عليه السلام ، والعجب أنهم زعموا أنه لم يمتنع عن ذلك العمل بسبب حضور جبريل عليه السلام . ولو أن أفسق الخلق وأكفرهم كان مشتغلا بفاحشة فاذا دخل عليه رجل على زى الصالحين استحيا منه وفر وترك ذلك العمل ، وههنا أنه رأى يعقوب عليه السلام عض على أنامله فلم يلتفت اليه ، ثم إن جبريل عليه السلام على جلالة قدره دخل عليه فلم يمتنع أيضا عن ذلك القبيح بسبب حضوره حتى احتاج جبريل عليه السلام إلى أن يركضه على ظهره فنسأل الله أن يصوننا عن الغى فى الدين ، والخذلان فى طلب اليقين فهذا هو الكلام المخلص فى هذه المسألة والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ فى الفرق بين السوء والفحشاء وفيه وجوه : الأول : أن السوء جناية اليد

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَاجَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢٥» قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ «٢٦» وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٢٧» فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ «٢٨» يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ «٢٩»

والفحشاء هو الزنا . الثانى : السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة . والفحشاء هو الزنا . أما قوله (إنه من عبادنا المخلصين) أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ومن فتح اللام أراد الذين خلصهم الله من الأسواء ، ويحتمل أن يكون المراد أنه من ذرية إبراهيم عليه السلام الذين قال الله فيهم (إنا أخلصناهم بخالصة)

﴿المسألة الرابعة﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو (المخلصين) بكسر اللام فى جميع القرآن والباقون بفتح اللام .

قوله تعالى ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوأ إلا أن يسجن أو عذاب أليم قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهى من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنها أنها (همت) أتبعه بكيفية طلبها وهربه فقال (واستبقا الباب) والمراد أنه هرب منها وحاول الخروج من الباب وعدت المرأة خلفه لتجذبه إلى نفسها ، والاستباق طلب السبق إلى الشىء ، ومعناه تبادر إلى الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فان سبق يوسف فتح

الباب وخرج ، وإن سبقت المرأة أمسكت الباب لئلا يخرج ، وقوله (واستبقا الباب) أى استبقا الى الباب كقوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا) أى من قومه .

واعلم أن يوسف عليه السلام سبقها إلى الباب وأراد الخروج والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فقدته ، أى قطعته طولا ، وفى ذلك الوقت حضر زوجها وهو المراد من قوله (والفيا سيدها لدى الباب) أى صادفا بعلها تقول المرأة لبعلها سيدى ، وانما لم يقل سيدهما لأن يوسف عليه السلام ماكان مملوكا لذلك الرجل فى الحقيقة ، فعند ذلك خافت المرأة من التهمة فبادرت إلى أن رمت يوسف بالفعل القبيح . وقالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، والمعنى ظاهر . وفى الآية لطائف : إحداها : أن «ما» يحتمل أن تكون نافية ، أى ليس جزاؤه إلا السجن ، ويجوز أيضا أن تكون استفهامية يعنى أى شىء جزاؤه إلا أن يسجن كما تقول : من فى الدار إلا زيد . وثانيها : أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع وذلك لأنها بدأت بذكر السجن . وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لايسعى فى إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضاً قالت (إلا أن يسجن) والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف .

فأما الحبس الدائم فانه لايعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين ألا ترى أن فرعون هكذا قال حين تهدد موسى عليه السلام فى قوله (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) وثالثها : أنها لما شاهدت من يوسف عليه السلام أنه استعصم منها أنه كان فى عنفوان العمر وكمال القوة ونهاية الشهوة ، عظم اعتقادها فى طهارته ونزاهته فاستحيت أن تقول إن يوسف عليه السلام قصدنى بالسوء ، وما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب على سبيل التصريح بل اكتفت بهذا التعريض ، فانظر إلى تلك المرأة ما وجدت من نفسها أن ترميه بهذا الكذب وأن هؤلاء الحشوية يرمونه بعد قريب من أربعة آلاف سنة بهذا الذنب القبيح . ورابعها : أن يوسف عليه السلام أراد يضربها ويدفعها عن نفسه ، وكان ذلك بالنسبة إليها جاريا مجرى السوء فقولها : ماجزاء من أراد بأهلك سوأ ، جارياً مجرى التعريض فلعها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفعها ومنعها . وفى ظاهر الأمر كانت توهم أنه قصدنى بما لاينبغى .

واعلم أن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ولطخت عرض يوسف عليه السلام احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال : هى راودتنى عن نفسى ، وأن يوسف عليه السلام ماهتك سترها فى أول الأمر إلا أنه لما خاف على النفس وعلى العرض أظهر الأمر .

واعلم أن العلامات الكثيرة كانت دالة على أن يوسف عليه السلام هو الصادق : فالأول : أن يوسف عليه السلام فى ظاهر الأمر كان عبداً لهم والعبد لا يمكنه أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد والثانى : أنهم شاهدوا أن يوسف عليه السلام كان يعدو عدواً شديدا ليخرج والرجل الطالب للمرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه ، والثالث : أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه. وأما يوسف عليه السلام فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق هذه الفتنة بالمرأة أولى ، الرابع : أنهم كانوا قد شاهدوا أحوال يوسف عليه السلام فى المدة الطويلة فما رأوا عليه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر ، وذلك أيضا مما يقوى الظن ، الخامس : أن المرأة مانسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاما مجملا مبهما . وأما يوسف عليه السلام فانه صرح بالأمر ولو أنه كان متهماً لما قدر على التصريح باللفظ الصريح فان الخائن خائف : السادس : قيل : إن زوج المرأة كان عاجزا وآثار طلب الشهوة فى حق المرأة كانت متكاملة فالحاق هذه الفتنة بها أولى . فلما حصلت هذه الأمارات الكثيرة الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كان من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف صادق والمرأة كاذبة ، ثم إنه تعالى أظهر ليوسف عليه السلام دليلا آخر يقوى تلك الدلائل المذكورة ويدل على أنه برىء عن الذنب وأن المرأة هى المذنبة ، وهو قوله (وشهد شاهد من أهلها) وفى هذا الشاهد ثلاثة أقوال : الأول : أنه كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما . واتفق فى ذلك الوقت أنه كان مع الملك يريد أن يدخل عليها فقال قد سمعنا الجلبة من وراء الباب وشق القميص إلا أنا لا ندرى أيكما قدام صاحبه ، فان كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة والرجل كاذب . وإن كان من خلفه فالرجل صادق وأنت كاذبة فلما نظروا إلى القميص ورأوا الشق من خلفه ، قال ابن عمها (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى من عملكن . ثم قال ليوسف أعرض عن هذا واكتمه ، وقال لها استغفرى لذنبك ، وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين . والثانى : وهو أيضا منقول عن ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك : ان ذلك الشاهد كان صبياً أنطقه الله تعالى فى المهد ، فقال ابن عباس : تكلم فى المهد أربعة صغار شاهد يوسف ، وابن ماشطة بنت فرعون ، وعيسى بن مريم ، وصاحب جريج الراهب الراهب قال الجبائى : والقول الأول أولى لوجوه : الأول : أنه تعالى لو أنطق الطفل بهذا الكلام لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافياً وبرهانا قاطعاً ، لأنه من البراهين القاطعة القاهرة ، والاستدلال بتمزيق القميص من قبل ومن دبر دليل ظنى ضعيف والعدول عن الحجة القاطعة حال حضورها وحصولها إلى الدلالة الظنية لا يجوز . الثانى : أنه تعالى قال (وشهد شاهد من أهلها) وإنما قال من أهلها

ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة لأن الظاهر من حال من يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها أن لا يقصدها بالسوء والاضرار ، فالمقصود بذكر كون ذلك الرجل من أهلها تقوية قول ذلك الرجل وهذه الترجيحات إنما يصار اليها عند كون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادرا عن الصبى الذى فى المهد لكان قوله حجة قاطعة . ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين أن لا يكون من أهلها وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر . والثالث : أن لفظ الشاهد لا يقع فى العرف الا على من تقدمت له معرفة بالواقعة وأحاطة بها .

﴿والقول الثالث﴾ أن ذلك الشاهد هو القميص ، قال مجاهد : الشاهد كون قميصه مشقوقا من دبر ، وهذا فى غاية الضعف لأن القميص لا يوصف بهذا ولا ينسب إلى الأهل . واعلم أن القول الأول عليه أيضا إشكال وذلك لأن العلامة المذكورة لا تدل قطعا على براءة يوسف عليه السلام عن المعصية لأن من المحتمل أن الرجل قصد المرأة لطلب الزنا فالمرأة غضبت عليه فهرب الرجل فعدت المرأة خلف الرجل وجذبته لقصد أن تضربه ضربا وجيعاً فعلى هذا الوجه يكون القميص متخرقا من دبر مع أن المرأة تكون برية عن الذنب والرجل يكون مذنباً.

وجوابه : أنا بينا أن علامات كذب المرأة كانت كثيرة بالغة مبلغ اليقين فضموا إليها هذه العلامة الأخرى لا لأجل أن يعولوا فى الحكم عليها ، بل لأجل أن يكون ذلك جاريا مجرى المقويات والمرجحات

ثم إنه تعالى أخبر وقال : (فلما رأى قميصه) وذلك يحتمل السيد الذى هو زوجها ويحتمل الشاهد فلذلك اختلفوا فيه ، قال (إنه من كيدكن) أى إن قولك ماجزاء من أراد بأهلك سوءا من كيدكن إن كيدكن عظيم .

فان قيل : إنه تعالى لما خلق الانسان ضعيفا فكيف وصف كيد المرأة بالعظم . وأيضا فكيد الرجال قد يزيد على كيد النساء .

والجواب عن الأول : أن خلقة الانسان بالنسبة الى خلقة الملائكة والسموات والكواكب خلقة ضعيفة وكيد النسوات بالنسبة إلى كيد البشر عظيم ولا منافاة بين القولين وأيضا فالنساء لهن فى هذا الباب من المكر والحيل مالا يكون للرجال ولأن كيدهن فى هذا الباب يورث من العار مالا يورثه كيد الرجال .

واعلم أنه لما ظهر للقوم براءة يوسف عليه السلام عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى عنه أنه قال (يوسف أعرض عن هذا) فقيل : إن هذا من قول العزيز ، وقيل : إنه من قول الشاهد . ومعناه : أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ولا يحصل العار العظيم بسببها ، وكما أمر يوسف بكتمان هذه الواقعة أمر المرأة بالاستغفار فقال (واستغفرى لذنبك) وظاهر ذلك طلب المغفرة ،

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ «٣٠» فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ «٣١»

ويحتمل أن يكون المراد من الزوج ويكون معنى المغفرة العفو والصفح . وعلى هذا التقدير فالأقرب أن قائل هذا القول هو الشاهد ، ويحتمل أن يكون المراد بالاستغفار من الله ، لأن أولئك الأقوام كانوا يثبتون الصانع ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يعبدون الأوثان بدليل أن يوسف عليه السلام قال (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وعلى هذا التقدير : فيجوز أن يكون القائل هو الزوج . وقوله (إنك كنت من الخاطئين) نسبة لها الى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم ، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف فى أول الأمر أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف منها إقدامها على ما لا ينبغى . وقال أبو بكر الأصم : إن ذلك لزوج كان قليل الغيرة فا كتفى منها بالاستغفار . قال صاحب الكشاف : وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير ، تغليباً للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يقال : المراد إنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنرها فى ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾

وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لم لم يقل (وقالت نسوة) قلنا لوجهين : الأول : أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ، الثانى : قال الواحدى تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع .

﴿المسألة الثانية﴾ قال الكلبي : هن أربع ، امرأة ساقي العزيز . وامرأة خبازه . وامرأة صاحب سجنه . وامرأة صاحب دوابه ، وزاد مقاتل وامرأة الحاجب . والاشبه أن تلك الواقعة شاعت في البلد واشتهرت وتحدث بها النساء . وامرأة العزيز هي هذه المرأة المعلومة (تراود فتاها عن نفسه) الفتى الحدث الشاب والفتاة الجارية الشابة (قد شغفها حباً) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ أن الشغاف فيه وجوه : الأول : أن الشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب يقال شغفت فلاناً إذا أصبت شغافه كما تقول كبدته أي أصبت كبده فقوله (شغفها حباً) أي دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب . والثاني : أن حبه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب ، ومعنى إحاطة ذلك الحب بقلبها هو أن اشتغالها بحبه صار حجاباً بينها وبين كل ما سوى هذه المحبة فلا تعقل سواه ولا يخطر ببالها إلا إياه . والثالث : قال الزجاج : الشغاف حبة القلب وسويداء القلب . والمعنى : أنه وصل حبه الى سويداء قلبها ، وبالجملة فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم .

﴿المسألة الثانية﴾ قرأ جماعة من الصحابة والتابعين (شعفها) بالعين . قال ابن السكيت : يقال شعفه الهوى اذا بلغ الحد الاحتراق ، وشعف الهناء البعير اذا بلغ منه الألم الى حد الاحتراق ، وكشف أبو عبيدة عن هذا المعنى فقال : الشعف بالعين إحراق الحب القلب مع لذة يجدها ، كما أن البعير اذا هنئ بالقطران يبلغ منه مثل ذلك ثم يستروح اليه . وقال ابن الأنباري : الشعف رؤس الجبال ، ومعنى شعف بفلان اذا ارتفع حبه الى أعلى المواضع من قلبه .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (حبها) نصب على التمييز ،

ثم قال ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ أي في ضلال عن طريق الرشد بسبب حبها اياه كقوله (إن أبانا لفي ضلال مبين)

ثم قال تعالى ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا﴾ وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ المراد من قوله (فلما سمعت بمكرهن) أنها سمعت قولهن وانما سمى قولهن مكراً لوجوه : الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر الى وجهه . لأنهن عرفن أنهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهد عذرها عندهن . الثاني : أن امرأة العزيز أسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك غدرا ومكرا . الثالث : أنهن وقعن في غيبتها ، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر .

﴿المسألة الثانية﴾ أنها لما سمعت أنهن يلمنها على تلك المحبة المفرطة أرادت إبداء عذرها فاتخذت مائدة ودعت جماعة من أكابرهن وأعتدت لهن متكأ ، وفي تفسيره وجوه : الأول : المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه . الثاني أن المتكأ هو الطعام . قال العتبي والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة تسمى الطعام متكأ على الاستعارة . والثالث : متكأ أترجا ، وهو قول وهب وأنكر أبو عبيد ذلك ولكنه محمول على أنها وضعت عندهن أنواع الفاكهة في ذلك المجلس . والرابع : متكأ طعاماً يحتاج إلى أن يقطع بالسكين . لأن الطعام متى كان كذلك احتاج الانسان إلى أن يتكأ عليه عند القطع . ثم نقول : حاصل ذلك أنها دعت أولئك النسوة وأعدت لكل واحدة منهن مجلساً معيناً وآتت كل واحدة منهن سكيناً أي لأجل أكل الفاكهة أو لأجل قطع اللحم ثم إنها أمرت يوسف عليه السلام بأن يخرج إليهن ويعبر عليهن وأنه عليه السلام ماقدر على مخالفتها خوفاً منها (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) وههنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في (أكبرنه) قولان : الأول : أعظمنه . والثاني (أكبرن) بمعنى حضن . قال الأزهري والهاء للسكت يقال أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر وفيه وجه آخر ، وهو أن المرأة إذا خافت وفزعت فربما أسقطت ولدها فحاضت ، فإن صح تفسير الاكبار بالحيض فالسبب فيه ما ذكرناه وقوله (فقطعن أيديهن) كناية عن دهشتهن وحيرتهن ، والسبب في حسن هذه الكناية أنها لما دهشت فكانت تظن أنها تقطع الفاكهة وكانت تقطع يد نفسها ، أو يقال : إنها لما دهشت صارت بحيث لاتميز نصابها من حديدها وكانت تأخذ الجانب الحاد من ذلك السكين بكفها فكان يحصل الجراحة في كفها .

﴿المسألة الثالثة﴾ اتفق الأكثرون على أنهن انما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل قيل : كان فضل يوسف على الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مررت بيوسف عليه السلام ليلة عرج بي الى السماء فقلت لجبريل عليه السلام من هذا ؟ فقال هذا يوسف فقيل يارسول الله كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر» وقيل : كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من السماء عليها ، وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه ، وهذا القول هو الذي اتفقوا عليه . وعندي أنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة ، وآثار الخضوع والاحتشام ، وشاهدن منه مهابة النبوة ، وهيئة الملكية وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح ، وعدم الاعتداد بهن ، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك

الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه ، ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن ، وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى .

فان قيل : فاذا كان الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها (فذلكن الذى لمتننى فيه) وكيف تصير هذه الحالة عذراً لها فى قوة العشق وافراط المحبة ؟

قلنا : قد تقرر أن الممنوع متبوع فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول اليه فلهذا السبب وقعت فى المحبة ، والحسرة ، والأرق والقلق ، وهذا الوجه فى تأويل الآية أحسن والله أعلم

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ أبو عمرو (وقلن حاشا لله) باثبات الألف بعد الشين وهى رواية الاصمعى عن نافع وهى الأصل لأنها من المحاشاة وهى التنحية والتبعيد ، والباقون بحذف الألف للتخفيف وكثرة دورها على الألسن اتباعاً للمصحف «وحاشا» كلمة يفيد معنى التنزيه ، والمعنى ههنا تنزيه الله تعالى من المعجز حيث قدر على خلق جميل مثله . وأما قوله (حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله (ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) فيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ وهو المشهور أن المقصود منه اثبات الحسن العظيم له قالوا : لأنه تعالى ركز فى الطباع أن لاحى أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لاحى أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى فى صفة جهنم (طلعها كأنه رؤس الشياطين) وذلك لما ذكرنا أنه تقرر فى الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر فى الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة المبالغة فى وصف يوسف عليه السلام بالحسن لاجرم شبهنه بالملك .

﴿والوجه الثانى﴾ وهو الأقرب عندى أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة ، وجواذب الغضب ، ونوازع الوهم والخيال فطعامهم توحيد الله تعالى وشرابهم الثناء على الله تعالى ، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن البتة ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة ، وسيما الطهارة قلن انا مارأينا فيه أثرا من أثر الشهوة ، ولا شيئا من البشرية ، ولا صفة من الانسانية ، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروزة فى البشر ، وقد ترقى عن حد الانسانية ودخل فى الملكية .

فان قالوا : فان كان المراد ماذكرتم فكيف يتمهد عذر تلك المرأة عند النسوة ؟ فالجواب قد سبق . والله أعلم .

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ «٣٢»

﴿المسألة الخامسة﴾ القائلون بأن الملك أفضل من البشر . احتجوا بهذه الآية فقالوا : لاشك أنهن إنما ذكرت هذا الكلام فى معرض تعظيم يوسف عليه السلام . فوجب أن يكون إخراجه من البشرية وإدخاله فى الملكية سبباً لتعظيم شأنه وإعلاء مرتبته ، وإنمايكون الأمر كذلك لوكان الملك أعلى حالا من البشر . ثم نقول : لايخلو إما أن يكون المقصود بيان كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الظاهر ، أو كمال حاله فى الحسن الذى هو الخلق الباطن ، والأول باطل لوجهين : الأول : أنهم وصفوه بكونه كريما ، وإنما يكون كريما بسبب الأخلاق الباطنة لا بسبب الخلقة الظاهرة ، والثانى : أنا نعلم بالضرورة أن وجه الانسان لايشبه وجوه الملائكة البتة . أما كونه بعيداً عن الشهوة والغضب معرضا عن اللذات الجسمانية متوجها الى عبودية الله تعالى مستغرق القلب ، والروح فيه فهو أمر مشترك فيه بين الانسان الكامل وبين الملائكة .

واذا ثبت هذا فنقول : تشبيه الانسان بالملك فى الأمر الذى حصلت المشابهة فيه على سبيل الحقيقة أولى من تشبيهه بالملك فيما لم تحصل المشابهة فيه البتة ، فثبت أن تشبيه يوسف عليه السلام بالملك فى هذه الآية . انما وقع فى الخلق الباطن ، لا فى الصورة الظاهرة ، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الملك أعلى حالا من الانسان فى هذه الفضائل ، فثبت أن الملك أفضل من البشر والله أعلم .

﴿المسألة السادسة﴾ لغة أهل الحجاز اعمال «ما» عمل ليس وبها ورد قوله (ماهذا بشرا) ومنها قوله (ماهن أمهاتهم) ومن قرأ على لغة بنى تميم . قرأ (ماهذا بشر) وهى قراءة ابن مسعود وقرىء (ماهذا بشرًى) أى ماهو بعبد مملوك للبشر (إن هذا إلا ملك كريم) ثم نقول : ماهذا بشراً ، أى حاصل بشراً بمعنى هذا مشترى ، وتقول : هذا لك بشراً أم بكراً . والقراءة المعتبرة هى الأولى لموافقتها المصحف ، ولمقابلة البشر للملك .

قوله تعالى ﴿قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾

اعلم أن النسوة لما قلن فى امرأة العزيز قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين . عظم ذلك

قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٣٣» فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣٤»

عليها بجمعتهن (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) فعند ذلك ذكرت أنهن باللوم أحق لأنهن بنظرة واحدة لحقهن أعظم مما نالها مع أنه طال مكثه عندها .

فان قيل : فلم قالت (فذلكن) مع أن يوسف عليه السلام كان حاضرا ؟

والجواب عنه من وجوه : الأول : قال ابن الأنبارى : أشارت بصيغة ذلكن إلى يوسف بعد انصرافه من المجلس . والثانى : وهو الذى ذكره صاحب الكشاف وهو أحسن ماقيل : إن النسوة كن يقلن إنها عشقت عبدها الكنعانى ، فلما رأينه ووقعن فى تلك الدهشة قالت : هذا الذى رأيتموه هو ذلك العبد الكنعانى الذى لمتننى فيه يعنى : أنكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت فى خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة .

واعلم أنها لما أظهرت عذرها عند النسوة فى شدة محبتها له كشفت عن حقيقة الحال فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

واعلم أن هذا تصريح بأنه عليه السلام كان بريئاً عن تلك التهمة ، وعن السدى أنه قال (فاستعصم) بعد حل السراويل . وما الذى يحمله على إلحاق هذه الزيادة الفاسدة الباطلة بنص الكتاب .

ثم قال ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ والمراد أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع فى السجن وفى الصغار . ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم فى حق من كان رفيع النفس عظيم الخطر مثل يوسف عليه السلام ، وقوله (وليكونا) كان حمزة والكسائى يقفان على (وليكونا) بالألف ، وكذلك قوله (لنسفعاً) والله أعلم .

قوله تعالى ﴿قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم﴾

واعلم أن المرأة لما قالت (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وسائر النسوة سمعن هذا التهديد فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف عليه السلام وقلن لا مصلحة لك فى مخالفة أمرها

وإلا وقعت في السجن وفى الصغار . فعند ذلك اجتمع فى حق يوسف عليه السلام أنواع من الوسوسة : أحدها : أن زليخا كانت فى غاية الحسن . والثانى : أنها كانت ذات مال وثروة ، وكانت على عزم أن تبذل الكل ليوسف بتقدير أن يساعدها على مطلوبها . والثالث : أن النسوة اجتمعن عليه وكل واحدة منهن كانت ترغبه وتخوفه بطريق آخر ، ومكر النساء فى هذا الباب شديد . والرابع : أنه عليه السلام كان خائفا من شرها وإقدامها على قتله وإهلاكه فاجتمع فى حق يوسف جميع جهات الترغيب على موافقتها وجميع جهات التخويف على مخالفتها . فخاف عليه السلام أن تؤثر هذه الأسباب القوية الكثيرة فيه .

واعلم أن القوة البشرية والطاقة الانسانية لا تفى بحصول هذه العصمة القوية . فعند هذا التجأ الى الله تعالى وقال (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى اليه) وقرىء (السجن) بالفتح على المصدر وفيه سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ السجن فى غاية المكروهية ، وما دعونه اليه فى غاية المطلوبية ، فكيف قال : المشقة أحب الى من اللذة :

والجواب : أن تلك اللذة كانت تستعقب آلاما عظيمة ، وهى الذم فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وذلك المكروه وهو اختيار السجن ، كان يستعقب سعادات عظيمة ، وهى المدح فى الدنيا والثواب الدائم فى الآخرة ، فلهذا السبب قال (السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه)

﴿السؤال الثانى﴾ أن حبسهم له معصية كما أن الزنا معصية ، فكيف يجوز أن يحب السجن مع أنه معصية .

والجواب : تقدير الكلام أنه اذا كان لا بد من التزام أحد الأمرين أعنى الزنا والسجن ، فهذا أولى ، لأنه متى وجب التزام أحد شيئين كل واحد منهما شر فأخفهما أولاهما بالتحمل .

ثم قال ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ أصب إليهن أمل إليهن يقال : صبا الى اللهو يصبو صبواً اذا مال . واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الانسان لا ينصرف عن المعصية إلا إذا صرفه الله تعالى عنها قالوا : لأن هذه الآية تدل على أنه تعالى إن لم يصرفه عن ذلك القبيح وقع فيه وتقريره : أن القدرة والداعى إلى الفعل والترك إن استويا امتنع الفعل ، لأن الفعل رجحان لأحد الطرفين ومرجوحية للطرف الآخر وحصولهما حال استواء الطرفين جمع بين النقيضين وهو محال ، وإن حصل الرجحان فى أحد الطرفين فذلك الرجحان ليس من العبد . وإلا لذهبت المراتب إلى غير النهاية . بل هو من الله تعالى فالصرف عبارة عن جعله مرجوحاً لأنه متى

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ «٣٥» وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «٣٦»

صار مرجوحا صار ممتنع الوقوع لأن الوقوع رجحان ، فلو وقع حال المرجوحية لحصل الرجحان حال حصول المرجوحية ، وهو يقتضى حصول الجمع بين النقيضين وهو محال ، فثبت بهذا أن انصراف العبد عن القبيح ليس إلا من الله تعالى . ويمكن تقرير هذا الكلام من وجه آخر ، وهو أنه كان قد حصل فى حق يوسف عليه السلام جميع الأسباب المرغبة فى تلك المعصية . وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل فى الأعراض عنها جميع الأسباب المنفرة . ومتى كان الأمر كذلك ، فقد قويت الدواعى فى الفعل وضعفت الدواعى فى الترك ، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث فى قلبه أنواعا من الدواعى المعارضة النافية لدواعى المعصية . إذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع فى المعصية خالياً عما يعارضه ، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله (أصب إليهن وأكن من الجاهلين)

قوله تعالى ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾

وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن زوج المرأة لما ظهر له براءة ساحة يوسف عليه السلام فلا جرم لم يتعرض له ، فاحتالت المرأة بعد ذلك بجميع الحيل حتى تحمل يوسف عليه السلام على موافقتها على مرادها ، فلم يلتفت يوسف اليها ، فلما أيست منه احتالت فى طريق آخر وقالت لزوجها : إن هذا العبد العبرانى فضحنى فى الناس يقول لهم : إنى راودته عن نفسه ، وأنا لا أقدر على إظهار عذرى ، فاما أن تأذن لى فأخرج واعتذر وإما أن تحبسه كما حبستنى ، فعند ذلك وقع فى قلب العزيز أن الأصلح حبسه حتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقل الفضيحة ، فهذا هو المراد من قوله (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) لأن البداء عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه

فى الأول ، والمراد من الآيات براءته بقد القميص من دبر ، وخمش الوجه . وإلزام الحكم إياها قوله (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) وذكرنا أنه ظهرت هناك أنواع أخر من الآيات بلغت مبلغ القطع ولكن القوم سكتوا عنها سعياً فى إخفاء الفضيحة .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (بدالهم) فعل وفاعله فى هذا الموضع قوله (ليسجننه) وظاهر هذا الكلام يقتضى إسناد الفعل الى فعل اخر ، إلا أن النحويين اتفقوا على أن إسناد الفعل الى الفعل لايجوز . فاذا قلت خرج ضرب لم يفد البتة ، فعند هذا قالوا : تقدير الكلام ثم بدا لهم سجنه . إلا أنه أقيم هذا الفعل مقام ذلك الاسم ، وأقول : الذوق يشهد بان جعل الفعل مخبر عنه لايجوز وليس لأحد أن يقول الفعل خبرا فجعل الخبر مخبرا عنه لايجوز . لأنا نقول : الاسم قد يكون خبرا كقولك : زيد قائم فقائم اسم وخبر فعلمنا أن كون الشيء خبراً لاينافى كونه مخبراً عنه ، بل نقول فى هذا المقام : شكوك أحدها : أنا إذا قلنا : ضرب فعل فالمخبر عنه بأنه فعل هو ضرب . فالفعل صار مخبرا عنه .

فان قالوا : المخبر عنه هو هذه الصيغة وهى اسم فنقول : فعلى هذا التقدير يلزم أن يكون المخبر عنه بأنه فعل اسم لافعل وذلك كذب وباطل . بل نقول المخبر عنه بأنه فعل ان كان فعلا فقد ثبت أن الفعل يصح الإخبار عنه وان كان اسما كان معناه : انا أخبرنا عن الاسم بأنه فعل ومعلوم أنه باطل . وفى هذا الباب مباحث عميقة ذكرناها فى كتب المعقولات .

﴿المسألة الثالثة﴾ قال أهل اللغة : الحين وقت من الزمان غير محدود يقع على القصير منه ، وعلى الطويل ، وقال ابن عباس : يريد الى انقطاع المقالة . وما شاع فى المدينة من الفاحشة ، ثم قيل : الحين ههنا خمس سنين ، وقيل : بل سبع سنين ، وقال مقاتل بن سليمان : حبس يوسف اثنتى عشر سنة ، والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة ، وإنما القدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى (وادكر بعد أمة)

أما قوله تعالى ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ فههنا محذوف ، والتقدير : لما أرادوا حبسه حبسوه وحذف ذلك لدلالة قوله (ودخل معه السجن فتيان) عليه قيل : هما غلامان كانا للملك الأكبر بمصر أحدهما صاحب طعامه ، والآخر صاحب شرابه رفع إليه أن صاحب طعامه يريد أن يسمه وظن أن الآخر يساعده عليه فأمر بحبسهما بقى فى الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ كيف عرفا أنه عليه السلام عالم بالتعبير؟

والجواب : لعله عليه السلام سألهما عن حزنهما وغمهما فذكرا إنا رأينا فى المنام هذه الرؤيا ، ويحتمل أنهما رأياه وقد أظهر معرفته بأمور منها تعبير الرؤيا فعندما ذكرا له ذلك .

﴿السؤال الثانى﴾ كيف عرف أنهما كانا عبدين للملك :

الجواب : لقوله (فيسقى ربه خمرا) أى مولاه ولقوله (اذكرنى عند ربك)

﴿السؤال الثالث﴾ كيف عرف أن أحدهما صاحب شراب الملك ، والآخر صاحب طعامه ؟

والجواب : رؤيا كل واحد منهما تناسب حرفته لأن أحدهما رأى أنه يعصر الخمر والآخر كأنه يحمل فوق رأسه خبزاً .

﴿السؤال الرابع﴾ كيف وقعت رؤية المنام ؟

والجواب : فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ أن يوسف عليه السلام لما دخل السجن قال لأهله إنى أعبر الأحلام فقال أحد الفتيين ، هلم فلنختبر هذا العبد العبرانى برؤيا نخترعها له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً . قال ابن مسعود : ماكانا رأيا شيئا وإنما تحالما ليختبرا علمه .

﴿والقول الثانى﴾ قال مجاهد كانا قد رأيا حين دخلا السجن رؤيا فأتيا يوسف عليه السلام فسألاه عنها ، فقال الساقى أيها العالم إنى رأيت كأنى فى بستان فاذا بأصل عنبة حسنة فيها ثلاثة أغصان عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وكأن كأس الملك بيدى فعصرتها فيه وسقيتها الملك فشربه فذلك قوله (إنى أرانى أعصر خمرا) وقال صاحب الطعام إنى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها خبز وألوان وأطعمة وإذا سباع الطير تنهش منه فذلك قوله تعالى (وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه)

﴿السؤال الخامس﴾ كيف عرف يوسف عليه السلام أن المراد من قوله (إنى أرانى أعصر خمراً) رؤيا المنام ؟

الجواب : لوجوه : الأول : أنه لو لم يقصد النوم كان ذكر قوله (أعصر) يغنيه عن ذكر قوله (أرانى) والثانى : دل عليه قوله (نبئنا بتأويله)

﴿السؤال السادس﴾ كيف يعقل عصر الخمر ؟

الجواب : فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن يكون المعنى أعصر عنب خمر ، أى العنب الذى يكون عصيره خمرا فحذف المضاف . الثانى : أن العرب تسمى الشىء بأسم مايؤول اليه إذا انكشف المعنى ولم يلتبس يقولون فلان يطبخ دبسا وهو يطبخ عصيراً . والثالث : قال أبو صالح : أهل عمان يسمون العنب بالخمر فوقعت هذه اللفظة إلى أهل مكة فنطقوا بها قال الضحاك : نزل القرآن بألسنة جميع العرب .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ «٢٧» وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِن

﴿السؤال السابع﴾ مامعنى التأويل فى قوله (نبئنا بتأويله)

الجواب : تأويل الشىء مايرجع إليه وهو الذى يؤل إليه آخر ذلك الأمر .

﴿السؤال الثامن﴾ ماالمراد من قوله (إنا نراك من المحسنين)

الجواب من وجوه : الأول : معناه انا نراك تؤثر الاحسان وتأتى بمكارم الأخلاق وجميع الافعال الحميدة . قيل : إنه كان يعود مرضاهم ، ويؤنس حزينهم فقالوا إنك من المحسنين . أى فى حق الشركاء والأصحاب . وقيل : إنه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة فقالوا انك من المحسنين فى أمر الدين ، ومن كان كذلك فانه يوثق بما يقوله فى تعبير الرؤيا ، وفى سائر الأمور . وقيل : المراد (إنا نراك من المحسنين) فى علم التعبير ، وذلك لأنه متى عبر لم يخط كما قال (وعلمتنى من تأويل الأحاديث)

﴿السؤال التاسع﴾ ماحقيقة علم التعبير ؟

الجواب : القرآن والبرهان يدلان على صحته . أما القرآن فهو هذه الآية . وأما البرهان فهو أنه قد ثبت أنه سبحانه خلق جوهر النفس الناطقة بحيث يمكنها الصعود إلى عالم الأفلاك . ومطالعة اللوح المحفوظ والمانع لها من ذلك اشتغالها بتدبير البدن وفى وقت النوم يقل هذا التشاغل فتقوى على هذه المطالعة فاذا وقعت الروح على حالة من الأحوال تركت آثاراً مخصوصة مناسبة لذلك الادراك الروحانى إلى عالم الخيال فالمعبر يستدل بتلك الآثار الخيالية على تلك الادراكات العقلية فهذا كلام مجمل . وتفصيله مذكور فى الكتب العقلية . والشريعة مؤكدة له روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «الرؤيا ثلاثة : رؤيا مايحدث به الرجل نفسه . ورؤيا تحدث من الشيطان ورؤيا التى هى الرؤيا الصادقة حقة» وهذا تقسيم صحيح فى العلوم العقلية وقال عليه السلام «رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة»

قوله عز وجل ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق

شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾

وفى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن المذكور فى هذه الآية ليس بجواب لما سألا عنه فلا بد ههنا من بيان الوجه الذى لأجله عدل عن ذكر الجواب الى هذا الكلام والعلماء ذكروا فيه وجوهاً : الأول : أنه لما كان جواب أحد السائلين أنه يصلب ، ولا شك أنه متى سمع ذلك عظم حزنه وتشتد نفرته عن سماع هذا الكلام ، فرأى أن الصلاح أن يقدم قبل ذلك مايؤثر معه بعلمه وكلامه ، حتى اذا جاء بها من بعد ذلك خرج جوابه عن أن يكون بسبب تهمة وعداوة . الثانى : لعله عليه السلام أراد أن يبين أن درجته فى العلم أعلى وأعظم مما اعتقدوا فيه ، وذلك لأنهم طلبوا منه علم التعبير ، ولا شك أن هذا العلم مبنى على الظن والتخمين ، فبين لهما أنه لايمكنه الاخبار عن الغيوب على سبيل القطع واليقين مع عجز كل الخلق عنه ، واذا كان الأمر كذلك فبأن يكون فائقا على كل الناس فى علم التعبير كان أولى ، فكان المقصود من ذكر تلك المقدمة تقرير كونه فائقا فى علم التعبير واصلا فيه الى مالم يصل غيره . والثالث : قال السدى (لا يأتيكما طعام ترزقانه) فى النوم بين بذلك أن علمه بتأويل الرؤيا ليس بمقصور على شيء دون غيره ، ولذلك قال (إلا نبأتكما بتأويله) الرابع : لعله عليه السلام لما علم أنهما اعتقدا فيه وقبلا قوله : فأورد عليهما مادل على كونه رسولا من عند الله تعالى ، فان الاشتغال باصلاح مهمات الدين أولى من الاشتغال بمهمات الدنيا ، والخامس : لعله عليه السلام لما علم أن ذلك الرجل سيصلب اجتهد فى أن يدخله فى الاسلام حتى لايموت على الكفر ، ولا يستوجب العقاب الشديد (وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) والسادس : قوله (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) محمول على اليقظة ، والمعنى : أنه لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما أى طعام هو، وأى لون هو، وكم هو، وكيف يكون عاقبته ؟ أى اذا أكله الانسان فهو يفيد الصحة أو السقم . وفيه وجه آخر ، قيل : كان الملك اذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً فأرسله اليه ، فقال يوسف لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما أن فيه سما أم لا ، هذا هو المراد من قوله (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) وحاصله راجع إلى أنه ادعى الاخبار عن الغيب ، وهو يجرى مجرى

قول عيسى عليه السلام . وأنبئكم بما تأكلون ، وما تدخرون فى بيوتكم ، فالوجوه الثلاثة الأول لتقرير كونه فائقاً فى علم التعبير ، والوجوه الثلاثة الأخر لتقرير كونه نبيا صادقا من عند الله تعالى .

فان قيل : كيف يجوز حمل الآية على ادعاء المعجزة مع أنه لم يتقدم ادعاء للنبوة ؟

قلنا : إنه وإن لم يذكر ذلك لكن يعلم أنه لابد وأن يقال : إنه كان قد ذكره ، وأيضا ففى قوله (ذلكما مما علمنى ربى) وفى قوله (واتبعت ملة آبائى) مايدل على ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ذلكما مما علمنى ربى﴾ أى لست أخبركما على جهة الكهانة والنجوم ، وإنما أخبرتكما بوحى من الله وعلم حصل بتعليم الله .

ثم قال ﴿إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ لقائل أن يقول : فى قوله (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) توهم أنه عليه السلام كان فى هذه الملة . فنقول جوابه من وجوه : الأول : أن الترك عبارة عن عدم التعرض للشىء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضا فيه . والثانى : وهو الأصح أن يقال إنه عليه السلام كان عبدا لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ، ولعله قبل ذلك كان لايظهر التوحيد والايمان خوفا منهم على سبيل التقية . ثم إنه أظهره فى هذا الوقت ، فكان هذا جاريا مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر .

﴿المسألة الثانية﴾ تكرير لفظ (هم) فى قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) لبيان اختصاصهم بالكفر ، ولعل انكارهم للمعاد كان أشد من انكارهم للمبدأ ، فلأجل مبالغتهم فى انكار المعاد كرر هذا اللفظ للتأكيد .

واعلم أن قوله (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) إشارة الى علم المبدأ . وقوله (وهم بالآخرة هم كافرون) إشارة الى علم المعاد ، ومن تأمل فى القرآن المجيد وتفكر فى كيفية دعوة الأنبياء عليهم السلام علم أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب صرف الخلق الى الاقرار بالتوحيد وبالمبدأ والمعاد ، وان ماوراء ذلك عبث ،

ثم قال تعالى ﴿واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ وفيه سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ ماالفائدة فى ذكر هذا الكلام

الجواب : أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة ، وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله . فان الانسان متى ادعى حرفة

أبيه وجده لم يستبعد ذلك منه ، وأيضا فكما أن درجة ابراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهورا فى الدنيا ، فاذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال ، فكان انقيادهم له أتم وتأثر قلوبهم بكلامه أكمل .

﴿السؤال الثانى﴾ لما كان نبيا فكيف قال . إنى اتبعت ملة آبائى ، والنبى لابد وأن يكون مختصا بشريعة نفسه .

قلنا : لعل مراده التوحيد الذى لم يتغير ، وأيضا لعله كان رسولا من عند الله ، إلا أنه كان على شريعة ابراهيم عليه السلام .

﴿السؤال الثالث﴾ لم قال (ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء) وحال كل المكلفين كذلك ؟

والجواب : ليس المراد بقوله (ماكان لنا) أنه حرم ذلك عليهم ، بل المراد أنه تعالى طهر آباءه عن الكفر ، ونظيره قوله (ماكان لله أن يتخذ من ولد)

﴿السؤال الرابع﴾ ما الفائدة فى قوله (من شىء)

الجواب : أن أصناف الشرك كثيرة ، فمنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد النار ، ومنهم من يعبد الكواكب ، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة ، فقوله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) رد على كل هؤلاء الطوائف والفرق ، وارشاد الى الدين الحق ، وهو أنه لاموجد الا الله ولاخالق الا الله ولا رازق الا الله .

ثم قال ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ وفيه مسألة . وهى أنه قال (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء)

ثم قال ﴿ذلك من فضل الله﴾ فقوله (ذلك) اشارة الى ما تقدم من عدم الاشراك . فهذا يدل على أن عدم الاشراك وحصول الايمان من الله . ثم بين أن الأمر كذلك فى حقه بعينه ، وفى حق الناس . ثم بين أن أكثر الناس لايشكرون ، ويجب أن يكون المراد أنهم لايشكرون الله على نعمة الايمان ، حكى أن واحدا من أهل السنة دخل على بشر بن المعتمر ، وقال : هل تشكر الله على الايمان أم لا . فان قلت لا ، فقد خالفت الاجماع ، وان شكرته فكيف تشكره على ماليس فعلا له . فقال له بشر إنا نشكره على أنه تعالى أعطانا القدرة والعقل والآلة ، فيجب علينا أن نشكره على إعطاء القدرة والآلة ، فاما أن نشكره على الايمان مع أن الايمان ليس فعلا له ، فذلك باطل ، وصعب الكلام على بشر ، فدخل عليهم ثمامة بن الأشرس وقال : إنا لا نشكر الله على الايمان ، بل الله يشكرنا عليه كما قال (أولئك كان سعيهم مشكورا) فقال بشر : لما صعب الكلام سهل .

يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩» مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٤٠»

واعلم أن الذى الزمه ثمامة باطل بنص هذه الآية ، وذلك لأنه تعالى بين أن عدم الاشراك من فضل الله . ثم بين أن أكثر الناس لايشكرون هذه النعمة ، وإنما ذكره على سبيل الذم فدل هذا على أنه يجب على كل مؤمن أن يشكر الله تعالى على نعمة الايمان ، وحينئذ تقوى الحجة وتكمل الدلالة . قال القاضى قوله (ذلك) ان جعلناه اشارة إلى التمسك بالتوحيد فهو من فضل الله تعالى لأنه انما حصل بألطافه وتسهيله . ويحتمل أن يكون اشارة إلى النبوة .

والجواب : أن ذلك اشارة إلى المذكور السابق ، وذاك هو ترك الاشراك فوجب أن يكون ترك الاشراك من فضل الله تعالى . والقاضى يصرفه إلى الالطاف والتسهيل، فكان هذا تركا للظاهر وأما صرفه إلى النبوة فبعيد ، لأن اللفظ الدال على الاشارة يجب صرفه إلى أقرب المذكورات وهو ههنا عدم الاشراك .

قوله تعالى ﴿ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (ياصاحبي السجن) يريد صاحبي فى السجن ، ويحتمل أيضا أنه لما حصلت مرافقتهما فى السجن مدة قليلة أضيفا إليه وإذا كانت المرافقة القليلة كافية فى كونه صاحبا فمن عرف الله وأحبه طول عمره أولى بأن يبقى عليه اسم المؤمن العارف المحب .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه عليه السلام لما ادعى النبوة فى الآية الأولى وكان اثبات النبوة مبنياً على إثبات الالهيات لاجرم شرع فى هذه الآية فى تقرير الالهيات . ولما كان أكثر الخلق مقرين بوجود الاله العالم القادر وإنما الشأن فى أنهم يتخذون أصناماً على صورة الأرواح الفلكية

ويعبدونها ويتوقعون حصول النفع والضر منها لاجرم كان سعى أكثر الأنبياء فى المنع من عبادة الأوثان . فكان الأمر على هذا القانون فى زمان يوسف عليه السلام ، فلهذا السبب شرع ههنا فى ذكر مايدل على فساد القول بعبادة الأصنام وذكر أنواعا من الدلائل والحجج .

﴿الحجة الأولى﴾ قوله (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وتقرير هذه الحجة أن نقول : إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد فى هذا العالم وهو قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل . وكون الاله واحداً يقتضى حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى فى سائر الآيات . قال ههنا (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) والمراد منه الاستفهام على سبيل الانكار .

﴿والحجة الثانية﴾ أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لاقاهرة . فان الانسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهى مقهورة لاتأثير لها ، ولا يتوقع حصول منفعة ولامضرة من جهتها وإله العالم فعال قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار ، فقوله (أأرباب) إشارة إلى الكثرة فجعل فى مقابلته كونه تعالى واحدا وقوله (متفرقون) اشارة الى كونها مختلفة فى الكبر والصغر ، واللون والشكل ، وكل ذلك انما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله (متفرقون) اشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل فى مقابلته كونه تعالى قهاراً فبهذا الطريق الذى شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين .

﴿والحجة الثالثة﴾ أن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته ، لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذى خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك فى أنا نعبد هذا أم ذاك ، وفيه اشارة إلى مايدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لانعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما ، وحينئذ يقع الشك فى أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما اذا كان المعبود واحداً ارتفع هذا الشك وحصل اليقين فى أنه لايستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات إلاهو . فهذا أيضاً وجه لطيف مستنبط من هذه الآية .

﴿الحجة الرابعة﴾ أن بتقدير أن يساعد على أن هذه الاصنام تنفع وتضر على مايقوله أصحاب الطلسمات . إلاأنه لانزاع فى أنها تنفع فى أوقات مخصوصة وبحسب آثار مخصوصة ، والأله تعالى قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الاطلاق نافذ المشيئة والقدرة فى كل الممكنات على الاطلاق فكان الاشتغال بعبادته أولى .

﴿الحجة الخامسة﴾ وهى شريفة عالية ، وذلك لأن شرط القهار أن لايقهره أحد سواه وأن يكون هو قهاراً لكل ماسواه وهذا يقتضى أن يكون الاله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنا لكان مقهوراً لاقاهرا ويجب أن يكون واحداً ، اذ لو حصل فى الوجود واجبان لما كان قاهراً لكل ماسواه . فالاله لايكون قهاراً إلا إذا كان واجباً لذاته وكان واحداً ، واذا كان المعبود يجب أن يكون كذلك فهذا يقتضى أن يكون الاله شيئاً غير الفلك وغير الكواكب وغير النور والظلمة . وغير العقل والنفس . فأما من تمسك بالكواكب فهى أرباب متفرقون وهى ليست موصوفة بأنها قهارة ، وكذا القول فى الطبائع والأرواح والعقول والنفوس فهذا الحرف الواحد كاف فى إثبات هذا التوحيد المطلق وأنه مقام عال فهذا مجموع الدلائل المستنبطة من هذه الآية بقى فيها سؤالان :

﴿السؤال الأول﴾ لم سماها أرباباً وليست كذلك .

والجواب : لاعتقادهم فيها أنها كذلك ، وأيضاً الكلام خرج على سبيل الفرض والتقدير : والمعنى أنها إن كانت أرباباً فهى خير أم الله الواحد القهار .

﴿السؤال الثانى﴾ هل يجوز التفاضل بين الأصنام وبين الله تعالى حتى يقال إنها خير أم الله الواحد القهار ؟

الجواب : أنه خرج على سبيل الفرض ، والمعنى : لو سلمنا أنه حصل منها مايوجب الخير فهى خير أم الله الواحد القهار .

ثم قال ﴿ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ وفيه سؤال : وهو أنه تعالى قال فيما قبل هذه الآية (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) وذلك يدل على وجود هذه المسميات . ثم قال عقيب تلك الآية (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها) وهذا يدل على أن المسمى غير حاصل وبينهما تناقض .

الجواب : أن الذات موجودة حاصلة إلا أن المسمى بالاله غير حاصل . وبيانه من وجهين : الأول : أن ذوات الأصنام وإن كانت موجودة إلا أنها غير موصوفة بصفات الالهية ، وإذا كان كذلك كان الشيء الذى هو مسمى بالاله فى الحقيقة غير موجود ولاحاصل . الثانى : يروى أن عبدة الأوثان مشبهة فاعتقدوا أن الاله هو النور الأعظم وأن الملائكة أنوار صغيرة ووضعوا على صورة تلك الأنوار هذه الأوثان ومعبودهم فى الحقيقة هو تلك الأنوار السماوية . وهذا قول المشبهة فانهم تصوروا جسما كبيراً مستقرا على العرش ويعبدونه وهذا المتخيل غير موجود البتة فصح أنهم لايعبدون إلا مجرد الأسماء .

يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ «٤١»

واعلم أن جماعة ممن يعبدون الأصنام قالوا نحن لا نقول : إن هذه الأصنام آلهة للعالم بمعنى أنها هى التى خلقت العالم إلا أنا نطلق عليها اسم الاله ونعبدها ونعظمها لاعتقادنا أن الله أمرنا بذلك ، فأجاب الله تعالى عنه . فقال أما تسميتها بالآلهة فما أمر الله تعالى بذلك وما أنزل فى حصول هذه التسمية حجة ولا برهانا ولا دليلا ولا سلطانا ، وليس لغير الله حكم واجب القبول ولا أمر واجب الالتزام بل الحكم والأمر والتكليف ليس الا له ، ثم إنه أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، وذلك لأن العبادة نهاية التعظيم والاجلال فلا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الانعام وهو الاله تعالى لأن منه الخلق والاحياء والعقل والرزق والهداية ، ونعم الله كثيرة وجهات إحسانه إلى الخلق غير متناهية ثم إنه تعالى لما بين هذه الأشياء ، قال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وتفسيره أن أكثر الخلق يسندون حدوث الحوادث الأرضية إلى الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية لأجل أنه تقرر فى العقول أن الحادث لا بد له من سبب . فاذا رأوا أن تغير أحوال هذا العالم فى الحر والبرد والفصول الأربعة ، إنما يحصل عند تغير أحوال الشمس فى أرباع الفلك ربطوا الفصول الأربعة بحركة الشمس ، ثم لما شاهدوا أن أحوال النبات والحيوان مختلفة بحسب اختلاف الفصول الأربعة ربطوا حدوث النبات وتغير أحوال الحيوان باختلاف الفصول الأربعة ، فبهذا الطريق غلب على طباع أكثر الخلق أن المدبر لحدوث الحوادث فى هذا العالم هو الشمس والقمر وسائر الكواكب ، ثم إنه تعالى اذا وفق إنسانا حتى ترقى من هذه الدرجة وعرف أنها فى ذواتها وصفاتها مفتقرة الى موجد ومبدع قاهر قادر عليم حكيم ، فذلك الشخص يكون فى غاية الندرة ، فلهذا قال (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

قوله عز وجل ﴿ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾

اعلم أنه عليه السلام لما قرر أمر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب عن السؤال الذى ذكراه ، والمعنى ظاهر . وذلك لأن الساقى لما قص رؤياه على يوسف ، وقد ذكرنا كيف قص عليه قال له يوسف : ما أحسن ما رأيت . أما حسن العنبة فهو حسن حالك ، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام يوجه اليك الملك عند انقضائهن فيردك الى عملك فتصير كما كنت بل أحسن ، وقال للخباز : لما قص

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ «٤٢»

عليه بئسما رأيت السلال الثلاث ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك ، ثم نقل فى التفسير أنهما قالا مارأينا شيئا فقال (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) واختلف فيما لأجله قالا مارأينا شيئا فقيل إنهما وضعا هذا الكلام ليختبرا علمه بالتعبير مع أنهما مارأيا شيئا وقيل : إنهما لما كرها ذلك الجواب قالا مارأينا شيئاً .

فان قيل : هذا الجواب الذى ذكره يوسف عليه السلام ذكره بناء على الوحى من قبل الله تعالى أو بناء على علم التعبير ، والاول باطل لأن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نقل أنه إنما ذكره على سبيل التعبير ، وأيضا قال تعالى (وقال للذى ظن أنه ناج منهما) ولو كان ذلك التعبير مبنيا على الوحى لكان الحاصل منه القطع واليقين لا الظن والتخمين ، والثانى : أيضا باطل لأن علم التعبير مبنى على الظن والحسبان .

الجواب : لايبعد أن يقال : إنهما لما سألاه عن ذلك المنام صدقا فيه أو كذبا فان الله تعالى أوحى إليه أن عاقبة كل واحد منهما تكون على الوجه المخصوص . فلما نزل الوحى بذلك الغيب عند ذلك السؤال وقع فى الظن أنه ذكره على سبيل التعبير ، ولا يبعد أيضا أن يقال : إنه بنى ذلك الجواب على علم التعبير ، وقوله (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) ماعنى به ان الذى ذكره واقع لامحالة بل عنى به أنه حكمه فى تعبير ماسألاه عنه ذلك الذى ذكره .

قوله عز وجل ﴿وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين﴾

فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا فى أن الموصوف بالظن هو يوسف عليه السلام أو الناجى فعلى الاول كان المعنى وقال الرجل الذى ظن يوسف عليه السلام كونه ناجيا . وعلى هذا القول ففيه وجهان : الأول : أن تحمل هذا الظن على العلم واليقين . وهذا اذا قلنا بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك التعبير بناء على الوحى . قال هذا القائل وورود لفظ الظن بمعنى اليقين كثير فى القرآن . قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم) وقال (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) والثانى : أن تحمل هذا الظن على حقيقة

الظن ، وهذا اذا قلنا انه عليه السلام ذكر ذلك التعبير لا بناء على الوحى ، بل على الأصول المذكورة فى ذلك العلم ، وهى لا تفيد الا الظن والحسبان .

﴿والقول الثانى﴾ أن هذا الظن صفة الناجى ، فان الرجلين السائلين ما كانا مؤمنين بنبوة يوسف ورسالته ، ولكنهما كانا حسنى الاعتقاد فيه ، فكان قوله لا يفيد فى حقهما الا مجرد الظن .

﴿المسألة الثانية﴾ قال يوسف عليه السلام لذلك الرجل الذى حكم بأنه يخرج من الحبس ويرجع الى خدمة الملك (اذكرنى عند ربك) أى عند الملك . والمعنى : اذكر عنده أنه مظلوم من جهة اخوته لما أخرجوه وباعوه ، ثم انه مظلوم فى هذه الواقعة التى لأجلها حبس ، فهذا هو المراد من الذكر .

ثم قال تعالى ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ وفيه قولان : الأول : أنه راجع الى يوسف ، والمعنى أن الشيطان أنسى يوسف أن يذكر ربه . وعلى هذا القول ففيه وجهان : أحدهما : أن تمسكه بغير الله كان مستدركا عليه ، وتقريره من وجوه : الأول : أن مصلحته كانت فى أن لا يرجع فى تلك الواقعة الى أحد من المخلوقين وأن لا يعرض حاجته على أحد سوى الله ، وأن يقتدى بجده ابراهيم عليه السلام ، فانه حين وضع فى المنجنيق ليرمى إلى النار جاءه جبريل عليه السلام وقال : هل من حاجة ، فقال أما اليك فلا ، فلما رجع يوسف إلى المخلوق لا جرم وصف الله ذلك بأن الشيطان أنساه ذلك التفويض ، وذلك التوحيد ، ودعاه إلى عرض الحاجة إلى المخلوقين ، ثم لما وصفه بذلك ذكر أنه بقى لذلك السبب فى السجن بضع سنين ، والمعنى أنه لما عدل عن الانقطاع إلى ربه إلى هذا المخلوق عوقب بأن لبث فى السجن بضع سنين ، وحاصل الأمر أن رجوع يوسف إلى المخلوق صار سبباً لأمرين : أحدهما : أنه صار سبباً لاستيلاء الشيطان عليه حتى أنساه ذكر ربه . الثانى : أنه صار سبباً لبقاء المحنة عليه مدة طويلة .

﴿الوجه الثانى﴾ أن يوسف عليه السلام قال فى ابطال عبادة الأوثان (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ثم إنه ههنا أثبت ربا غيره حيث قال (اذكرنى عند ربك) ومعاذ الله أن يقال إنه حكم عليه بكونه رباً بمعنى كونه إلهاً ، بل حكم عليه بالربوبية كما يقال : رب الدار ، ورب الثوب على أن اطلاق لفظ الرب عليه بحسب الظاهر يناقض نفى الأرباب .

﴿الوجه الثالث﴾ أنه قال فى تلك الآية ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، وذلك نفى للشرك على الاطلاق ، وتفويض الأمور بالكلية الى الله تعالى ، فههنا الرجوع الى غير الله تعالى كالمناقض لذلك التوحيد .

واعلم أن الاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين

فهذا وان كان جائزا لعامة الخلق الا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية وأن لايشتغلوا الا بمسبب الأسباب .

﴿الوجه الثانى﴾ فى تأويل الآية أن يقال : هب أنه تمسك بغير الله وطلب من ذلك الساقى أن يشرح حاله عند ذلك الملك ، إلا أنه كان من الواجب عليه أن لايخلى ذلك الكلام من ذكر الله مثل أن يقول ان شاء الله أو قدر الله فلما أخلاه عن هذا الذكر وقع هذا الاستدراك .

﴿القول الثانى﴾ أن يقال إن قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) راجع إلى الناجى والمعنى : أن الشيطان أنسى ذلك الفتى أن يذكر يوسف للملك حتى طال الأمر (فلبث فى السجن بضع سنين) بهذا السبب ، ومن الناس من قال القول الأول أولى لما روى عنه عليه السلام قال «رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك مالبث فى السجن» وعن قتادة أن يوسف عليه السلام عوقب بسبب رجوعه إلى غير الله ، وعن ابراهيم التيمى أنه لما انتهى الى باب السجن قال له صاحبه : ماحاجتك قال : أن تذكرنى عند رب سوى الرب الذى قال يوسف ، وعن مالك لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قيل : يايوسف اتخذت من دونى وكيلا لأطيلن حبسك فبكى يوسف وقال : طول البلاء أنسانى ذكر المولى فقلت هذه الكلمة فويل لاخوتى .

قال مصنف الكتاب فخر الدين الرازى رحمه الله ، والذى جربته من أول عمرى إلى آخره أن الانسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله صار ذلك سببا إلى البلاء والمحنة ، والشدة والرزية ، وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت لى من أول عمرى الى هذا الوقت الذى بلغت فيه الى السابع والخمسين ، فعند هذا استقر قلبى على أنه لامصلحة للانسان فى التعويل على شىء سوى فضل الله تعالى واحسانه ومن الناس من رجح القول الثانى لأن صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل أولى من صرفها الى يوسف الصديق ، ولأن الاستعانة بالعباد فى التخلص من الظلم جائزة .

واعلم أن الحق هو القول الأول وماذكره هذا القائل الثانى تمسك بظاهر الشريعة وماقرره القائل الأول تمسك بأسرار الحقيقة ومكارم الشريعة . ومن كان له ذوق فى مقام العبودية وشرب من مشرب التوحيد عرف أن الأمر كما ذكرناه ، وأيضا فى لفظ الآية مايدل على أن هذا القول ضعيف ، لأنه لو كان المراد ذلك لقال فأنساه الشيطان ذكره لربه .

﴿المسألة الثالثة﴾ الاستعانة بغير الله فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة لا انكار عليه الا أنه لما كان ذلك مستدركا من المحققين المتوغلين فى بحار العبودية لاجرم صار يوسف عليه السلام مؤاخذا

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ «٤٣» قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ «٤٤»

به ، وعند هذا نقول : الذى يصير مؤاخذا بهذا القدر لأن يصير مؤاخذا بالاقدام على طلب الزنا ومكافأة الاحسان بالاساءة كان أولى . فلما رأينا الله تعالى آخذه بهذا القدر ، ولم يؤاخذه فى تلك القضية البتة ، وماعابه بل ذكره بأعظم وجوه المدح والثناء علمنا أنه عليه السلام كان مبرأ مما نسبه الجهال والحشوية اليه .

﴿المسألة الرابعة﴾ الشيطان يمكنه القاء الوسوسة ، وأما النسيان فلا ، لأنه عبارة عن ازالة العلم عن القلب ، والشيطان لاقدرة له عليه ، والالكان قد أزال معرفة الله تعالى عن قلوب بنى آدم .

وجوابه : أنه يمكنه من حيث أنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال واشتغال الانسان بسائر الأعمال يمنعه عن استحضار ذلك العلم وتلك المعرفة .

﴿المسألة الخامسة﴾ قوله (فلبث فى السجن بضع سنين) فيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ بحسب اللغة قال الزجاج : اشتقاقه من بضعت بمعنى قطعت ومعناه القطعة من العدد قال الفراء : ولايذكر البضع إلامع عشرة أوعشرين إلى التسعين . وذلك يقتضى أن يكون مخصوصاً بما بين الثلاثة إلى التسعة ، وقال هكذا رأيت العرب يقولون ومارأيتهم يقولون بضع ومائة . وروى الشعبى أن النبى عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه «كم البضع» قالوا الله ورسوله أعلم قال «مادون العشرة» واتفق الأكثرون على أن المراد ههنا ببضع سنين . سبع سنين قالوا : إن يوسف عليه السلام حين قال لذلك الرجل (اذكرنى عند ربك) كان قد بقى فى السجن خمس سنين ثم بقى بعد ذلك سبع سنين . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما تضرع يوسف عليه السلام إلى ذلك الرجل كان قد اقترب وقت خروجه فلما ذكر ذلك لبث فى السجن بعده سبع سنين ، وروى أن الحسن روى قوله صلوات الله عليه وسلامه «رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قالها لما لبث فى السجن هذه المدة الطويلة» ثم بكى الحسن وقال : نحن إذا نزل بنا أمر تضرعنا إلى الناس .

قوله تعالى ﴿وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام ومانحن

بتأويل الاحلام بعالمين﴾

اعلم أنه تعالى إذا أراد شيئاً هيأ له أسباباً . ولما دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر فى النوم سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس . وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها . وسبعاً أخر يابسات . فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة وذكرها لهم وهو المراد من قوله (يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى) فقال القوم هذه الرؤيا مختلطة فلا نقدر على تأويلها وتعبيرها . فهذا ظاهر الكلام وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الليث : العجف ذهاب السمن والفعل عجف يعجف والذكر أعجف والأنثى عجفاء والجمع عجاف فى الذكران والاناث . وليس فى كلام العرب أفعل وفعلاء جمعا على فعال غير أعجف وعجاف وهى شاذة حملوها على لفظ سمان فقالوا : سمان وعجاف لأنهما نقيضان ومن دأبهم حمل النظير على النظير . والنقيض على النقيض . واللام فى قوله (للرؤيا تعبرون) على قول البعض زائدة لتقدم المفعول على الفعل . وقال صاحب الكشاف : يجوز أن تكون الرؤيا خبر كان كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلا به متمكناً منه وتعبرون خبرا آخر أو حالا . ويقال عبرت الرؤيا أعبرها عبارة وعبرتها تعبيرا إذا فسرتها . وحكى الأزهرى أن هذا مأخوذ من العبر . وهو جانب النهر . ومعنى عبرت النهر . والطريق قطعته إلى الجانب الآخر فقيل لعابر الرؤيا عابر . لأنه يتأمل جانبى الرؤيا فيتفكر فى أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الآخر . والأضغاث جمع الضغث وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال قال تعالى (وخذ بيدك ضغثاً)

إذا عرفت هذا فنقول : الرؤيا إن كانت مخلوطة من أشياء غير متناسبة كانت شبيهة بالضغث

﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى جعل تلك الرؤيا سبباً لخلاص يوسف عليه السلام من السجن . وذلك لأن الملك لما قلق واضطرب بسببه . لأنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوى فشهدت فطرته بأن هذا ليس بجيد وأنه منذر بنوع من أنواع الشر ، إلا أنه ماعرف كيفية الحال فيه والشىء إذا صار معلوماً من وجه وبقى مجهولا من وجه آخر عظم تشوف الناس إلى تكميل تلك المعرفة وقويت الرغبة فى اتمام الناقص لاسيما إذا كان الانسان عظيم الشأن واسع المملكة ، وكان ذلك الشىء دالا على الشر من بعض الوجوه . فبهذا الطريق قوى الله داعية ذلك الملك فى تحصيل العلم بتعبير هذه الرؤيا ، ثم إنه تعالى أعجز المعبرين الذين حضروا عند ذلك الملك عن جواب هذه المسألة وعماه عليهم ليصير ذلك سبباً لخلاص يوسف من تلك المحنة .

وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «٤٥» يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ «٤٦»

واعلم أن القوم مانفوا عن أنفسهم كونهم عالمين بعلم التعبير ، بل قالوا : إن علم التعبير على قسمين منه ماتكون الرؤيا فيه متسقة منتظمة فيسهل الانتقال من الأمور المتخيلة إلى الحقائق العقلية الروحانية ومنه ماتكون فيه مختلطة مضطربة ولا يكون فيها ترتيب معلوم وهو المسمى بالاضغاث والقوم قالوا إن رؤيا الملك من قسم الأضغاث ثم أخبروا أنهم غير عالمين بتعبير هذا القسم وكأنهم قالوا هذه الرؤيا مختلطة من أشياء كثيرة وما كان كذلك فنحن لانهتدى اليها ولا يحيط عقلنا بها وفيه ايهام أن الكامل فى هذا العلم والمتبحر فيه قديهتدى اليها ، فعند هذه المقالة تذكر ذلك الشرابى واقعة يوسف فانه كان يعتقد فيه كونه متبحرا فى هذا العلم.

قوله تعالى ﴿وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾

اعلم أن الملك لما سأل الملأ عن الرؤيا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب قال الشرابى إن فى الحبس رجلا فاضلا صالحاً كثير العلم كثير الطاعة قصصت أنا والخباز عليه منامين فذكر تأويلهما فصدق فى الكل . وما أخطأ فى حرف فان أذنت مضيت اليه وجئتك بالجواب . فهذا هو قوله (وقال الذى نجا منهما)

وأما قوله ﴿وادكر بعد أمة﴾ فنقول : سيجىء ادكر فى تفسير قوله تعالى (من مدكر) فى سورة القمر قال صاحب الكشاف (وادكر) بالدال هو الفصيح عن الحسن (واذكر) بالذال أى تذكر ، وأما الأمة ففيه وجوه : الأول (بعد أمة) أى بعد حين ، وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم فالحين كان أمة من الأيام والساعات والثانى : قرأ الأشهب العقيلى (بعد إمة) بكسر الهمزة والإمة النعمة قال عدى :

ثم بعد الفلاح والملك والإمة وارتهم هناك القبور

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ «٤٧» ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَاقَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ «٤٨» ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ «٤٩»

والمعنى : بعد ماأنعم عليه بالنجاة . الثالث : قرئ (بعد أمة) أى بعد نسيان يقال أمه يأمه أمها إذا نسى والصحيح أنها بفتح الميم وذكره أبو عبيدة بسكون الميم ، وحاصل الكلام أنه إما أن يكون المراد وادكر بعد مضى الأوقات الكثيرة من الوقت الذى أوصاه يوسف عليه السلام بذكره عند الملك ، والمراد وادكر بعد وجدان النعمة عند ذلك الملك أو المراد وادكر بعد النسيان .

فان قيل : قوله (وادكر بعد أمة) يدل على أن الناسى هو الشرابى وأنتم تقولون الناسى هو يوسف عليه السلام .

قلنا : قال ابن الانبارى : ادكر بمعنى ذكر وأخبر وهذا لايدل على سبق النسيان فلعل الساقى انما لم يذكره للملك خوفاًمن أن يكون ذلك اذكاراً لذنبه الذى من أجله حبسه فيزداد الشر ويحتمل أيضاً أن يقال : حصل النسيان ليوسف عليه السلام وحصل أيضاً لذلك الشرابى . وأما قوله (فأرسلون) خطاب إما للملك والجمع أو للملك وحده على سبيل التعظيم ، أما قوله (يوسف أيها الصديق) ففيه محذوف . والتقدير : فأرسل وأتاه وقال أيها الصديق ، والصديق هو البالغ فى الصدق وصفه بهذه الصفه لأنه لم يجرب عليه كذباً وقيل : لأنه صدق فى تعبير رؤياه وهذا يدل على أن من أراد أن يتعلم من رجل شيئا فانه يجب عليه أن يعظمه ، وأن يخاطبه بالألفاظ المشعرة بالاجلال ثم إنه أعاد السؤال بعين اللفظ الذى ذكره الملك ونعم مافعل . فان تعبير الرؤيا قد يختلف بسبب اختلاف اللفظ كما هو مذكور فى ذلك العلم .

أما قوله تعالى ﴿لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾ فالمراد لعلى أرجع إلى الناس بفتواك لعلهم يعلمون فضلك وعلمك وانما قال لعلى أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضا عنها ، فلهذا السبب قال (لعلى أرجع الى الناس)

قوله عز وجل ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما

تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾

اعلم أنه عليه السلام ذكر تعبير تلك الرؤيا فقال (تزرعون) وهو خبر بمعنى الأمر، كقوله (والمطلقات يتربصن. والوالدات يرضعن) وإنما يخرج الخبر بمعنى الأمر، ويخرج الأمر فى صورة الخبر للمبالغة فى الايجاب، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه. والدليل على كونه فى معنى الأمر قوله (فذروه فى سنبله) وقوله (دأبا) قال أهل اللغة: الدأب استمرار الشىء على حالة واحدة. وهو دائب بفعل كذا اذا استمر فى فعله، وقد دأب يدأب دأباً ودأباً أى زراعة متوالية فى هذه السنين. قال أبو على الفارسى: الأكثرون فى دأب الاسكان ولعل الفتحة لغة، فيكون كشمع وشمع، ونهر ونهر. قال الزجاج: وانتصب دأباً على معنى تدأبون دأبا. وقيل: إنه مصدر وضع فى موضع الحال. وتقديره تزرعون دائبين فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون كل ماأردتم أكله فدوسوه ودعوا الباقى فى سنبله حتى لا يفسد ولا يقع السوس فيه، لأن إبقاء الحبة فى سنبله يوجب بقاءها على الصلاح (ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد) أى سبع سنين مجدبات. والشداد الصعاب التى تشتد على الناس، وقوله (يأكلن ماقدمتم لهن) هذا مجاز، فان السنة لا تأكل فيجعل أكل أهل تلك السنين مسنداً الى السنين. وقوله (إلا قليلا مما تحصنون) الاحصان الاحراز. وهو إلقاء الشىء فى الحصن يقال أحصنه إحصانا إذا جعله فى حرز، والمراد إلا قليلا مما تحرزون أى تدخرون وكلها ألفاظ ابن عباس رضى الله عنهما، وقوله (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس) قال المفسرون السبعة المتقدمة سنو الخصب وكثرة النعم والسبعة الثانية سنو القحط والقلة وهى معلومة من الرؤيا، وأما حال هذه السنة فما حصل فى ذلك المنام شىء يدل عليه بل حصل ذلك من الوحى فكأنه عليه السلام ذكر أنه يحصل بعد السبعة المخصبة. والسبعة المجدبة سنة مباركة كثيرة الخير والنعم. وعن قتادة زاده الله علم سنة.

فان قيل: لما كانت العجاف سبعا دل ذلك على أن السنين المجدبة لا تزيد على هذا العدد، ومن المعلوم أن الحاصل بعد انقضاء القحط هو الخصب وكان هذا أيضا من مدلولات المنام، فلم قلتم إنه حصل بالوحى والالهام؟

قلنا: هب أن تبدل القحط بالخصب معلوم من المنام، أما تفصيل الحال فيه، وهو قوله (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) لا يعلم إلا بالوحى. قال ابن السكيت يقال: غاث الله البلاد يغيثها غيثا اذا أنزل فيها الغيث وقد غيثت الأرض تغاث، وقوله (يغاث الناس) معناه يمطرون، ويجوز أن

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ «٥٠» قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ «٥١» ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ «٥٢»

يكون من قولهم : أغاثه الله اذا أنقذه من كرب أو غم ، ومعناه ينقذ الناس فيه من كرب الجدب ، وقوله (وفيه يعصرون) أى يعصرون السمسم دهناً والعنب خمرا والزيتون زيتاً . وهذا يدل على ذهاب الجدب وحصول الخصب والخير . وقيل : يحلبون الضروع . وقرىء (يعصرون) من عصره اذا نجاه ، وقيل : معناه يمطرون من أعصرت السحابة اذا اعصرت بالمطر . ومنه قوله (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا)

قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين﴾

اعلم أنه لما رجع الشرابى الى الملك وعرض عليه التعبير الذى ذكره يوسف عليه السلام استحسنه الملك فقال : ائتونى به . وهذا يدل على فضيلة العلم ، فانه سبحانه جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية ، فكيف لايكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية ، فعاد الشرابى الى يوسف عليه السلام قال أجب الملك ، فأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن ينكشف أمره وتزول التهمة بالكلية عنه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال «عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجولى» ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال (ارجع الى ربك) ولو كنت مكانه ولبثت فى السجن مالبثت لأسرعت الاجابة وبادرتهم الى الباب : ولما ابتغيت العذر أنه كان حليما ذا أناة .

واعلم أن الذى فعله يوسف من الصبر والتوقف الى أن تفحص الملك عن حاله هو اللائق بالحزم والعقل . وبيانه من وجوه : الأول : أنه لو خرج فى الحال فربما كان يبقى فى قلب الملك من تلك التهمة أثرها . فلما التمس من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته من تلك التهمة فبعد خروجه لايقدر أحد أن يلطخه بتلك الرذيلة وأن يتوسل بها الى الطعن فيه . الثانى : أن الانسان الذى بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة اذا طلبه الملك وأمر باخراجه الظاهر أنه يبادر بالخروج ، فحيث لم يخرج عرف منه كونه فى نهاية العقل والصبر والثبات ، وذلك يصير سببا لأن يعتقد فيه بالبراءة عن جميع أنواع التهم ، ولأن يحكم بأن كل ماقيل فيه كان كذبا وبهتانا . الثالث : أن التماسه من الملك أن يتفحص عن حاله من تلك النسوة يدل أيضا على شدة طهارته إذ لو كان ملوثاً بوجه ما ، لكان خائفا أن يذكر ماسبق . الرابع : أنه حين قال للشرابى (اذكرنى عند ربك) فبقى بسبب هذه الكلمة فى السجن بضع سنين . وههنا طلبه الملك فلم يلتفت اليه ولم يقم لطلبه وزنا ، واشتغل باظهار براءته عن التهمة ، ولعله كان غرضه عليه السلام من ذلك أن لا يبقى فى قلبه التفات الى رد الملك وقبوله ، وكان هذا العمل جاريا مجرى التلافى لما صدر من التوسل اليه فى قوله (اذكرنى عند ربك) ليظهر أيضا هذا المعنى لذلك الشرابى، فانه هو الذى كان واسطة فى الحالتين معا .

أما قوله ﴿فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن﴾ ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ ابن كثير والكسائى (فسله) بغير همز والباقون (فاسأله) بالهمز ، وقرأ عاصم برواية أبى بكر عنه (النسوة) بضم النون والباقون بكسر النون . وهما لغتان .

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أن هذه الآية فيها أنواع من اللطائف : أولها : أن معنى الآية : فسل الملك بأن يسأل ماشأن تلك النسوة وما حالهن ليعلم براءتى عن تلك التهمة ، إلا أنه اقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة لئلا يشتمل اللفظ على مايجرى مجرى أمر الملك بعمل أو فعل وثانيها : أنه لم يذكر سيدته مع أنها هى التى سعت فى القائه فى السجن الطويل ، بل اقتصر على ذكر سائر النسوة . وثالثها : أن الظاهر أن أولئك النسوة نسبنه الى عمل قبيح وفعل شنيع عند الملك ، فاقتصر يوسف عليه السلام على مجرد قوله (مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) وما شكا منهن على سبيل التعيين والتفصيل . ثم قال يوسف بعد ذلك (إن ربى بكيدهن عليم) وفى المراد من قوله (ان ربى) وجهان : الأول : أنه هو الله تعالى ، لأنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور . والثانى : أن المراد الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربياً له وفيه اشارة الى كون ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن .

واعلم أن كيدهن فى حقه يحتمل وجوها : أحدها : أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه ،

فلما لم تجد المطلوب أخذت تطعن فيه وتنسبه الى القبيح . وثانيها : لعل كل واحدة منهن بالغت فى ترغيب يوسف فى موافقة سيدته على مرادها ، ويوسف علم أن مثل هذه الخيانة فى حق السيد المنعم لا تجوز ، فأشار بقوله (إن ربى بكيدهن عليم) الى مبالغتهن فى الترغيب فى تلك الخيانة . وثالثها : أنه استخرج منهن وجوها من المكر والحيل فى تقبيح صورة يوسف عليه السلام عند الملك فكان المراد من هذا اللفظ ذاك ، ثم انه تعالى حكى عن يوسف عليه السلام أنه لما التمس ذلك ، أمر الملك باحضارهن وقال لهن (ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) وفيه وجهان : الأول : أن قوله (إذ راودتن يوسف عن نفسه) وإن كانت صيغة الجمع . فالمراد منها الواحدة كقوله تعالى (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) والثانى : أن المراد منه خطاب الجماعة . ثم ههنا وجهان : الأول : أن كل واحدة منهن راودت يوسف عن نفسها . والثانى : أن كل واحدة منهن راودت يوسف لأجل امرأة العزيز فاللفظ محتمل لكل هذه الوجوه ، وعند هذا السؤال (قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) وهذا كالتأكيد لما ذكرن فى أول الأمر فى حقه وهو قولهن (ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم)

واعلم أن امرأة العزيز كانت حاضرة ، وكانت تعلم أن هذه المناظرات والتفحصات إنما وقعت بسببها ولأجلها فكشفت عن الغطاء وصرحت بالقول الحق وقالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ هذه شهادة جازمة من تلك المرأة بأن يوسف صلوات الله عليه كان مبرأ عن كل الذنوب مطهراً عن جميع العيوب ، وههنا دقيقة ، وهى أن يوسف عليه السلام راعى جانب امرأة العزيز حيث قال (مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) فذكرهن ولم يذكر تلك المرأة البتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها وإخفاء للأمر عليها ، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن فلا جرم أزالت الغطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبها وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عن الكل . ورأيت فى بعض الكتب أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضى وادعت عليه المهر ، فأمر القاضى بأن يكشف عن وجهها حتى تتمكن الشهود من اقامة الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة الى ذلك ، فانى مقر بصدقها فى دعواها . فقالت المرأة لما أكرمتنى إلى هذا الحد فاشهدوا أنى أبرأت ذمتك من كل حق لى عليك .

﴿المسألة الثانية﴾ قال أهل اللغة (حصحص الحق) معناه : وضح وانكشف وتمكن فى القلوب والنفوس من قولهم : حصحص البعير فى بروكه . إذا تمكن واستقر فى الأرض . قال الزجاج : اشتقاقه فى اللغة من الحصة ، أى بانت حصة الحق من حصة الباطل .

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلفوا فى أن قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) كلام من؟ وفيه أقوال :

﴿القول الأول﴾ وهو قول الأكثرين انه قول يوسف عليه السلام . قال الفراء : ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام انسان آخر إذا دلت القرينة عليه ومثاله ، قوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) وهذا كلام بلقيس . ثم إنه تعالى قال (وكذلك يفعلون) وأيضاً قوله تعالى (ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه) كلام الداعى .

ثم قال ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ بقى على هذا القول سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ قوله (ذلك) اشارة الى الغائب ، والمراد ههنا : الاشارة إلى تلك الحادثة الحاضرة .

والجواب : أجبنا عنه فى قوله (ذلك الكتاب) وقيل : ذلك اشارة الى مافعله من رد الرسول كأنه يقول ذلك الذى فعلت من ردى الرسول إنما كان ، ليعلم الملك أنى لم أخنه بالغيب .

﴿السؤال الثانى﴾ متى قال يوسف عليه السلام هذا القول ؟

الجواب : روى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال ذلك ليعلم وإنما ذكره على لفظ الغيبة تعظيما للملك عن الخطاب والأولى أنه عليه السلام إنما قال ذلك عند عود الرسول اليه لأن ذكر هذا الكلام فى حضرة الملك سوء أدب .

﴿السؤال الثالث﴾ هذه الخيانة وقعت فى حق العزيز فكيف يقول (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) والجواب : قيل المراد ليعلم الملك أنى لم أخن العزيز بالغيبة ، وقيل إنه إذا خان وزيره فقد خانه من بعض الوجوه ، وقيل إن الشرابى لما رجع إلى يوسف عليه السلام وهو فى السجن قال ذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه بالغيب . ثم ختم الكلام بقوله (وأن الله لايهدى كيد الخائنين . ولعل المراد منه أنى لو كنت خائناً لما خلصنى الله تعالى من هذه الورطة ، وحيث خلصنى منها ظهر أنى كنت مبرأ عما نسبونى اليه .

﴿والقول الثانى﴾ ان قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) كلام امرأة العزيز والمعنى : أنى وإن أحلت الذنب عليه عند حضوره لكنى ماأحلت الذنب عليه عند غيبته ، أى لم أقل فيه وهو فى السجن خلاف الحق . ثم إنها بالغت فى تأكيد الحق بهذا القول ، وقالت (وأن الله لايهدى كيد الخائنين) يعنى أنى لما أقدمت على الكيد والمكر . لاجرم افتضحت وأنه لما كان بريئاً عن الذنب لاجرم طهره الله تعالى عنه . قال صاحب هذا القول : والذى يدل على صحته أن يوسف عليه السلام ما كان حاضراً فى ذلك المجلس حتى يقال لما ذكرت المرأة قولها (الآن حصحص الحق أنا راودته

عن نفسه وإنه لمن الصادقين) ففى تلك الحالة يقول يوسف (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) لم يحتاج فيه إلى أن يرجع الرسول من ذلك المجلس إلى السجن ويذكر له تلك الحكاية ثم إن يوسف يقول ابتداء (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) ومثل هذا الوصل بين الكلامين الأجنبيين ماجاء البتة فى نثر ولا نظم فعلمنا أن هذا من تمام كلام المرأة .

﴿المسألة الرابعة﴾ هذه الآية دالة على طهارة يوسف عليه السلام من الذنب من وجوه كثيرة الأول : أن الملك لما أرسل إلى يوسف عليه السلام وطلبه فلو كان يوسف متهماً بفعل قبيح وقد كان صدر منه ذنب وفحش لاستحال بحسب العرف ، والعادة أن يطلب من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة ، لأنه لو كان قد أقدم على الذنب ثم إنه يطلبه من الملك أن يتفحص عن تلك الواقعة كان ذلك سعياً منه فى فضيحة نفسه وفى تجديد العيوب التى صارت مندرسة مخفية والعاقل لايفعل ذلك ، وهب أنه وقع الشك لبعضهم فى عصمته أو فى نبوته إلا أنه لاشك أنه كان عاقلا ، والعاقل يمتنع أن يسعى فى فضيحة نفسه وفى حمل الاعداء على أن يبالغوا فى اظهار عيوبه . والثانى : أن النسوة شهدن فى المرة الأولى بطهارته ونزاهته حيث قلن (حاش لله ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) وفى المرة الثانية حيث قلن (حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) والثالث : أن امرأة العزيز أقرت فى المرة الأولى بطهارته حيث قالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وفى المرة الثانيـة فى هذه الآية .

واعلم أن هـذه الآية دالة على طهارته من وجوه : أولها : قول المرأة (أنا راودته عن نفسه) وثانيها : قولها (وإنه لمن الصادقين) وهو اشارة الى أنه صادق فى قوله (هى راودتنى عن نفسى) وثالثها : قول يوسف عليه السلام (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) والحشوية يذكرون أنه لما قال يوسف هذا الكلام . قال جبريل عليه السلام . ولا حين هممت ، وهـذا من رواياتهم الخبيثة وما صحت هـذه الرواية فى كتاب معتمد ، بل هم يلحقونها بهذا الموضع سعيا منهم فى تحريف ظاهر القران . ورابعها : قوله (وأن الله لايهدى كيد الخائنين) يعنى أن صاحب الخيانة لابد وأن يفتضح . فلو كنت خائنا لوجب أن افتضح وحيث لم افتضح وخلصنى الله تعالى من هـذه الورطة . فكل ذلك يدل على أنى ما كنت من الخائنين ، وههنا وجه آخر وهو أقوى من الكل . وهو أن فى هذا الوقت تلك الواقعة صارت مندرسة ، وتلك المحنة صارت منتهية ، فاقدامه على قوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) مع أنه خانه بأعظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة عظيمة ، وعلى كذب عظيم من غير أن يتعلق به مصلحة بوجه ما ، والاقدام على مثل هذه الوقاحة من غير فائدة أصلا لا يليق بأحد من العقلاء فكيف يليق اسناده الى سيد العقلاء ، وقدوة الأصفياء ؟ فثبت أن هذه الآية تدل دلالة قاطعة على

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ «٥٣»

براءته مما يقوله الجهال والحشوية .

قوله تعالى ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾ وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن تفسير هذه الآية يختلف بحسب اختلاف ما قبلها لأنا إن قلنا إن قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كلام يوسف كان هذا أيضاً من كلام يوسف ، وإن قلنا ان ذلك من تمام كلام المرأة كان هذا أيضاً كذلك ونحن نفسر هذه الآية على كلا التقديرين ، أما اذا قلنا ان هذا كلام يوسف عليه السلام فالحشوية تمسكوا به وقالوا : إنه عليه السلام لما قال (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قال جبريل عليه السلام ولا حين هممت بفك سراويلك فعند ذلك قال يوسف (وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) أي بالزنا (إلا ما رحم ربي) أي عصم ربي (إن ربي غفور) للهم الذي هممت به (رحيم) أي لو فعلته لتاب علي .

واعلم أن هذا الكلام ضعيف فانا بينا أن الآية المتقدمة برهان قاطع على براءته عن الذنب بقي أن يقال : فما جوابكم عن هذه الآية فنقول فيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أنه عليه السلام لما قال (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس وتزكيتها ، وقال تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) فاستدرك ذلك على نفسه بقوله (وما أبرىء نفسي) والمعنى : وما أزكي نفسي ان النفس لأمارة بالسوء ميالة إلى القبائح راغبة في المعصية

﴿والوجه الثاني﴾ في الجواب أن الآية لاتدل البتة على شيء مما ذكروه وذلك لأن يوسف عليه السلام لما قال (إني لم أخنه بالغيب) بين أن ترك الخيانة ماكان لعدم الرغبة ولعدم ميل النفس والطبيعة . لأن النفس أمارة بالسوء والطبيعة تواقة إلى اللذات فبين بهذا الكلام أن الترك ماكان لعدم الرغبة ، بل لقيام الخوف من الله تعالى . أما إذا قلنا : إن هذا الكلام من بقية كلام المرأة ففيه وجهان : الأول : وما أبرىء نفسي عن مراودته ومقصودها تصديق يوسف عليه السلام في قوله (هي راودتني عن نفسي) الثاني : أنها لما قالت (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) قالت وما أبرىء نفسي عن الخيانة مطلقا فاني قد خنته حين قد أحلت الذنب عليه وقلت (ماجزاء من أراد بأهلك

سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) وأودعته السجن كأنها أرادت الاعتذار مما كان.

فان قيل: جعل هذا الكلام كلاما ليوسف أولى أم جعله كلاماً للمرأة ؟

قلنا: جعله كلاما ليوسف مشكل. لأن قوله (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) كلام موصول بعضه ببعض الى آخره، فالقول بأن بعضه كلام المرأة والبعض كلام يوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين بعيد. وأيضا جعله كلاماً للمرأة مشكل أيضاً لأن قوله (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي) كلام لا يحسن صدوره الا ممن احترز عن المعاصي، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية.

﴿المسألة الثانية﴾ قالوا (ما) في قوله (الا ما رحم ربي) بمعنى «من» والتقدير: الا من رحم ربي، وما ومن كل واحد منهما يقوم مقام الآخر كقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقال (ومنهم من يمشي على أربع) وقوله (الا ما رحم ربي) استثناء متصل أو منقطع. فيه وجهان: الأول: أنه متصل، وفي تقريره وجهان: الأول: أن يكون قوله (الا ما رحم ربي) أي الا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كالملائكة. الثاني: الا ما رحم ربي أي الا وقت رحمة ربي يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت الا في وقت العصمة.

﴿والقول الثاني﴾ انه استثناء منقطع أي ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الاساءة كقوله (ولا هم ينصرون الا رحمة منا)

﴿المسألة الثالثة﴾ اختلف الحكماء في أن النفس الأمارة بالسوء ما هي والمحققون؟ قالوا إن النفس الانسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة. فاذا مالت إلى العالم الالهي كانت نفساً مطمئنة. وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والتذت بها وعشقتها، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها اليه، فذلك لا يحصل إلا نادرا في حق الواحد، فالواحد وذلك الواحد فانما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات النادرة فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادرا لاجرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية النطقية، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية، والكلام في تحقيق الحق في هذا الباب مذكور في المعقولات.

﴿المسألة الرابعة﴾ تمسك أصحابنا في أن الطاعة والايمان لا يحصلان إلا من الله بقوله

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ «٥٤» قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ «٥٥»

(إلا ما رحم ربى) قالوا دلت الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته: ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف. فنقول: لا يمكن تفسير هذه الرحمة باعطاء العقل والقدرة والالطاف كما قاله القاضى لأن كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشيء آخر، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية وقد أثبتنا ذلك أيضاً بالبرهان القاطع وحينئذ يحصل منه المطلوب.

قوله تعالى ﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم﴾

فى الآية مسائل:

﴿المسألة الأولى﴾ اختلفوا فى هذا الملك فمنهم من قال: هو العزيز، ومنهم من قال: بل هو الريان الذى هو الملك الأكبر، وهذا هو الأظهر لوجهين: الأول: أن قول يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) يدل عليه. الثانى: أن قوله (أستخلصه لنفسى) يدل على أنه قبل ذلك ما كان خالصا له، وقد كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز، فدل هذا على أن هذا الملك هو الملك الأكبر.

﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا أن جبريل السلام دخل على يوسف عليه السلام وهو فى الحبس وقال «قل اللهم اجعل لى من عندك فرجا ومخرجا وارزقنى من حيث لا أحتسب» فقبل الله دعاءه وأظهر هذا السبب فى تخليصه من السجن، وتقرير الكلام: أن الملك عظم اعتقاده فى يوسف لوجوه: أحدها: أنه عظم اعتقاده فى علمه. وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب وقدر هو على الجواب الموافق الذى يشهد العقل بصحته مال الطبع اليه، وثانيها: أنه عظم اعتقاده فى صبره وثباته، وذلك لأنه بعد أن بقى فى السجن بضع سنين لما أذن له فى الخروج ما أسرع الى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أولا ما يدل على براءة حاله عن جميع التهم. وثالثها: أنه عظم اعتقاده فى حسن أدبه، وذلك لأنه اقتصر على قوله (ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) وإن كان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها، وتعرض لأمر سائر النسوة مع أنه وصل اليه من جهتها أنواع عظيمة من البلاء

وهذا من الأدب العجيب . ورابعها : براءة حاله عن جميع أنواع التهم فان الخصم أقر له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم . وخامسها : أن الشرابى وصف له جده فى الطاعات واجتهاده فى الاحسان إلى الذين كانوا فى السجن . وسادسها : انه بقى فى السجن بضع سنين ، وهذه الأمور كل واحد منها يوجب حسن الاعتقاد فى الانسان . فكيف مجموعها . فلهذا السبب حسن اعتقاد الملك فيه وإذا أراد الله شيئاً جمع أسبابه وقواها .

إذا عرفت هذا فنقول : لما ظهر للملك هذه الأحوال من يوسف عليه السلام رغب أن يتخذه لنفسه فقال (ائتونى به أستخلصه لنفسى) روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام قم إلى الملك متنظفا من درن السجن بالثياب النظيفة والهيئة الحسنة فكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة الأصدقاء ولما دخل عليه قال اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم دخل عليه وسلم ودعا له بالعبرانية والاستخلاص طلب خلوص الشىء من شوائب الاشتراك وهذا الملك طلب أن يكون يوسف له وحده وأنه لا يشاركه فيه غيره لأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة الرفيعة فلما علم الملك أنه وحيد زمانه وفريد أقرانه أراد أن ينفرد به .

روى أن الملك قال ليوسف عليه السلام مامن شىء إلا وأحب أن تشركنى فيه إلا فى أهلى وفى أن لا تأكل معى فقال يوسف عليه السلام . أما ترى أن آكل معك ، وأنا يوسف بن يعقوب ابن إسحق الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام . ثم قال (فلما كلمه) وفيه قولان : أحدهما : أن المراد فلما كلم الملك يوسف عليه السلام قالوا لأن فى مجالس الملوك لا يحسن لأحد أن يبتدىء بالكلام وإنما الذى يبتدىء به هو الملك . والثانى : أن المراد : فلما كلم يوسف الملك قيل : لما صار يوسف الى الملك وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة . فلما رآه الملك حدثا شابا قال للشرابى : هذا هو الذى علم تأويل رؤياى مع أن السحرة والكهنة ماعلموها قال نعم . فأقبل على يوسف وقال : إنى أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاها . فأجاب بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته . فعندذلك قال له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) يقال : فلان مكين عند فلان بين المكانة أى المنزلة ، وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد . وقوله (أمين) أى قد عرفنا أمانتك وبراءتك مما نسبت اليه .

واعلم أن قوله (مكين أمين) كلمة جامعة لكل مايحتاج اليه من الفضائل والمناقب ، وذلك لأنه لابد فى كونه مكينا من القدرة والعلم . أما القدرة فلأن بها يحصل المكنة . وأما العلم فلأن كونه متمكنا من أفعال الخير لا يحصل إلا به إذ لو لم يكن عالما بما ينبغى وبما لا ينبغى لا يمكنه تخصيص ماينبغى

بالفعل ، وتخصيص مالاينبغى بالترك ، فثبت أن كونه مكينا لايحصل إلا بالقدرة والعلم . أما كونه أمينا فهو عبارة عن كونه حكيما لا يفعل الفعل لداعى الشهوة بل إنما يفعله لداعى الحكمة ، فثبت أن كونه مكينا أمينا يدل على كونه قادرا ، وعلى كونه عالما بمواقع الخير والشر والصلاح والفساد ، وعلى كونه بحيث يفعل لداعى الحكمة لا لداعية الشهوة ، وكل من كان كذلك فانه لايصدر عنه فعل الشر والسفه فلهذا المعنى لما حاولت المعتزلة اثبات أنه تعالى لايفعل القبيح قالوا إنه تعالى لايفعل القبيح لأنه تعالى عالم بقبح القبيح عالم بكونه غنيا عنه وكل من كان كذلك لم يفعل القبيح قالوا : وانما يكون غنيا عن القبيح إذا كان قادرا . وإذا كان منزها عن داعية السفه فثبت أن وصفه بكونه مكينا أمينا نهاية مايمكن ذكره فى هذا الباب ثم حكى تعالى أن يوسف عليه السلام قال فى هذا المقام (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال المفسرون : لما عبر يوسف عليه السلام رؤيا الملك بين يديه قال له الملك : فما ترى أيها الصديق قال : أرى أن تزرع فى هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا جاءت السنون المجدبة بعنا الغلات فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لى بهذا الشغل فقال يوسف (اجعلنى على خزائن الأرض) أى على خزائن أرض مصر وأدخل الألف واللام على الأرض ، والمراد منه المعهود السابق . روى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية أنه قال «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الأرض لأستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك أخره عنه سنة» وأقول هذا من العجائب لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن سهل الله عليه ذلك على أحسن الوجوه ولما تسارع فى ذكر الالتماس أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى الله تعالى أولى .

﴿المسألة الثانية﴾ لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الامارة والنبى عليه الصلاة والسلام قال لعبد الرحمن بن سمرة «لاتسأل الامارة» وأيضا فكيف طلب الامارة من سلطان كافر ، وأيضا لم لم يصبر مدة ولم أظهر الرغبة فى طلب الامارة فى الحال ، وأيضا لم طلب أمر الخزائن فى أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع تهمة . وأيضا كيف جوز من نفسه مدح نفسه بقوله (إنى حفيظ عليم) مع أنه تعالى يقول (فلا تزكوا أنفسكم) وأيضا فما الفائدة فى قوله (إنى حفيظ عليم) وأيضا لم ترك الاستثناء فى هذا فان الأحسن أن يقول : إنى حفيظ عليم ان شاء الله بدليل قوله تعالى (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فهذه أسئلة سبعة لابد من جوابها . فنقول : الأصل فى جواب هذه

المسائل أن التصرف فى أمور الخلق كان واجباعليه ، فجاز له أن يتوصل اليه بأى طريق كان . إنما قلنا : إن ذلك التصرف كان واجباعليه لوجوه : الأول : أنه كان رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق . والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الامكان . والثانى : وهو أنه عليه السلام علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى الى هلاك الخلق العظيم ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر فى ذلك ويأتى بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط فى حق الخلق ، والثالث : أن السعى فى إيصال النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول .

واذا ثبت هذا فنقول : إنه عليه السلام كان مكلفا برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه ، وما كان يمكنه رعايتها إلا بهذا الطريق ، ومالا يتم الواجب إلا به . فهو واجب ، فكان هذا الطريق واجبا عليه ولما كان واجبا سقطت الأسئلة بالكلية ، وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى : كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة ، وأقول : لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء لاعتقد فيه الملك أنه انما ذكره لعلمه بأنه لاقدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء ، واما قوله لم مدح نفسه فجوابه من وجوه : الأول : لانسلم أنه مدح نفسه لكنه بين كونه موصوفا بهاتين الصفتين النافعتين فى حصول هذا المطلوب ، وبين البابين فرق وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف، لأن الملك وان علم كماله فى علوم الدين لكنه ماكان عالما بأنه يفى بهذا الأمر، ثم نقول هب أنه مدح نفسه إلا أن مدح النفس انما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير مايحل ، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم فقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) المراد منه تزكية النفس حال مايعلم كونها غير متزكية ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية (هو أعلم بمن اتقى) أما إذا كان الانسان عالما بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه والله أعلم .

قوله ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم ؟

قلنا : إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال ، عليم بالجهات التى تصلح لأن يصرف المال اليها ، ويقال : حفيظ بجميع مصالح الناس ، عليم بجهات حاجاتهم أويقال : حفيظ لوجوه أياديك وكرمك ، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع. وهذا باب واسع يمكن تكثيره لمن أراده .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٥٦» وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٧»

قوله تعالى ﴿وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾

فيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام لما التمس من الملك أن يجعله على خزائن الأرض لم يحك الله عن الملك أنه قال : قد فعلت ، بل الله سبحانه قال (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) فههنا المفسرون قالوا فى الكلام محذوف وتقديره : قال الملك قد فعلت ، إلا أن تمكين الله له فى الأرض يدل على أن الملك قد أجابه الى ماسأل . وأقول : ماقالوه حسن ، إلا أن ههنا ماهو أحسن منه وهو أن إجابة الملك له سبب فى عالم الظاهر . وأما المؤثر الحقيق : فليس إلا أنه تعالى مكنه فى الأرض ، وذلك لأن ذلك الملك كان متمكنا من القبول ومن الرد ، فنسبة قدرته الى القبول وإلى الرد على التساوى ، ومادام يبقى هذا التساوى امتنع حصول القبول ، فلابد وأن يترجح القبول على الرد فى خاطر ذلك الملك ، وذلك الترجح لايكون إلا بمرجح يخلقه الله تعالى ، واذا خلق الله تعالى ذلك المرجح حصل القبول لامحالة . فالتمكن ليوسف فى الأرض ليس إلا من خلق الله تعالى فى قلب ذلك الملك بمجموع القدرة والداعية الجازمة اللتين عند حصولها يجب الأثر ، فلهذا السبب ترك الله تعالى ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الالهى ، لأن المؤثر الحقيق ليس إلا هو .

﴿المسألة الثانية﴾ روى أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعله فى أصبعه وقلد بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت ، فقال يوسف عليه السلام : أما السرير فأشد به ملكك وأما الخاتم فأدبر به أمرك ، وأما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى ، وجلس على السرير ودانت له القوم ، وعزل الملك قطفير زوج المرأة المعلومه ومات بعد ذلك وزوجه الملك امرأته ، فلما دخل عليها قال أليس هذا خيرا مما طلبت ، فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرايم وميشا . وأقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء ، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الأولى . ثم بالحلى والجواهر فى السنة الثانية

ثم بالدواب ثم بالضياع والعقار . ثم برقابهم حتى استرقهم سنين . فقالوا والله ما رأينا ملكا أعظم شأناً من هذا الملك حتى صار كل الخلق عبيداً له فلما سمع ذلك قال إنى أشهد الله أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم أملاكهم . وكان لا يبيع لأحد ممن يطلب الطعام أكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هكذا رواه صاحب الكشاف والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (وكذلك) الكاف منصوبة بالتمكين . وذلك إشارة إلى ماتقدم يعنى به ومثل ذلك الانعام الذى أنعمنا عليه فى تقريبنا إياه من قلب الملك وإنجائنا إياه من غم الحبس ، وقوله (مكنا ليوسف فى الأرض) أى أقدرناه على مايريد برفع الموانع وقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) يتبوأ فى موضع نصب على الحال تقديره مكناه متبوأ وقرأ ابن كثير (نشاء) بالنون مضافاً إلى الله تعالى والباقون بالياء مضافا إلى يوسف .

واعلم أن قوله ﴿يتبوأ منها حيث يشاء﴾ يدل على أنه صار فى الملك بحيث لا يدافعه أحد . ولا ينازعه منازع بل صار مستقلا بكل ماشاء وأراد . ثم بين تعالى مايؤكد أن ذلك من قبله فقال (نصيب برحمتنا من نشاء)

واعلم أنه تعالى ذكر أولا أن ذلك التمكين كان من الله لا من أحد سواه وهو قوله (كذلك مكنا ليوسف فى الأرض) ثم أكد ذلك ثانياً بقوله (نصيب برحمتنا من نشاء) وفيه فائدتان :

﴿الفائدة الأولى﴾ أن هذا يدل على أن الكل من الله تعالى . قال القاضى : تلك المملكة لما لم تتم إلا بالأمور فعلها الله تعالى صارت كأنها حصلت من قبله تعالى .

وجوابه : أنا ندعى أن نفس تلك المملكة إنما حصلت من قبل الله تعالى . لأن لفظ القرآن يدل على قولنا ، والبرهان القاطع الذى ذكرناه يقوى قولنا ، فصرف هذا اللفظ إلى المجاز لا سبيل إليه .

﴿الفائدة الثانية﴾ أنه أتاه ذلك الملك بمحض المشيئة الالهية والقدرة النافذه . قال القاضى : هذه الآية تدل على أنه تعالى يجرى أمر نعمه على مايقتضيه الصلاح .

قلنا : الآية تدل على أن الأمور معلقة بالمشيئة الالهية والقدرة المحضة . فأما رعاية قيد الصلاح ، فأمر اعتبرته أنت من نفسك مع أن اللفظ لا يدل عليه .

ثم قال تعالى (ولا نضيع أجر المحسنين) وذلك لأن اضاعة الأجر إما أن يكون للعجز أو للجهل أو للبخل والكل ممتنع فى حق الله تعالى ، فكانت الاضاعة ممتنعة .

واعلم أن هذا شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين ولو صدق قول

بأنه جلس بين شعبها الأربع لامتنع أن يقال : انه كان من المحسنين ، فههنا لزم إما تكذيب الله فى حكمه على يوسف بأنه كان من المحسنين وهو عين الكفر أو لزم تكذيب الحشوى فيما رواه وهو عين الايمان والحق .

ثم قال تعالى ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ فى تفسير هذه الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ المراد منه أن يوسف عليه السلام وإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة فى الدنيا . إلا أن الثواب الذى أعده الله له فى الآخرة خير وأفضل وأكمل . وجهات الترجيح قد ذكرناها فى هذا الكتاب مراراً وأطوارا . وحاصل تلك الوجوه أن الخير المطلق هو الذى يكون نفعاً خالصاً دائماً مقروناً بالتعظيم ، وكل هذه القيود الأربعة حاصلة فى خيرات الآخرة ومفقودة فى خيرات الدنيا .

﴿القول الثانى﴾ أن لفظ الخير قد يستعمل لكون أحد الخبرين أفضل من الآخر كما يقال : الجلاب خير من الماء وقد يستعمل لبيان كونه فى نفسه خيراً من غير أن يكون المراد منه بيان التفضيل كما يقال : الثريد خير من الله . يعنى الثريد خير من الخيرات حصل باحسان من الله .

إذا ثبت هذا فقوله (ولأجر الآخرة خير) إن حملناه على الوجه الأول لزم أن تكون ملاذ الدنيا موصوفة بالخيرية أيضاً . وأما إن حملناه على الوجه الثانى لزم أن لا يقال ان منافع الدنيا أيضاً خيرات . بل لعله يفيد أن خير الآخرة هو الخير ، وأما ماسواه فعبث .

﴿المسألة الثانية﴾ لاشك أن المراد من قوله (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) شرح حال يوسف عليه السلام فوجب أن يصدق فى حقه أنه من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهذا تنصيص من الله عز وجل . على أنه كان فى الزمان السابق من المتقين ، وليس ههنا زمان سابق ليوسف عليه السلام يحتاج إلى بيان أنه كان فيه من المتقين إلا ذلك الوقت الذى قال الله فيه (ولقد همت به وهم بها) فكان هذا شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان فى ذلك الوقت من المتقين ، وأيضاً قوله (ولا نضيع أجر المحسنين) شهادة من الله تعالى على أنه عليه السلام كان من المحسنين . وقوله (إنه من عبادنا المخلصين) شهادة من الله تعالى على أنه من المخلصين فثبت أن الله تعالى شهد بأن يوسف عليه السلام كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين ، والجاهل الحشوى يقول : إنه كان من الأخسرين المذنبين ، ولا شك أن من لم يقل بقول الله سبحانه وتعالى مع هذه التأكيدات كان من الأخسرين .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ «٥٨» وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «٥٩» فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ «٦٠» قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ «٦١»

﴿المسألة الثالثة﴾ قال القاضي: قوله تعالى (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) يدل على بطلان قول المرجئة: الذين يزعمون أن الثواب يحصل في الآخرة لمن لم يتق الكبائر.

قلنا: هذا ضعيف. لأنا ان حملنا لفظ خير على أفعل التفضيل لزم أن يكون الثواب الحاصل للمتقين أفضل ولا يلزم أن لا يحصل لغيرهم أصلا، وان حملناه على أصل معنى الخيرية، فهذا يدل على حصول هذا الخير المتقين ولا يدل على أن غيرهم لا يحصل لهم هذا الخير.

قوله تعالى ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾

اعلم أنه لما عم القحط في البلاد. ووصل أيضا الى البلدة التي كان يسكنها يعقوب عليه السلام وصعب الزمان عليهم فقال لبنيه إن بمصر رجلا صالحا يمير الناس فاذهبوا اليه بدراهمكم وخذوا الطعام فخرجوا اليه وهم عشرة ودخلوا على يوسف عليه السلام وصارت هذه الواقعة كالسبب في اجتماع يوسف عليه السلام مع اخوته وظهور صدق ماأخبر الله تعالى عنه في قوله ليوسف عليه السلام حال ماألقوه في الجب (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وأخبر تعالى أن يوسف عرفهم وهم ماعرفوه البتة. أماانه عرفهم فلانه تعالى كان قد أخبره في قوله (لتنبئنهم بأمرهم) بأنهم يصلون إليه ويدخلون عليه. وأيضا الرؤيا التي رآها كانت دليلا على أنهم يصلون اليه، فلهذا السبب كان يوسف عليه السلام مترصدا لذلك الأمر، وكان كل من وصل إلى بابه من البلاد البعيدة يتفحص عنهم ويتعرف أحوالهم ليعرف أن هؤلاء الواصلين هل هم اخوته أم لا فلما وصل اخوة

يوسف إلى باب داره تفحص عن أحوالهم تفحصا ظهر له أنهم اخوته ، وأما أنهم ماعرفوه فلوجوه : الأول : أنه عليه السلام أمر حجابه بأن يوقفوهم من البعد وماكان يتكلم معهم الابالواسطة ومتى كان الأمر كذلك لاجرم أنهم لم يعرفوه لاسيما مهابة الملك وشدة الحاجة يوجبان كثرة الخوف ، وكل ذلك مما يمنع من التأمل التام الذى عنده يحصل العرفان . والثانى : هو أنهم حين ألقوه فى الجب كان صغيرا ، ثم إنهم رأوه بعد وفور اللحية . وتغير الزى والهيئة فانهم رأوه جالسا على سريره ، وعليه ثياب الحرير ، وفى عنقه طوق من ذهب ، وعلى رأسه تاج من ذهب ، والقوم أيضا نسوا واقعة يوسف عليه السلام لطول المدة . فيقال : إن من وقت ماألقوه فى الجب الى هذا الوقت كان قد مضى أربعون سنة ، وكل واحد من هذه الأسباب يمنع من حصول المعرفة ، لاسيما عند اجتماعها ، والثالث : أن حصول العرفان والتذكير بخلق الله تعالى ، فلعله تعالى ماخلق ذلك العرفان والتذكير فى قلوبهم تحقيقا لما أخبره عنه بقوله (لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) وكان ذلك من معجزات يوسف عليه السلام ،

ثم قال تعالى ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ قال الليث : جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهازهم للسفر ، وكذلك جهاز العروس والميت وهو مايحتاج اليه فى وجهه . قال : وسمعت أهل البصرة يقولون : الجهاز بالكسر . قال الأزهرى : القراء كلهم على فتح الجيم ، والكسر لغة ليست بجيدة ، قال المفسرون : حمل لكل رجل منهم بعيرا وأكرمهم أيضا بالنزول وأعطاهم مااحتاجوا اليه فى السفر ، فذلك قوله (جهزهم بجهازهم) ثم بين تعالى أنه لما جهزهم بجهازهم قال (ائتونى بأخ لكم من أبيكم)

واعلم أنه لابد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيهم . وذكروا فيه وجوها :

﴿الوجه الأول﴾ وهو أحسنها إن عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لاأزيد عليه ولا أنقص ، وإخوة يوسف الذين ذهبوا اليه كانوا عشرة ، فأعطاهم عشرة أحمال ، فقالوا : إن لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ولا بد لهما أيضا من شىء من الطعام فجهز لهما أيضا بعيرين آخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على أن حب أبيكم له أزيد من حبه لكم . وهذا شىء عجيب لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم دل هذا على أن ذلك أعجوبة فى العقل . وفى الفضل والأدب فجيئونى به حتى أراه فهذا السبب محتمل مناسب

﴿والوجه الثانى﴾ أنهم لما دخلوا عليه ، عليه السلام وأعطاهم الطعام قال لهم : من أنتم ؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال : لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن اخوة بنو أب واحد شيخ صديق نبى اسمه يعقوب قال : كم أنتم قالوا : كنا اثنى عشر فهلك منا واحد وبقى واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذى هلك ، ونحن عشرة وقد جئناك قال : فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخ لكم من أبيكم ليبلغ الى رسالة أبيكم فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون ، وكان أحسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده .

﴿والوجه الثالث﴾ لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف : فلم تركتموه وحيدا فريدا ؟ قالوا : ماتركناه وحيدا ، بل بقى عنده واحد . فقال لهم : لم استخلصه لنفسه ولم خصه بهذا المعنى لأجل نقص فى جسده ؟ فقالوا : لا . بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد فعندهذا قال يوسف لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم بعيد عن المجازفة ، ثم انه خصه بمزيد المحبة وجب أن يكون زائدا عليكم فى الفضل ، وصفات الكمال مع انى أراكم فضلاء علماء حكماء فاشتاقت نفسى إلى رؤية ذلك الأخ فائتونى به ، والسبب الثانى : ذكره المفسرون . والأول والثالث محتمل والله أعلم .

ثم إنه تعالى حكى عنه أنه قال (ألا ترون أنى أوف الكيل) أى أتمه ولا أبخسه . وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم ، وأنا خير المنزلين ، أى خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم . وأقول : هذا الكلام يضعف الوجه الثانى وهو الذى نقلناه عن المفسرين ، لأن مدار ذلك الوجه على أنه اتهمهم ونسبهم الى أنهم جواسيس ، ولو شافههم بذلك الكلام فلا يليق به أن يقوم لهم (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) وأيضا يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا أن يقول لهم أنتم جواسيس وعيون ، مع أنه يعرف براءتهم عن هذه التهمة . لأن البهتان لا يليق بحال الصديق .

ثم قال ﴿فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون﴾

واعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ جمع بين الترغيب والترهيب . أما الترغيب : فهو قوله (ألا ترون أنى أوف الكيل وأنا خير المنزلين) وأما الترهيب : فهو قوله (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) وذلك لأنهم كانوا فى نهاية الحاجة الى تحصيل الطعام . وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فاذا منعهم من الحضور عنده كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف ، ثم إنهم لما سمعوا هذا الكلام من يوسف قالوا (سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) أى سنجتهد ونحتال على أن ننتزعه من يده ، وإنا لفاعلون هذه المراودة ، والغرض من التكرير

وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٦٢» فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ «٦٣» قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٦٤»

التأكيد ، ويحتمل أن يكون (وإنا لفاعلون) أن نجيئك به . ويحتمل (وإنا لفاعلون) كل ما فى وسعنا من هذا الباب .

قوله تعالى ﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لفتيانه بالألف والنون والباقون (لفتيته) بالتاء من غير ألف ، وهما لغتان كالصبيان والصبية ، والاخوان والاخوة قال أبو على الفارسى الفتية جمع فتى فى العدد القليل والفتيان للكثير ، فوجه البناء الذى للعدد القليل أن الذين يحيطون بما يجعلون بضاعتهم فيه من رحالهم يكونون قليلين لأن هذا من باب الاسرار فوجب صونه إلا عن العدد القليل ووجه الجمع الكثير أنه قال (اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) والرحال تفيد العدد الكثير فوجب أن يكون الذين يباشرون ذلك العمل كثيرين .

﴿المسألة الثانية﴾ اتفق الأكثرون على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة فى رحالهم ومنهم من قال إنهم كانوا عارفين به . وهو ضعيف لأن قوله (لعلهم يعرفونها) يبطل ذلك ثم اختلفوا فى السبب الذى لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم فى رحالهم على وجوه : الأول : أنهم متى فتحوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه . علموا أن ذلك كان كرماً من يوسف وسخاء محضا فيبعثهم ذلك على العود اليه والحرص على معاملته . الثانى : خاف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى

الثالث : أراد به التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط . الرابع : رأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم . الخامس : قال الفراء : إنهم متى شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم . وقع فى قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو وهم أنبياء وأولاد الأنبياء فرجعوا ليعرفوا السبب فيه ، أو رجعوا ليردوا المال الى مالكه . السادس : أراد أن يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منة . السابع : مقصوده أن يعرفوا أنه لا يطلب ذلك الأخ لأجل الايذاء والظلم ولا لطلب زيادة فى الثمن . الثامن : أراد أن يعرف أبوه أنه أكرمهم وطلبه له لمزيد الاكرام فلا يثقل على أبيه ارسال أخيه . التاسع : أراد أن يكون ذلك المال معونة لهم على شدة الزمان ، وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق . فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حتى تبقى مخفية الى أن يصلوا الى أبيهم . العاشر : أراد أن يقابل مبالغتهم فى الاساءة بمبالغته فى الاحسان اليهم .

ثم انه تعالى حكى عنهم أنهم لما رجعوا الى أبيهم قالوا ﴿يا أبانا منع منا الكيل﴾ وفيه قولان : الأول : أنهم لما طلبوا الطعام لأبيهم وللأخ الباقى عنده منعوا منه ، فقولهم (منع منا الكيل) اشارة اليه . والثانى : أنه منع الكيل فى المستقبل وهو اشارة الى قول يوسف (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) والدليل على أن المراد ذلك قولهم (فأرسل معنا أخانا نكتل) قرأ حمزة والكسائى : (يكتل) بالياء ، والباقون بالنون ، والقراءة الأولى تقوى القول الأول ، والقراءة الثانية تقوى القول الثانى . ثم قالوا (وإنا له لحافظون) ضمنوا كونهم حافظين له ، فلما قالوا ذلك قال يعقوب عليه السلام (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) والمعنى أنكم ذكرتم قبل هذا الكلام فى يوسف وضمنتم لى حفظه حيث قلتم (وإنا له لحافظون) ثم ههنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ههنا أمانى إلا ما كان هناك يعنى لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل ههنا .

ثم قال ﴿فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾ قرأ حمزة . والكسائى (حافظاً) بالألف على التميز والتفسير على تقدير هو خير لكم حافظا كقولهم : هو خيرهم رجلا ، ولله دره فارسا ، وقيل : على الحال والباقون (حفظا) بغير ألف على المصدر يعنى خيركم حفظا يعنى حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم . وقرأ الأعمش (فالله خير حافظ) وقرأ أبو هريرة رضى الله عنه خير الحافظين وهو أرحم الراحمين ، وقيل : معناه وثقت بكم فى حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان فالآن أتوكل على الله فى حفظ بنيامين .

فان قيل : لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ «٦٥»

قلنا : لوجوه : أحدها : أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح ، وثانيها : أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف عليه السلام ، وثالثها : أن ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك ، ورابعها : لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه .

فان قيل : هل يدل قوله (فالله خير حافظا) على أنه أذن فى ذهاب ابنه بنيامين فى ذلك الوقت .

قلنا : الأكثرون قالوا : يدل عليه . وقال آخرون : لا يدل عليه ، وفيه وجهان : الأول : التقدير أنه لو أذن فى خروجه معهم لكان فى حفظ الله لا فى حفظهم . الثانى : أنه لما ذكر يوسف قال : (فالله خير حافظا) أى ليوسف لأنه كان يعلم أنه حى .

قوله تعالى ﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا ياأبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾

اعلم أن المتاع ما يصلح لأن يستمتع به وهو عام فى كل شىء ، ويجوز أن يراد به ههنا الطعام الذى حملوه ، ويجوز أن يراد به أوعية الطعام .

ثم قال ﴿وجدوا بضاعتهم ردت اليهم﴾ واختلف القراء فى (ردت) فالأكثرون بضم الراء ، وقرأ علقمة بكسر الراء . قال صاحب الكشاف : كسرة الدال المدغمة نقلت الى الراء كما فى قيل وبيع . وحكى قطرب أنهم قالوا فى قولنا : ضرب زيد على نقل كسرة الراء فيمن سكنها الى الضاد . وأما قوله (مانبغى) فى كلمة (ما) قولان :

﴿القول الأول﴾ أنها للنفى ، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه : الأول : أنهم كانوا قد وصفوا يوسف بالكرم واللطف وقالوا : إنا قدمنا على رجل فى غاية الكرم أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب لما فعل ذلك ، فقولهم (مانبغى) أى بهذا الوصف الذى ذكرناه كذبا ولا ذكر شىء لم يكن . الثانى : أنه بلغ فى الاكرام الى غاية ما وراءها شىء آخر ، فانه بعد أن بالغ فى إكرامنا أمر ببضاعتنا فردت الينا . الثالث : المعنى أنه رد بضاعتنا الينا ، فنحن لا نبغى منك عند رجوعنا اليه بضاعة أخرى ، فان هذه التى معنا كافية لنا .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ «٦٦»

﴿والقول الثانى﴾ أن كلمة «ما» ههنا للاستفهام . والمعنى : لما رأوا أنه رد اليهم بضاعتهم قالوا : مانبغى بعد هذا . أى أعطانا الطعام ، ثم رد علينا ثمن الطعام على أحسن الوجوه . فأى شىء نبغى وراء ذلك ؟

واعلم أنا إذا حملنا «ما» على الاستفهام صار التقدير أى شىء نبغى فوق هذا الاكرام إن الرجل رد دراهمنا الينا فاذا ذهبنا اليه نمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير بسبب حضور أخينا . قال الأصمعى : يقال ماره يميره ميرا إذا أتاه بميرة أى بطعام ومنه يقال : ماعنده خير ولامير وقوله (ونزداد كيل بعير) معناه : أن يوسف عليه السلام كان يكيل لكل رجل حمل بعير فاذا حضر أخوه فلابد وأن يزداد ذلك الحمل ، وأما إذا حملنا كلمة «ما» على النفى كان المعنى لانبغى شيئا آخر هذه بضاعتنا ردت الينا فهى كافية لثمن الطعام فى الذهاب الثانى ، ثم نفعل كذا وكذا .

وأما قوله ﴿ذلك كيل يسير﴾ ففيه وجوه : الأول : قال مقاتل : ذلك كيل يسير على هذا الرجل المحسن لسخائه وحرصه على البذل وهو اختيار الزجاج . والثانى : ذلك كيل يسير ، أى قصير المدة ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الحبس والتأخير . والثالث : أن يكون المراد ذلك الذى يدفع الينا دون أخينا شىء يسير قليل فابعث أخانا معنا حتى نتبدل تلك القلة بالكثرة .

قوله تعالى ﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتونى موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل﴾

اعلم أن الموثق مصدر بمعنى الثقة ، ومعناه : العهد الذى يوثق به فهو مصدر بمعنى المفعول يقول : لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثوقا به وقوله (من الله) أى عهدا موثوقا به بسبب تأكده باشهاد الله وبسبب القسم بالله عليه . وقوله (لتأتننى به) دخلت اللام ههنا لأجل أنا بينا أن المراد بالموثق من الله اليمين فتقديره : حتى تحلفوا بالله لتأتننى به . وقوله (إلا أن يحاط بكم) فيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال صاحب الكشاف : هذا الاستثناء متصل . فقوله (إلا أن يحاط بكم) مفعول له . والكلام المثبت الذى هو قوله (لتأتننى به) فى تأويل المنفى . فكان المعنى : لا تمتنعون

وَقَالَ يَابَنِيَّ لَاتَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَاأُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «٦٧»

من الاتيان به لعلة من العلل إلالعلة واحدة .

﴿البحث الثانى﴾ قال الواحدى للمفسرين فيه قولان :

﴿القول الأول﴾ ان قوله (إلا أن يحاط بكم) معناه الهلاك قال مجاهد : إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندى ، والعرب تقول أحيط بفلان إذا قرب هلاكه قال تعالى (وأحيط بثمره) أى أصابه ما أهلكه . وقال تعالى (وظنوا أنهم أحيط بهم) وأصله أن من أحاط به العدو وانسدت عليه مسالك النجاة دنا هلاكه ، فقيل : لكل من هلك قد أحيط به .

﴿والقول الثانى﴾ ماذكره قتادة (إلا أن يحاط بكم) إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين ، فلا تقدرون على الرجوع .

ثم قال تعالى ﴿فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ يريد شهيد . لأن الشهيد وكيل بمعنى أنه موكول اليه هذا العهد فان وفيتم به جازاكم بأحسن الجزاء ، وإن غدرتم فيه كافأكم بأعظم العقوبات .

قوله تعالى ﴿وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾

اعلم أن أبناء يعقوب لما عزموا على الخروج إلى مصر . وكانوا موصوفين بالكمال والجمال وأبناء رجل واحد قال لهم (لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وفيه قولان : الأول : وهو قول جمهور المفسرين أنه خاف من العين عليهم ولنا ههنا مقامان :

﴿المقام الأول﴾ اثبات ان العين حق والذى يدل عليه وجوه : الأول : اطباق المتقدمين من المفسرين على أن المراد من هذه الآية ذلك . والثانى : ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن والحسين فيقول «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحق صلوات الله عليهم . والثالث : ماروى عبادة ابن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ثم

عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى فقال «إن جبريل عليه السلام أتانى ورقانى فقال : بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك» قال فأفقت . والرابع : روى أن بنى جعفر ابن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا . فقالت أسماء : يارسول الله إن العين إليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين فقال لها نعم . والخامس : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت أم سلمة وعندها صبى يشتكى فقالوا : يارسول الله أصابته العين فقال أفلا تسترقون له من العين . والسادس : قوله عليه السلام «العين حق ولو كان شىء يسبق القدر لسبقت العين القدر» والسابع : قالت عائشة رضى الله عنها : كان يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغسل منه المعين الذى أصيب بالعين .

﴿المقام الثانى﴾ فى الكشف عن ماهيته فنقول : إن أبا على الجبائى أنكر هذا المعنى انكارا بليغا ولم يذكر فى انكاره شبهة فضلا عن حجة ، وأما الذين اعترفوا به وأقروا بوجوده فقد ذكروا فيه وجوهاً : الأول : قال الحافظ : إنه يمتد من العين أجزاء فتصل بالشخص المستحسن فتؤثر فيه وتسرى فيه كتأثير اللسع والسم والنار ، وإن كان مخالفاً فى جهة التأثير لهذه الأشياء قال القاضى : وهذا ضعيف لأنه لو كان الأمر كما قال ، لوجب أن يؤثر فى الشخص الذى لا يستحسن كتأثيره فى المستحسن واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف . وذلك لأنه إذا استحسن شيئا فقد يحب بقاءه كما إذا استحسن ولد نفسه وبستان نفسه ، وقد يكره بقاءه أيضاً كما إذا أحس الحاسد بشىء حصل لعدوه ، فان كان الأول فانه يحصل له عند ذلك الاستحسان خوف شديد من زواله والخوف الشديد يوجب انحصار الروح فى داخل القلب فحينئذ يسخن القلب والروح جداً ، ويحصل فى الروح الباصرة كيفية قوية مسخنة وإن كان الثانى : فانه يحصل عند ذلك الاستحسان حسد شديد وحزن عظيم بسبب حصول تلك النعمة لعدوه . والحزن أيضاً يوجب انحصار الروح فى داخل القلب ويحصل فيه سخونة شديدة ، فثبت أن عند الاستحسان القوى تسخن الروح جداً فيسخن شعاع العين بخلاف ما إذا لم يستحسن فانه لاتحصل هذه السخونة فظهر الفرق بين الصورتين ، ولهذا السبب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم العائن بالوضوء ومن أصابته العين بالاغتسال .

﴿الوجه الثانى﴾ قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخى إنه لايمتنع أن تكون العين حقا ، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشىء وأعجب به استحسانا كان المصلحة له فى تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشىء حتى لايبقى قلب ذلك المكلف متعلقا به . فهذا المعنى غير ممتنع ، ثم لايبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الاعجاب وسأل ربه تقية ذلك ، فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لاجرم قيل العين حق .

﴿الوجه الثالث﴾ وهو قول الحكماء قالوا هذا الكلام مبنى على مقدمة . وهى أنه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب هذه الكيفيات المحسوسة أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق . والذى يدل عليه أن اللوح الذى يكون قليل العرض إذا كان موضوعا على الأرض . قدر الانسان على المشى عليه . ولو كان موضوعا فيما بين جدارين عاليين لعجز الانسان عن المشى عليه ، وما ذاك الا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فعلمنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً أن الانسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له حصل فى قلبه غضب . ويسخن مزاجه جداً فمبدأ تلك السخونة ليس الا ذلك التصور النفسانى ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس الا التصورات النفسانية . فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها الى سائر الأبدان . فثبت أنه لا يمتنع فى العقل كون النفس مؤثرة فى سائر الأبدان وأيضا جواهر النفوس المختلفة بالماهية فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر فى تغيير بدن حيوان آخر بشرط أن يراه ويتعجب منه ، فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه والنفوس النبوية نطقت به فعنده لا يبقى فى وقوعه شك .

وإذا ثبت هذا ثبت أن الذى أطبق عليه المتقدمون من المفسرين فى تفسير هذه الآية باصابة العين كلام حق لا يمكن رده .

﴿القول الثانى﴾ وهو قول أبى على الجبائى : أن أبناء يعقوب اشتهروا بمصر وتحدث الناس بهم وبحسنهم وكمالهم . فقال (لا تدخلوا) تلك المدينة (من باب واحد) على ما أنتم عليه من العدد والهيئة فلم يأمن عليهم حسد الناس أو يقال : لم يأمن عليهم أن يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم . واعلم أن هذا الوجه محتمل لا إنكار فيه إلا أن القول الأول قد بينا أنه لا امتناع فيه بحسب العقل والمفسرون أطبقوا عليه فوجب المصير إليه . ونقل عن الحسن أنه قال : خاف عليهم العين ، فقال : (لا تدخلوا من باب واحد) ثم رجع إلى علمه وقال (وما أغنى عنكم من الله من شىء) وعرف أن العين ليست بشىء وكان قتادة يفسر الآية باصابة العين ويقول : ليس فى قوله (وما أغنى عنكم من الله من شىء) ابطال له لأن العين وإن صح فالله قادر على دفع أثره .

﴿القول الثالث﴾ أنه عليه السلام كان عالما بأن ملك مصر هو ولده يوسف إلا أن الله تعالى ما أذن له فى إظهار ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وكان غرضه أن يصل بنيامين إلى يوسف فى وقت الخلوة . وهذا قول إبراهيم النخعى ، فأما

قوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) فاعلم أن الانسان مأمور بأن يراعى الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ومأمور أيضا بأن يعتقد ويجزم بأنه لايصل اليه إلاماقدره الله تعالى وأن الحذر لا ينجى من القدر، فان الانسان مأمور بأن يحذر عن الأشياء المهلكة . والأغذية الضارة . ويسعى فى تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان . ثم إنه مع ذلك ينبغى أن يكون جازما بأنه لايصل اليه إلا ماقدره الله ولايحصل فى الوجود إلا ما أراده الله فقوله عليه السلام (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) فهو اشارة الى رعاية الأسباب المعتبرة فى هذا العالم ، وقوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) اشارة الى عدم الالتفات الى الأسباب والى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى وقول القائل : كيف السبيل الى الجمع بين هذين القولين ، فهذا السؤال غير مختص به . وذلك لأنه لانزاع فى أنه لابد من اقامة الطاعات ، والاحتراز عن المعاصى والسيئات مع أنا نعتقد أن السعيد من سعد فى بطن أمه ، وأن الشقى من شقى فى بطن أمه . فكذا ههنا نأكل ونشرب ونحترز عن السموم وعن الدخول فى النار مع أن الموت والحياة لايحصلان الا بتقدير الله تعالى . فكذا ههنا ، فظهر أن هذا السؤال غير مختص بهذا المقام ، بل هو بحث عن سر مسألة الجبر والقدر ، بل الحق أن العبد يجب عليه أن يسعى بأقصى الجهد والقدرة . وبعد ذلك السعى البليغ والجد الجهيد فانه يعلم أن كل مايدخل فى الوجود فلابد وأن يكون بقضاء الله تعالى ومشيئته وسابق حكمه وحكمته ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى ، فقال (إن الحكم إلا لله)

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا فى القضاء والقدر . وذلك لأن الحكم عبارة عن الالزام والمنع من النقيض وسميت حكمة الدابة بهذا الاسم . لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة والحكم إنما سمى حكما لأنه يقتضى ترجيح أحد طرفى الممكن على الآخر بحيث يصير الطرف الآخر ممتنع الحصول . فبين تعالى أن الحكم بهذا التفسير ليس إلا لله سبحانه وتعالى . وذلك يدل على أن جميع الممكنات مستندة إلى قضائه وقدره ومشيئته وحكمه ، إما بغير واسطة وإما بواسطة ثم قال (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) ومعناه أنه لما ثبت أن الكل من الله ثبت أنه لا توكل إلا على الله وأن الرغبة ليست إلا فى رجحان وجود الممكنات على عدمها وذلك الرجحان المانع عن النقيض هو الحكم . وثبت بالبرهان أنه لاحكم إلا لله فلزم القطع بأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله ، ويوجب أنه لا توكل إلا على الله فهذا مقام شريف عال ونحن قد أشرنا إلى ماهو البرهان الحق فيه والشيخ أبو حامد الغزالى رحمه الله أطنب فى تقرير هذا المعنى فى كتاب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فمن أراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب .

وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٦٨»

قوله تعالى ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شيء الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

قال المفسرون : لما قال يعقوب : وما أغنى عنكم من الله من شيء ، صدقه الله فى ذلك فقال : وما كان ذلك التفرق يغنى من الله من شيء وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرا قدره الله . وقال الزجاج : إن العين لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم وهم مجتمعون . وقال ابن الأنبارى : لو سبق فى علم الله أن العين تهلكهم عند الاجتماع لكان تفرقهم كاجتماعهم ، وهذه الكلمات متقاربة ، وحاصلها أن الحذر لا يدفع القدر .

﴿البحث الثانى﴾ قوله (من شيء) يحتمل النصب بالمفعولية والرفع بالفاعلية .

﴿أما الأول﴾ فهو كقوله ما رأيت من أحد ، والتقدير : ما رأيت أحدا . فكذا ههنا تقدير الآية : أن تفرقهم ما كان يغنى من قضاء الله شيئا ، أى ذلك التفرق ما كان يخرج شيئا من تحت قضاء الله تعالى .

﴿وأما الثانى﴾ فكقولك : ما جاءنى من أحد ، وتقديره ما جاءنى أحد . فكذا ههنا التقدير : ما كان يغنى عنهم من الله شيء مع قضائه .

أما قوله ﴿إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها﴾ فقال الزجاج : إنه استثناء منقطع ، والمعنى : لكن حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، يعنى أن الدخول على صفة التفرق قضاء حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، ثم ذكروا فى تفسير تلك الحاجة وجوها : أحدها : خوفه عليهم من إصابة العين ، وثانيها : خوفه عليهم من حسد أهل مصر ، وثالثها : خوفه عليهم من أن يقصدهم ملك مصر بشر ، ورابعها : خوفه عليهم من أن لا يرجعوا اليه ، وكل هذه الوجوه متقاربة .

وأما قوله ﴿وإنه لذو علم لما علمناه﴾ فقال الواحدى : يحتمل أن تكون (ما) مصدرية والهاء عائدة الى يعقوب ، والتقدير : وانه لذو علم من أجل تعليمنا إياه ، ويمكن أن تكون (ما) بمعنى الذى والهاء

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٦٩» فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ «٧٠» قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ «٧١» قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ «٧٢»

عائدة اليها ، والتأويل وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه ، يعني انا لما علمناه شيئا حصل له العلم بذلك الشيء وفي الآية قولان آخران : الأول : أن المراد بالعلم الحفظ ، أي أنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له والثاني : لذو علم لفوائد ماعلمناه وحسن آثاره وهو اشارة الى كونه عاملا بما علمه ، ثم قال (ولكن أكثر الناس لايعلمون) وفيه وجهان : الأول : ولكن أكثر الناس لايعلمون مثل ماعلم يعقوب . والثاني : لايعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، والمراد بأكثر الناس . المشركون ، فانهم لايعلمون بأن الله كيف أرشد أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم﴾

اعلم انهم لما اتوه بأخيه بنيامين اكرمهم واضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم وحيدا فاجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل منهم كل اثنين بيتا وقال : هذا لا ثاني له فاتركوه معي فآواه اليه . ولما رأى يوسف تأسفه على أخ له هلك قال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال : من يجد أخا مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولاراحيل فبكى يوسف عليه السلام وقام اليه وعانقه وقال : انى انا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (آوى اليه أخاه) أى أنزله في الموضع الذي كان يأوي اليه . وقوله (إني أنا أخوك) فيه قولان : قال وهب : لم يرد انه أخوه من النسب ، ولكن أراد به إني

أقوم لك مقام أخيك فى الايناس لئلا تستوحش بالتفرد . والصحيح ماعليه سائر المفسرين من أنه اراد تعريف النسب ، لأن ذلك أقوى فى إزالة الوحشة وحصول الأنس . ولأن الأصل فى الكلام الحقيقة ، فلا وجه لصرفه عنها الى المجاز من غير ضرورة .

وأما قوله ﴿فلا تبتئس﴾ فقال أهل اللغة : تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس . وقوله (بما كانوا يعملون) فيه وجوه : الأول : المراد بما كانوا يعملون من إقامتهم على حسدنا والحرص على انصراف وجه أبينا عنا ، الثانى : أن يوسف عليه السلام مابقى فى قلبه شىء من العداوة وصار صافيا مع إخوته ، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافيا معهم أيضا ، فقال (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى لاتلتفت الى ماصنعوه فيما تقدم ، ولا تلتفت الى أعمالهم المنكرة التى أقدموا عليها . الثالث : أنهم إنما فعلوا بيوسف مافعلوه ، لأنهم حسدوه على إقبال الأب عليه وتخصيصه بمزيد الاكرام . فخاف بنيامين أن يحسدوه بسبب أن الملك خصه بمزيد الاكرام ، فأمنه منه وقال : لاتلتفت الى ذلك فان الله قد جمع بينى وبينك . الرابع . روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا يعيرون يوسف وأخاه بسبب أن جدهما أبا أمهما كان يعبد الأصنام ، وأن أم يوسف امرأت يوسف فسرق جونة كانت لأبيها فيها أصنام رجاء أن يترك عبادتها اذا فقدها . فقال له (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى من التعيير لنا بما كان عليه جدنا . والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه﴾ وقد مضى الكلام فى الجهاز والرحل ، أما السقاية فقال صاحب الكشاف : مشربة يسقى بها وهو الصواع قيل : كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به ، وهو بعيد لأن الاناء الذى يشرب الملك الكبير منه لايصلح أن يجعل صاعا ، وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها أيضا وهذا أقرب ، ثم قال وقيل كانت من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت من ذهب ، وقيل : كانت مرصعة بالجواهر وهذا أيضا بعيد لأن الآنية التى يسقى الدواب فيها لاتكون كذلك ، والأولى أن يقال : كان ذلك الاناء شيئا له قيمة ، أما إلى هذا الحد الذى ذكروه فلا .

ثم قال تعالى ﴿ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ يقال : أذنه أى أعلمه وفى الفرق بين اذن وبين أذن وجهان : قال ابن الانبارى : أذن معناه أعلم اعلاما بعد إعلام لأن فعل يوجب تكرير الفعل قال ويجوز أن يكون اعلاما واحدا من قبيل أن العرب تجعل فعل بمعنى أفعل فى كثير من المواضع . وقال سيبويه : أذنت وأذنت معناه أعلمت لافرق بينهما ، والتأذين معناه : النداء والتصويت بالاعلام .

وأما قوله تعالى ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قال أبو الهيثم: كل ماسير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير وقول من قال العير الابل خاصة باطل، وقيل: العير الابل التى عليها الاحمال لأنها تعير أى تذهب وتجىء، وقيل: هى قافلة الحمير، ثم كثر ذلك حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وجمعها فعل كسقف وسقف.

إذا عرفت هذا فنقول (أيتها العير) المراد أصحاب العير كقوله ياخيل الله اركبي وقرأ ابن مسعود (وجعل السقاية) على حذف جواب لما كأنه قيل فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية فى رحل أخيه أمهلهم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون.

فان قيل: هل كان ذلك النداء بأمر يوسف أو ماكان بأمره؟ فان كان بأمره فكيف يليق بالرسول الحق من عند الله أن يتهم أقواماً وينسبهم إلى السرقة كذباً وبهتانا، وإن كان الثانى وهو أنه ماكان ذلك بأمره فهلا أنكره وهلا أظهر براءتهم عن تلك التهمة.

قلنا: العلماء ذكروا فى الجواب عنه وجوها: الأول: أنه عليه السلام لما أظهر لأخيه أنه يوسف قال له: إنى أريد أن أحبسك ههنا. ولاسبيل اليه إلا بهذه الحيلة فان رضيت بها فالأمر لك فرضى بأن يقال فى حقه ذلك، وعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام فخرج عن كونه ذنباً. والثانى: أن المراد إنكم لسارقون يوسف من أبيه إلا أنهم ماأظهروا هذا الكلام. والمعاريض لاتكون إلا كذلك. والثالث: أن ذلك المؤذن ربما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام، وعلى هذا التقدير يخرج عن أن يكون كذبا. الرابع: ليس فى القرآن أنهم نادوا بذلك النداء عن أمر يوسف عليه السلام والأقرب إلى ظاهر الحال انهم فعلوا ذلك من أنفسهم لأنهم لما طلبوا السقاية وماوجدوها وماكان هناك أحد إلاهم غلب على ظنونهم أنهم هم الذين أخذوها ثم إن إخوة يوسف (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) وقرأ أبو عبدالرحمن السلمى (تفقدون) من أفقدته إذا وجدته فقيداً قالوا تفقد صواع الملك. قال صاحب الكشاف: قرئ صواع وصاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها، والعين معجمة وغير معجمة. قال بعضهم جمع صواع صيعان، كغراب وغربان، وجمع صاع أصواع، كباب وأبواب. وقال آخرون: لافرق بين الصاع والصواع، والدليل عليه قراءة أبى هريرة (قالوا نفقد صاع الملك) وقال بعضهم: الصواع اسم، والسقاية وصف، كقولهم: كوز وسقاء، فالكوز اسم والسقاء وصف.

ثم قال ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أى من الطعام وأنا به زعيم. قال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذى أذن. وتفسير زعيم كفيل. قال الكلبى: الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن. روى أبو عبيدة

قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ «٧٣» قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ «٧٤» قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ «٧٥»

عن الكسائى : زعمت به تزعم زعما وزعامة . أى كفلت به ، وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم . وقد حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله «الزعيم غارم»

فان قيل : هذه كفاله بشىء مجهول ؟

قلنا : حمل بعير من الطعام كان معلوما عندهم . فصحت الكفالة به إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة ، وهو كفالة بما لم يجب لأنه لايحل للسارق أن يأخذ شيئا على رد السرقة ، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم .

قوله تعالى ﴿قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين﴾

قال البصريون : الواو فى (والله) بدل من التاء والتاء بدل من الواو فضعفت عن التصرف فى سائر الأسماء وجعلت فيما هو أحق بالقسم وهو اسم الله عز وجل . قال المفسرون : حلفوا على أمرين : أحدهما : على أنهم ما جاؤا لأجل الفساد فى الأرض لأنه ظهر من أحوالهم امتناعهم من التصرف فى أموال الناس بالكلية لا بالأكل ولا بارسال الدواب فى مزارع الناس ، حتى روى أنهم كانوا قد سدوا أفواه دوابهم لئلا تعبث فى زرع ، وكانوا مواظبين على أنواع الطاعات ، ومن كانت هذه صفته فالفساد فى الأرض لايليق به . والثانى : انهم ما كانوا سارقين ، وقد حصل لهم فيه شاهداً قاطع ، وهو أنهم لما وجدوا بضاعتهم فى رحالهم حملوها من بلادهم إلى مصر ولم يستحلوا أخذها . والسارق لايفعل ذلك البتة ثم لما بينوا براءتهم عن تلك التهمة قال أصحاب يوسف عليه السلام (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) فأجابوا و(قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه) قال ابن عباس كانوا فى ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته وكان استعباد السارق فى شرعهم يجرى مجرى وجوب القطع فى شرعنا ، والمعنى جزاء هذا الجرم من وجد المسروق فى رحله ، أى ذلك الشخص هو جزاء ذلك الجرم ، والمعنى : أن استعباده هو جزاء ذلك الجرم ، قال الزجاج : وفيه وجهان : أحدهما : أن يقال جزاؤه مبتدأ ومن وجد فى رحله خبره . والمعني : جزاء السرقة هو الانسان الذي

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ «٧٦»

وجد فى رحله السرقة ، ويكون قوله (فهو جزاؤه) زيادة فى البيان كما تقول جزاء السارق القطع فهو جزاؤه . الثانى : أى يقال (جزاؤه) مبتدأ وقوله (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) جملة وهى فى موضع خبر المبتدا . والتقدير : كأنه قيل جزاؤه من وجد فى رحله فهوهو ، إلا أنه أقام المضمر للتأكيد والمبالغة فى البيان وأنشد النحويون :

لا أرى الموت يسبق الموت شىء نغص الموت الغنى والفقـيرا

وأما قوله ﴿كذلك نجزى الظالمين﴾ أى مثل هذا الجزاء . جزاء الظالمين . يريد إذا سرق استرق ثم قيل : هذا من بقية كلام اخوة يوسف . وقيل : إنهم لما قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، فقال أصحاب يوسف (كذلك نجزى الظالمين)

قوله تعالى ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم﴾

اعلم أن اخوة يوسف لما أقروا بأن من وجد المسروق فى رحله فجزاؤه أن يسترق قال لهم المؤذن : انه لابد من تفتيش أمتعتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) لازالة التهمة . والأوعية جمع الوعاء وهو كل ما إذا وضع فيه شىء أحاط به استخرجها من وعاء أخيه ، وقرأ الحسن (وعاء أخيه) بضم الواو وهى لغة ، وقرأ سعيد بن جبير (اعاء أخيه) فقلب الواو همزة .

فان قيل : لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنثه ؟

قلنا : قالوا رجع ضمير المؤنث الى السقاية وضمير المذكر الى الصواع أو يقال : الصواع يؤنث ويذكر ، فكان كل واحد منهما جائزا أو يقال : لعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية وفيما يتصل بهم صواعا ، عن قتادة أنه قال : كان لا ينظر فى وعاء إلا استغفر الله تائبا مما قذفهم به ، حتى انه لما لم يبق إلا أخوه قال ما أرى هذا قد أخذ شيئا ،

فقالوا : لانذهب حتى تتفحص عن حاله أيضا ، فلما نظروا فى متاعه استخرجوا الصواع من وعائه والقوم كانوا قد حكموا بأن من سرق يسترق ، فأخذوا برقبته وجروا به الى دار يوسف .

ثم قال تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك ﴾ وفيه بحثان : الأول : المعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف ، وذلك إشارة الى الحكم باسترقاق السارق ، أى مثل هذا الحكم الذى ذكره إخوة يوسف حكمنا ليوسف . الثانى : لفظ الكيد مشعر بالحيلة والخديعة ، وذلك فى حق الله تعالى محال . إلا أنا ذكرنا قانونا معتبرا فى هذا الباب ، وهو أن أمثال هذه الألفاظ تحمل على نهايات الأغراض لاعلى بدايات الأغراض ، وقررنا هذا الأصل فى تفسير قوله تعالى (إن الله لايستحيي) فالكيد السعى فى الحيلة والخديعة ، ونهايته إلقاء الانسان من حيث لايشعر فى أمر مكروه ولا سبيل له الى دفعه ، فالكيد فى حق الله تعالى محمول على هذا المعنى . ثم اختلفوا فى المراد بالكيد ههنا فقال بعضهم : المراد أن إخوة يوسف سعوا فى إبطال أمر يوسف ، والله تعالى نصره وقواه وأعلى أمره . وقال آخرون : المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألقى فى قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق هو أن يسترق ، لاجرم لما ظهر الصواع فى رحله حكموا عليه بالاسترقاق ، وصار ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من إمساك أخيه عند نفسه .

ثم قال تعالى ﴿ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك﴾ والمعنى : أنه كان حكم الملك فى السارق أن يضرب ويغرم ضعفى ماسرق ، فما كان يوسف قادرا على حبس أخيه عند نفسه بناء على دين الملك وحكمه ، إلاأنه تعالى كاد له ماجرى على لسان اخوته أن جزاء السارق هو الاسترقاق فقد بينا أن هذا الكلام توسل به الى أخذ أخيه وحبسه عند نفسه وهو معنى قوله (إلا أن يشاء الله) ثم قال (نرفع درجات من نشاء) وفيه مسالتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائى (درجات) بالتنوين غير مضاف ، والباقون بالاضافة .

﴿المسألة الثانيه﴾ المراد من قوله (نرفع درجات من نشاء) هو أنه تعالى يريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد . ويخصه بأنواع العلوم ، وأقسام الفضائل ، والمراد ههنا هو أنه تعالى رفع درجات يوسف على اخوته فى كل شىء .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات ، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال (نرفع درجات من نشاء) وأيضا وصف ابراهيم عليه السلام بقوله (نرفع درجات من نشاء) عند ايراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ «٧٧»

الهية الشمس والقمر والكواكب ووصف، ههنا يوسف أيضا بقوله (نرفع درجات من نشاء) لما هداه إلى هذه الحيلة وكم بين المرتبتين من التفاوت .

ثم قال تعالى ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾ والمعنى أن اخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء، إلا أن يوسف كان زائدا عليهم فى العلم .

راعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآية على أنه تعالى عالم بذاته لا بالعلم . فقالوا : لو كان عالما بالعلم لكان ذا علم . ولو كان كذلك ، لحصل فوقه عليم تمسكا بعموم هذه الآية وهذا باطل .

واعلم أن أصحابنا قالوا دلت سائر الآيات على اثبات العلم لله تعالى وهى قوله (إن الله عنده علم الساعة . وأنزله بعلمه . ولا يحيطون بشىء من علمه . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) واذا وقع التعارض فنحن نحمل الآية التى تمسك الخصم بها على واقعة يوسف وإخوته خاصة غاية مافى الباب أنه يوجب تخصيص العموم ، إلا أنه لابد من المصير اليه لأن العالم مشتق من العلم ، والمشتق مركب والمشتق منه مفرد . وحصول المركب بدون حصول المفرد محال فى بديهة العقل فكان الترجيح من جانبنا ،

قوله تعالى ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون﴾

اعلم أنه لما خرج الصواع من رحل أخى يوسف نكس إخوته رؤسهم وقالوا : هذه الواقعة عجيبة أن راحيل ولدت ولدين لصين ، ثم قالوا : يابنى راحيل ماأكثر البلاء علينا منكم ، فقال بنيامين ماأكثر البلاء علينا منكم ذهبتم بأخى وضيعتموه فى المفازة . ثم تقولون لى هذا الكلام . قالوا له : فكيف خرج الصواع من رحلك . فقال : وضعه فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم .

واعلم أن ظاهر الآية يقتضى أنهم قالوا للملك : إن هذا الأمر ليس بغريب منه فان أخاه الذى هلك كان أيضا سارقا ، وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته ، وهو وأخوه مختصان بهذه الطريقة لأنهما من أم أخرى ، واختلفوا فى السرقة التى نسبوها الى يوسف عليه السلام على أقوال : الأول : قال سعيد بن جبير : كان جده أبو أمه كافرا يعبد الأوثان فأمرته

أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك . فهذا هو السرقة ، والثانى : أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه الى الفقراء . وقيل سرق عناقا من أبيه ودفعه الى المسكين وقيل دجاجة . والثالث : أن عمته كانت تحبه حبا شديدا فارادت أن تمسكه عند نفسها ، وكان قد بقى عندها منطقة لاسحق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بانه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق ، فتوسلت بهذه الحيلة إلى امساكه عند نفسها . والرابع : أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع ، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة ، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة .

ثم قال تعالى ﴿فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم﴾ واختلفوا فى أن الضمير فى قوله (فأسرها يوسف) إلى أى شىء يعود على قولين قال الزجاج : فأسرها اضمار على شريطة التفسير، تفسيره أنتم شر مكانا وانما أنث لأن قوله (أنتم شر مكانا) جملة أو كلمة لأنهم يسمون الطائفة من الكلام كلمة كأنه قال : فاسر الجملة أو الكلمة التى هى قوله (أنتم شر مكانا) وفى قراءة ابن مسعود (فاسر) بالتذكير يريد القول أو الكلام وطعن أبو على الفارسى فى هذا الوجه فيما استدركه على الزجاج من وجهين :

﴿الوجه الأول﴾ قال الاضمار على شريطة التفسير يكون على ضربين : أحدهما : أن يفسر بمفرد كقولنا : نعم رجلا زيد ففى نعم ضمير فاعلها ، ورجلا تفسير لذلك الفاعل المضمر والآخر أن يفسر بجملة وأصل هذا يقع فى الابتداء كقوله (فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا . وقل هو الله أحد) والمعنى القصة شاخصة أبصار الذين كفروا والأمر الله أحد . ثم إن العوامل الداخلة على المبتدا والخبر تدخل عليه أيضاً نحو ان كقوله (إنه من يأت ربه مجرما . فانها لا تعمى الأبصار)

إذا عرفت هذا فنقول : نفس المضمر على شريطة التفسير فى كلا القسمين متصل بالجملة التى حصل منها الاضمار ، ولا يكون خارجاً عن تلك الجملة ولا مبايناً لها . وههنا التفسير منفصل عن الجملة التى حصل منها الاضمار فوجب أن لا يحسن . والثانى : أنه تعالى قال (أنتم شر مكانا) وذلك يدل على أنه ذكر هذا الكلام ، ولو قلنا : إنه عليه السلام أضمر هذا الكلام لكان قوله انه قال ذلك كذباً . واعلم أن هذا الطعن ضعيف لوجوه :

﴿أما الأول﴾ فلأنه لا يلزم من حسن القسمين الأولين قبح قسم ثالث .

﴿وأما الثانى﴾ فلأنا نحمل ذلك على أنه عليه السلام قال ذلك على سبيل الخفية وبهذا التفسير يسقط هذا السؤال .

قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «٧٨» قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ «٧٩»

﴿والوجه الثانى﴾ وهو أن الضمير فى قوله (فأسرها) عائد إلى الاجابة كأنهم قالوا (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) فأسر يوسف إجابتهم فى نفسه فى ذلك الوقت ولم يبدها لهم فى تلك الحالة إلى وقت ثان ويجوز أيضاً أن يكون إضماراً للمقالة . والمعنى : أسر يوسف مقالتهم ، والمراد من المقالة متعلق تلك المقالة كما يراد بالخلق المخلوق . وبالعلم المعلوم . يعنى أسر يوسف فى نفسه كيفية تلك السرقة ، ولم يبين لهم انها كيف وقعت وأنه ليس فيها مايوجب الذم والطعن . روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عوقب يوسف عليه السلام ثلاث مرات لأجل همه بها ، عوقب بالحبس وبقوله (اذكرنى عند ربك) عوقب بالحبس الطويل وبقوله (إنكم لسارقون) عوقب بقولهم (فقد سرق أخ له من قبل) ثم حكى تعالى عن يوسف أنه قال (أنتم شر مكانا) أى أنتم شر منزلة عند الله تعالى لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم فأخذتم أخاكم وطرحتموه فى الجب ، ثم قلتم لأبيكم إن الذئب أكله وأنتم كاذبون . ثم بعتموه بعشرين درهما ، ثم بعد المدة الطويلة والزمان الممتد مازال الحقد والغضب عن قلوبكم فرميتموه بالسرقة .

ثم قال تعالى ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ يريد أن سرقة يوسف كانت رضا لله ، وبالجملة فهذه الوجوه المذكورة فى سرقته لايوجب شىء منها عود الذم واللوم اليه ، والمعنى : والله أعلم بأن هذا الذى وصفتموه به هل يوجب عود مذمة اليه أم لا .

قوله تعالى ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾

اعلم أنه تعالى بين أنهم بعد الذى ذكروه من قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أحبوا موافقته والعدول الى طريقة الشفاعة فانهم وان كانوا قد اعترفوا أن حكم الله تعالى فى السارق أن يستعبد ، الا أن العفو وأخذ الفداء كان أيضا جائزا . فقالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا أى فى السن ، ويجوز أن يكون فى القدر والدين . وإنما ذكروا ذلك لأن كونه ابنا لرجل كبير القدر

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ «٨٠»

يوجب العفو والصفح . ثم قالوا (فخذ أحدنا مكانه) يحتمل أن يكون المراد على طريق الاستبعاد ويحتمل أن يكون المراد على طريق الرهن حتى نوصل الفداء اليك . ثم قالوا (إنا نراك من المحسنين) وفيه وجوه : أحدها: انا نراك من المحسنين لو فعلت ذلك . وثانيها: إنا نراك من المحسنين الينا حيث أكرمتنا وأعطيتنا البذل الكثير وحصلت لنا مطلوبنا على أحسن الوجوه ورددت إلينا ثمن الطعام . وثالثها نقل انه عليه السلام لما اشتد القحط على القوم ولم يجدوا شيئاً يشترون به الطعام ، وكانوا يبيعون أنفسهم منه فصار ذلك سبباً لصيرورة أكثر أهل مصر عبيداً له ثم إنه أعتق الكل ، فلعلهم قالوا : (إنا نراك من المحسنين) إلى عامة الناس بالاعتاق فكن محسناً أيضاً إلى هذا الانسان باعتاقه من هذه المحنة ، فقال يوسف (معاذالله) أى أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، أى أعوذ بالله أن آخذ بريئاً بذنب قال الزجاج : موضع «أن» نصب والمعنى : أعوذ بالله من أخذ أحد بغيره فلما سقطت كلمة «من» انتصب الفعل عليه وقوله (إنا إذاً لظالمون) أى لقد تعديت وظلمت إن آذيت إنساناً بجرم صدر عن غيره .

فان قيل : هذه الواقعة من أولها إلى آخرها تزوير وكذب ، فكيف يجوز من يوسف عليه السلام مع رسالته الاقدام على هذا التزوير والترويج وإيذاء الناس من غير سبب لاسيما ويعلم أنه إذا حبس أخاه عند نفسه بهذه التهمة فانه يعظم حزن أبيه ويشتدغمه ، فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغة فى التزوير إلى هذا الحد .

والجواب : لعله تعالى أمره بذلك تشديداً للمحنة على يعقوب ونهاه عن العفو والصفح وأخذ البدل كما أمر تعالى صاحب موسى بقتل من لو بقى لطغى وكفر .

قوله تعالى ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنهم لما قالوا (فخذ أحدنا مكانه) وهو نهاية ما يمكنهم بذله فقال يوسف في جوابه (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) فانقطع طمعهم من يوسف عليه السلام في رده ، فعند هذا قال تعالى (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) وهو مبالغة في يأسهم من رده (وخلصوا نجيا) أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون ولا شبهة أن المراد يتشاورون ويتحيلون الرأي فيما وقعوا فيه ، لانهم إنما أخذوا بنيامين من أبيهم بعد المواثيق المؤكدة وبعد أن كانوا متهمين في حق يوسف فلو لم يعيدوه الى أبيهم لحصلت محن كثيرة : أحدها : أنه لو لم يعودوا الى أبيهم وكان شيخا كبيرا فبقاؤه وحده من غير أحد من أولاده محنة عظيمة . وثانيها : أن أهل بيتهم كانوا محتاجين الى الطعام أشد الحاجة . وثالثها : أن يعقوب عليه السلام ربما كان يظن أن أولاده هلكوا بالكلية وذلك غم شديد ولو عادوا الى أبيهم بدون بنيامين لعظم حياؤهم فان ظاهر الأمر يوهم انهم خانوه في هذا الابن كما أنهم خانوه في الابن الأول ، ولكان يوهم أيضا أنهم ما أقاموا لتلك المواثيق المؤكدة وزنا ولاشك أن هذا الموضع موضع فكرة وحيرة ، وذلك يوجب التفاوض والتشاور طلبا للأصلح الأصوب فهذا هو المراد من قوله (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا)

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدي روى عن ابن كثير، استيأسوا . وحتى اذا استيأس الرسل بغير همز وفي ييئس لغتان يئس وييأس مثل حسب ويحسب ومن قال استيأس قلب العين الى موضع الفاء فصار استعفل وأصله استيأس ثم خففت الهمزة . قال صاحب الكشاف : استيأسوا يئسوا ، وزيادة السين والتاء للمبالغة كما في قوله (استعصم) وقوله (خلصوا) قال الواحدي : يقال خلص الشيء يخلص خلوصا اذا ذهب عنه الشائب من غيره ، ثم فيه وجهان : الأول : قال الزجاج خلصوا أي انفردوا ، وليس معهم أخوهم ، والثاني : قال الباقون تميزوا عن الأجانب ، وهذا هو الأظهر . وأما قوله (نجيا) فقال صاحب الكشاف : النجي على معنيين يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر . ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) وبمعنى المصدر الذي هو التناجي كما قيل : النجوى بمعنى المتناجين ، فعلى هـــذا معنى (خلصوا نجيا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم سواهم (نجيا) أي مناجيا . روى (نجوى) أي فوجا (نجيا) أي مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا . وأحسن الوجوه أن يقال : إنهم تمحضوا تناجيا ، لأن من كمل حصول أمر من الأمور فيه وصف بأنه صار غير ذلك الشيء . فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم ، صاروا نفس التناجي حقيقة .

أما قوله تعالى ﴿قال كبيرهم﴾ فقيل المراد كبيرهم في السن وهو روبيل ، وقيل كبيرهم في العقل

ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ قَدْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ «٨١» وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ «٨٢»

وهو يهودا ، وهو الذى نهاهم عن قتل يوسف ، ثم حكى تعالى عن هذا الكبير أنه قال (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل مافرطتم فى يوسف) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قال يوسف عليه السلام (معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) غضب يهودا . وكان اذا غضب وصاح فلا تسمع صوته حامل إلا وضعت ويقوم شعره على جسده فلا يسكن حتى يضع بعض آل يعقوب يده عليه فقال لبعض إخوته اكفونى أسواق أهل مصر وأنا أكفيكم الملك فقال يوسف عليه السلام لابن صغير له مسه فمسه فذهب غضبه وهم أن يصيح فركض يوسف عليه السلام رجله على الأرض وأخذ بملابسه وجذبه فسقط فعنده قال يا أيها العزيز ، فلما أيسوا من قبول الشفاعة تذاكروا وقالوا : إن أبانا قد أخذ علينا موثقاً عظيما من الله . وأيضاً نحن متهمون بواقعة يوسف فكيف المخلص من هذه الورطة .

﴿المسألة الثانية﴾ لفظ ما فى قوله (مافرطتم) فيها وجوه : الأول : أن يكون أصله من قبل هذا فرطتم فى شأن يوسف عليه السلام ، ولم تحفظوا عهد أبيكم . الثانى : أن تكون مصدرية ومحله الرفع على الابتداء وخبره الظرف ، وهو من قبل . ومعناه وقع من قبل تفريطكم فى يوسف ، الثالث : النصب عطفاً على مفعول (ألم تعلموا) والتقدير : ألم تعلموا أخذ أبيكم موثقكم وتفريطكم من قبل فى يوسف . الرابع : أن تكون موصولة بمعنى ومن قبل هذا مافرطتموه أى قدمتموه فى حق يوسف من الخيانة العظيمة ، ومحله الرفع والنصب على الوجهين المذكورين . ثم قال (فلن أبرح الأرض) أى فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى فى الانصراف اليه أو يحكم الله لى بالخروج منها . أو بالانتصاف ممن أخذ أخى أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب وهو خير الحاكمين، لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق . وبالجملة فالمراد ظهور عذر يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره قاله انقطاعا إلى الله تعالى فى إظهار عذره بوجه من الوجوه .

قوله تعالى ﴿ارجعوا الى أبيكم فقولوا ياأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون﴾

واعلم أنهم لما تفكروا فى الأصوب ماهو ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع ، وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على الوجه من غير تفاوت ، والظاهر أن هذا القول قاله ذلك الكبير الذى قال (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى) قيل إنه روبيل ، وبقى هو فى مصر وبعث سائر إخوته الى الأب .

فان قيل : كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة ، لاسيما وهو قد أجاب بالجواب الشافى ، فقال الذى جعل الصواع فى رحلى هو الذى جعل البضاعة فى رحلكم .

والجواب عنه من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنهم شاهدوا أن الصواع كان موضوعا فى موضع ماكان يدخله أحد إلا هم ، فلما شاهدوا أنهم أخرجوا الصواع من رحله غلب على ظنونهم أنه هو الذى أخذ الصواع . وأما قوله : وضع الصواع فى رحلى من وضع البضاعة فى رحالكم . فالفرق ظاهر ، لأن هناك لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بأنهم هم الذين وضعوها فى رحالهم ، وأما هذا الصواع فان أحدا لم يعترف بأنه هو الذى وضع الصواع فى رحله فظهر الفرق . فلهذا السبب غلب على ظنونهم انه سرق ، فشهدوا بناء على هذا الظن ، ثم بينهم غير قاطعين بهذا الأمر بقولهم (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين)

﴿والوجه الثانى﴾ فى الجواب ان تقدير الكلام (إن ابنك سرق) فى قول الملك واصحابه ومثله كثير فى القرآن . قال تعالى (إنك لأنت الحليم الرشيد) اى عند نفسك . وقال تعالى (ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى عند نفسك وأما عندنا فلا فكذا ههنا .

﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب أن ابنك ظهر عليه مايشبه السرقة ومثل هذا الشىء يسمى سرقة فان اطلاق اسم أحد الشبيهين على الشبيه الآخر جائز فى القرآن قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)

﴿الوجه الرابع﴾ أن القوم ماكانوا أنبياء فى ذلك الوقت فلا يبعد أن يقال : إنهم ذكروا هذا الكلام على سبيل المجازفة لاسيما وقد شاهدوا شيئا يوهم ذلك .

﴿الوجه الخامس﴾ أن ابن عباس رضى الله عنهما كان يقرأ (ان ابنك سرق) بالتشديد ، أى نسب إلى السرقة فهذه القراءة لاحاجة بها إلى التأويل لأن القوم نسبوه إلى السرقة . إلا انا ذكرنا فى هذا الكتاب أن امثال هذه القراآت لاتدفع السؤال . لأن الاشكال انما يدفع إذا قلنا القراءة الأولى باطلة . والقراءة الحقة هى هذه . أما إذا سلمنا أن القراءة الأولى حقة كان الاشكال باقياً سواء صحت هذه القراءة الثانية أو لم تصح . فثبت أنه لابد من الرجوع إلى أحد الوجوه المذكورة

أما قوله (وماشهدنا إلا بما علمنا) فمعناه ظاهر لأنه يدل على أن الشهادة غير العلم بدليل قوله تعالى (وما شهدنا إلا بما علمنا) وذلك يقتضى كون الشهادة مغايرة للعلم ولأنه عليه السلام قال : إذا علمت مثل الشمس فاشهد ، وذلك أيضا يقتضى ماذكرناه وليست الشهادة أيضا عبارة عن قوله أشهد لأن قوله أشهد اخبار عن الشهادة والاخبار عن الشهادة غير الشهادة .

اذا ثبت هـذا فنقول : الشهادة عبارة عن الحكم الذهنى وهو الذى يسميه المتكلمون بكلام النفس . وأما قوله (وما كنا للغيب حافظين) ففيـه وجوه : الأول : أنا قد رأينا أنهم أخرجوا الصواع من رحله ، وأما حقيقة الحـال فغير معلومة لنا فان الغيب لايعلمه الا الله . والثانى : قال عكرمة معناه : لعل الصواع دس فى متاعه بالليل فان الغيب اسم لليل على بعض اللغات . والثالث : قال مجاهد والحسن وقتادة : ما كنا نعلم أن ابنك يسرق . ولو علمنا ذلك ماذهبنا به الى الملك وما أعطيناك موثقا من الله فى رده اليك . والرابع : نقل أن يعقوب عليه السلام قال لهم : فهب أنه سرق ولكن كيف عرف الملك أن شرع بنى اسرائيل أن من سرق يسترق ، بل أنتم ذكرتموه له لغرض لكم فقالوا عند هذا الكلام : انا قد ذكرنا له هذا الحكم قبل وقوعنا فى هـذه الواقعة وما كنا نعلم أن هذه الواقعة نقع فيها فقوله (وما كنا للغيب حافظين) اشارة إلى هذا المعنى .

فان قيل : فهل يجوز من يعقوب عليه السلام أن يسعى فى اخفاء حكم الله تعالى على هذا القول

قلنا : لعله كان ذلك الحكم مخصوصا بما إذا كان المسروق منه مسلما فلهذا أنكر ذكر هذا الحكم عند الملك الذى ظنه كافرا .

ثم حكى تعالى عنهم أنهم قالوا (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها)

واعلم أنهم لما كانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام بالغوا فى ازالة التهمة عن أنفسهم فقالوا (واسأل القرية التى كنا فيها) والأكثرون اتفقوا على أن المراد من هذه القرية مصر وقال قوم ، بل المراد منه قرية على باب مصر جرى فيها حديث السرقة والتفتيش ، ثم فيه قولان : الأول : المراد واسأل أهل القرية إلا أنه حذف المضاف للايجاز والاختصار ، وهـذا النوع من المجاز مشهور فى لغة العرب قال أبو على الفارسى ودافع جواز هـذا فى اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات . والثانى : قال أبو بكر الأنبارى المعنى : اسأل القرية والعير والجدار والحيطان فانها تجيبك وتذكر لك صحة ماذكرناه لأنك من أكابر أنبياء الله فلا يبعد أن ينطق الله هذه الجمادات معجزة لك حتى تخبر بصحة ماذكرناه ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن الشىء إذا ظهر ظهوراً تاما كاملا فقد يقال فيه ، سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنـه ، والمراد أنه بلغ فى الظهور إلى الغاية التى

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ «٨٣»

مابقى للشك فيه مجال .

أما قوله ﴿والعير التى أقبلنا فيها﴾ فقال المفسرون كان قد صحبهم قوم من الكنعانيين فقالوا : سلهم عن هذه الواقعة . ثم إنهم لما بالغوا فى التأكيد والتقرير قالوا (وإنا لصادقون) يعنى سواء نسبتنا إلى التهمة أولم تنسبنا اليها فنحن صادقون ، وليس غرضهم أن يثبتوا صدق أنفسهم بأنفسهم لأن هذا يجرى مجرى إثبات الشىء بنفسه ، بل الانسان إذا قدم ذكر الدليل القاطع على صحة الشىء فقد يقول بعده وأنا صادق فى ذلك يعنى فتأمل فيما ذكرته من الدلائل والبينات لتزول عنك الشبهة

قوله تعالى ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم﴾

اعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما فى واقعة يوسف فقال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) فذكر هذا الكلام بعينه فى هذه الواقعة إلا أنه قال فى واقعة يوسف عليه السلام (والله المستعان على ماتصفون) وقال ههنا (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال بعضهم إن قوله (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) ليس المراد منه ههنا الكذب والاحتيال كما فى قوله فى واقعة يوسف عليه السلام حين قال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) لكنه عنى سولت لكم أنفسكم اخراج بنيامين عنى والمصير به إلى مصر طلبا للمنفعة فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم على فى ارساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله انما جاء على خلاف تقديركم وقيل : بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمرا خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وماسرق .

﴿المسألة الثانيه﴾ قيل إن روبيل لما عزم على الاقامة بمصر أمره الملك أن يذهب مع اخوته فقال اتركونى وإلا صحت صيحة لاتبقى بمصر امراة حامل إلا وتضع حملها فقال يوسف دعوه ولما رجع القوم الى يعقوب عليه السلام وأخبروه بالواقعة بكى وقال : يابنى لاتخرجوا من عندى مرة إلا ونقص بعضكم ، ذهبتم مرة فنقص يوسف ، وفى الثانية نقص شمعون ، وفى هذه الثالثة نقص روبيل وبنيامين . ثم بكى وقال : عسى الله أن يأتينى بهم جميعا . وانما حكم بهذا الحكم لوجوه : الأول : أنه لما طال حزنه وبلاؤه ومحنته علم أنه تعالى سيجعل له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ «٨٤» قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ «٨٥» قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ «٨٦» يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ«٨٧»

على سبيل حسن الظن برحمة الله . والثانى : لعله تعالى قد أخبره من بعد محنة يوسف أنه حى أو ظهرت له علامات ذلك وانما قال (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) لأنهم حين ذهبوا بيوسف كانوا اثنى عشر فضاع يوسف وبقى أحدعشر . ولما أرسلهم الى مصر عادوا تسعة لأن بنيامين حبسه يوسف واحتبس ذلك الكبير الذى قال (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى) فلما كان الغائبون ثلاثة لاجرم (قال عسى الله أن يأتينى بهم جميعا)

ثم قال ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ يعنى هو العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والاحسان والرحمة والمصلحة .

قوله تعالى ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنهلا ييأس من روح الله إلاالقوم الكافرون)

واعلم أن يعقوب عليه السلام لما سمع كلام أبنائه ضاق قلبه جداً وأعرض عنهم وفارقهم ثم بالآخرة طلبهم وعاد اليهم .

﴿أما المقام الأول﴾ وهو أنه أعرض عنهم ، وفر منهم فهو قوله (وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف)

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى سمعه من أبنائه فى حق بنيامين عظم أسفه على

يوسف عليه السلام (وقال يا أسفى على يوسف) وإنما عظم حزنه على مفارقه يوسف عند هذه الواقعة لوجوه:

﴿الوجه الأول﴾ أن الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامن. والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع وقال متمم بن نويرة:

وقد لامني عند القبور على البكا رفيق لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك

وذلك لأنه اذا رأى قبرا فتجدد حزنه على أخيه مالك فلاموه عليه. فأجاب بأن الأسى يبعث الأسى. وقال آخر:

فلم تنسنى أوفى المصيبات بعده ولكن نكاء القرح بالقرح أوجع

﴿والوجه الثانى﴾ أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة. وكانت المشابهة بينهما فى الصورة والصفة أكمل. فكان يعقوب عليه السلام يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام. فلما وقع ماوقع زال مايوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

﴿الوجه الثالث﴾ أن المصيبة فى يوسف كانت أصل مصائبه التى عليها ترتب سائر المصائب والرزايا، وكان الأسف عليه أسفا على الكل. الرابع: أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التى يمكن معرفتها والبحث عنها. وأما واقعة يوسف فهو عليه السلام كان يعلم كذبهم فى السبب الذى ذكروه. وأما السبب الحقيقى فما كان معلوما له، وأيضا أنه عليه السلام كان يعلم أن هؤلاء فى الحياة. وأما يوسف فما كان يعلم أنه حى أو ميت. فلهذه الأسباب عظم وجده على مفارقته وقويت مصيبته على الجهل بحاله.

﴿المسألة الثانية﴾ من الجهال من عاب يعقوب عليه السلام على قوله (يا أسفى على يوسف) قال لأن هذا إظهار للجزع وجار مجرى الشكاية من الله وانه لايجوز. والعلماء بينوا أنه ليس الأمر كما ظنه هذا الجاهل، وتقريره أنه عليه السلام لم يذكر هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه. وهو المراد من قوله (وابيضت عيناه من الحزن) ثم أمسك لسانه عن النياحة، وذكر مالا ينبغى. وهو المراد من قوله (فهو كظيم) ثم إنه ماأظهر الشكاية مع أحد من الخلق بدليل قوله (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) وكل ذلك يدل على أنه لما عظمت مصيبته وقويت محنته فانه صبر وتجرع الغصة وما أظهر الشكاية فلاجرم استوجب به المدح العظيم والثناء العظيم. روى أن يوسف عليه السلام سأل جبريل

هل لك علم بيعقوب ؟ قال نعم ، قال وكيف حزنه ؟ قال حزن سبعين ثكلى وهى التى لها ولد واحد ثم يموت . قال فهل له فيه أجر ؟ قال نعم أجر مائة شهيد .

فان قيل : روى عن محمد بن على الباقر قال : مر بيعقوب شيخ كبير فقال له أنت ابراهيم فقال أنا ابن ابنه والهموم غيرتنى وذهبت بحسنى وقوتى ، فأوحى الله تعالى اليه «حتى متى تشكونى إلى عبادى وعزتى وجلالى لولم تشكنى لأبدلنك لحما خيرا من لحمك ودما خيرا من دمك» فكان من بعد يقول إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «كان ليعقوب أخ مواخ» فقال له : ما الذى أذهب بصرك وقوس ظهرك فقال الذى أذهب بصرى البكاء على يوسف وقوس ظهرى الحزن على بنيامين . فأوحى الله تعالى اليه «أما تستحى تشكونى إلى غيرى» فقال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، فقال يارب أما ترحم الشيخ الكبير قوست ظهرى ، وأذهبت بصرى ، فاردد على ريحانتى يوسف وبنيامين فأتاه جبريل عليه السلام بالبشرى وقال : لو كانا ميتين لنشرتهما لك فاصنع طعاما للمساكين ، فان أحب عبادى الى الأنبياء والمساكين ، وكان يعقوب عليه السلام إذا أراد الغداء نادى مناديه من أراد الغداء فليتغد مع يعقوب ، واذا كان صائما نادى مثله عند الافطار . وروى أنه كان يرفع حاجبيه بخرقة من الكبر . فقال له رجل : ماهذا الذى أراه بك ، قال طول الزمان وكثرة الأحزان ، فأوحى الله اليه «أتشكونى يايعقوب» فقال : يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى .

قلنا : انا قد دللنا على أنه لم يأت إلا بالصبر والثبات وترك النياحة . وروى أن ملك الموت دخل على يعقوب عليه السلام فقال له : جئت لتقبضنى قبل أن أرى حبيبى فقال لا ، ولكن جئت لأحزن لحزنك وأشجو لشجوك ، وأما البكاء فليس من المعاصى . وروى أن النبى عليه الصلاة والسلام : بكى على ولده إبراهيم عليه السلام وقال «إن القلب ليحزن والعين تدمع ، ولا نقول : مايسخط الرب وإنا عليك ياإبراهيم لمحزونون» وأيضا فاستيلاء الحزن على الانسان ليس باختياره ، فلا يكون ذلك داخلا تحت التكليف . وأما التأوه وإرسال البكاء فقد يصير بحيث لا يقدر على دفعه ، وأما ماورد فى الروايات التى ذكرتم فالمعاتبة فيها إنما كانت لأجل أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأيضا ففيه دقيقة أخرى وهى أن الانسان اذا كان فى موضع التحير والتردد لابد وأن يرجع الى الله تعالى ، فيعقوب عليه السلام ماكان يعلم أن يوسف بقى حيا أم صار ميتا ، فكان متوقفا فيه وبسبب توقفه كان يكثر الرجوع الى الله تعالى وينقطع قلبه عن الالتفات عن كل ماسوى الله تعالى إلا فى هذه الواقعة ، وكانت أحواله فى هذه الواقعة مختلفة ، فربما صار فى بعض الأوقات مستغرق الهم بذكر الله تعالى . فان عن تذكر هذه الواقعة ، فكان ذكرها كلا سواها ،

فلهذا السبب صارت هـذه الواقعة بالنسبة اليه ، جارية مجرى الالقاء فى النار للخليل عليه السلام ومجرى الذبح لابنه الذبيح .

فان قيـل : أليس أن الأولى عند نزول المصيبة الشديدة أن يقول (إنا لله وإنا اليه راجعون) حتى يستوجب الثواب العظيم المـذكور فى قوله (أولـئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)

قلنـا : قال بعض المفسرين إنه لم يعط الاسترجاع أمة إلا هده الأمة فأكرمهم الله تعالى إذا أصابتهم مصيبة وهذا عندى ضعيف لأن قوله (إنا لله) اشارة إلى أنا مملوكون لله وهو الذى خلقنا وأوجدنا ، وقوله (وإنا اليه راجعون) اشارة إلى أنه لابد من الحشر والقيامة ، ومن المحال أن أمة من الأمم لايعرفون ذلك فمن عرف عند نزول بعض المصائب به أنه لابد فى العاقبـة من رجوعه الى الله تعـالى ، فهناك تحصل السلوة التامة عند تلك المصيبة . ومن المحال أن يكون المؤمن بالله غير عارف بذلك .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (يا أسفى على يوسف نداء الأسف وهو كقوله (ياعجبا) والتقدير كأنه ينادى الأسف ويقول : هذاوقت حصولك وأوان مجيئك وقد قررناهذا المعنى فى مواضع كثيرة منها فى تفسير قوله (حاش لله) والأسف الحزن على مافات . قال الليث : اذاجاءك أمر فحزنت له ولم تطقه فأنت أسيف أى حزين ومتأسف أيضا . قال الزجاج : الأصل (يا أسفى) الا أن ياء الاضافة يجوز ابدالها بالألف لخفة الألف والفتحة .

ثم قال تعالى ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ وفيه وجهان :

﴿الوجه الأول﴾ أنه لمـا قال ياأسفى على يوسف غلبه البكاء ، وعنـد غلبة البكاء يكثر المـاء فى العين فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك المـاء وقوله (وابيضت عيناه من الحزن) كناية عن غلبة البكاء ، والدليل على صحة هذا القول أن تأثير الحزن فى غلبة البكاء لا فى حصول العمى فلو حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هـــذا التعليل حسناً . ولو حملناه على العمى لم يحسن هـذا التعليل . فكان ماذكرناه أولى . وهذا للتفسير مع الدليل رواه الواحدى فى البسيط عن ابن عباس رضى الله عنهما .

﴿والوجه الثانى﴾ أن المراد هو العمى قال مقاتل : لم يبصر بهما ست سنين حتى كشف الله تعالى عنه بقميص يوسف عليه السـلام وهو قوله (فالقوه على وجه أبى يأت بصيرا) قيـل إن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السـلام حينما كان فى السجن فقال إن بصر أبيك ذهب من

الحزن عليك فوضع يده على رأسه وقال : ليت أمى لم تلدنى ولم أك حزنا على أبى . والقائلون بهذا التأويل قالوا : الحزن الدائم يوجب البكاء الدائم وهو يوجب العمى ، فالحزن كان سببا للعمى بهذه الواسطة ، وانما كان البكاء الدائم يوجب العمى ، لأنه يورث كدورة فى سوداء العين ، ومنهم من قال : ماعمى لكنه صار بحيث يدرك ادراكا ضعيفا . قيل : ماجفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف عليه السلام إلى حين لقائه ، وتلك المدة ثمانون عاما . وماكان على وجه الأرض عبدا أكرم على الله تعالى من يعقوب عليه السلام .

أما قوله تعالى ﴿من الحزن﴾ فاعلم أنه قرىء (من الحزن) برفع الحاء وسكون الزاى ، وقرأ الحسن بفتح الحاء والزاى . قال الواحدى : واختلفوا فى الحزن ، والحزن فقال قوم : الحزن البكاء والحزن ضد الفرح ، وقال قوم : هما لغتان يقال أصابه حزن شديد ، وحزن شديد ، وهو مذهب أكثر أهل اللغة ، وروى يونس عن أبى عمرو قال : إذا كان فى موضع النصب فتحوا الحاء والزاى كقوله (ترى أعينهم تفيض من الدمع حزنا) وإذا كان فى موضع الخفض أو الرفع ضموا الحاء كقوله (من الحزن) وقوله (أشكو بثى وحزنى الى الله) قال هو فى موضع رفع بالابتداء .

وأما قوله تعالى ﴿فهو كظيم﴾ فيجوز أن يكون بمعنى الكاظم وهو الممسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة : ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم . ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه ، ويجوز أيضا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده

واعلم أن أشرف أعضاء الانسان هذه الثلاثة ، فبين تعالى أنها كانت غريقة فى الغم فاللسان كان مشغولا بقوله (ياأسفى) والعين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذى يشبه الوعاء المملوء الذى شد ولايمكن خروج الماء منه وهذا مبالغة فى وصف ذلك الغم ،

أما قوله تعالى ﴿قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين﴾ ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال ابن السكيت يقال : مازلت أفعله ومافتئت أفعله ومابرحت أفعله ولا يتكلم بهن إلا مع الجحد ، قال ابن قتيبة يقال : مافتيت ومافتئت لغتان فتيا وفتوأ إذا نسيته وانقطعت عنه قال النحويون وحرف النفى ههنا مضمر على معنى قالوا : ماتفتؤا ولا تفتؤ وجاز حذفه لأنه لو أريد الاثبات لكان باللام والنون نحو . والله لتفعلن فلما كان بغير اللام والنون عرف أن كلمة لا . مضمرة وأنشدوا قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً

والمعنى : لاأبرح قاعداً ومثله كثير . وأما المفسرون فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة لاتزال تذكره ، وعن مجاهد لاتفتر من حبه كأنه جعل الفتور والفتوء أخوين .

(المسألة الثانية) حكى الواحدى عن أهل المعانى أنأصل الحرض فساد الجسم والعقل للحزن والحب . وقوله حرضت فلاناً على فلان تأويله أفسدته وأحميته عليه . وقال تعالى (حرض المؤمنين على القتال)

إذا عرفت هذا فنقول : وصف الرجل بأنه حرض إما أن يكون لارادة أنه ذو حرض فحذف المضاف أو لارادة أنه لما تناهى فى الفساد والضعف فكأنه صار عين الحرض ونفس الفساد . وأما الحرض بكسر الراء فهو الصفةوجاءت القراءة بهما معاً .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه عبارات : أحدها : الحرض والحارض هو الفاسد فىجسمه وعقله . وثانيها : سأل نافع بن الأزرق بن عباس عنالحرض فقال : الفاسدالدنف . وثالثها : أنه الذى يكون لاكالأحياء ولا كالأموات ، وذكرأبو روق أن أنس بن مالك قرأ (حتى تكون حرضا) بضم الحاء وتسكين الراء قال يعنى مثل عود الأشنان . وقوله (أو تكون من الهالكين) أى من الأموات ، ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لاتنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم كانهم قالوا : أنت الآن فى بلاء شديد ونخاف أن يحصل ماهو أزيد منه وأقوى وأرادوا بهذا القول منعه عن كثرة البكاء والأسف .

فان قيل : لم حلفوا على ذلك مع أنهم لم يعلموا ذلك قطعا ؟

قلنا : إنهم بنوا هذا الأمر على الظاهر .

فان قيل : القائلون بهذا الكلام وهو قوله (تالله تفتؤ) من هم ؟

قلنا : الأظهر أن هؤلاء ليسوا هم الأخوة الذين قد تولى عنهم . بل الجماعةالذين كانوا فى الدار من أولاد اولاده وخدمه :

ثم حكى تعالى عن يعقوب عليه السلام أنه قال (إنما أشكوا بثى وحزنى إلى الله) يعنى أن هذا الذى أذكره لاأذكره معكم وانما أذكره فى حضرة الله تعالى ، والانسان إذا بث شكواه إلى الله تعالى كان فى زمرة المحققين كما قال عليه الصلاة والسلام «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك» والله هو الموفق . والبث هو التفريق قال الله تعالى (وبث فيها من كل دابة) فالحزن إذا ستره الانسان كان هما وإذا ذكره لغيره كان بثا وقالوا : البث أشد الحزن

والحزن أشد الهم ، وذلك لأنه متى أمكنه أن يمسك لسانه عن ذكره لم يكن ذلك الحزن مستوليا عليه وأما إذا عظم وعجز الانسان عن ضبطه وانطلق اللسان بذكره شاء أم أبى كان ذلك بثا وذلك يدل على أن الانسان صار عاجزا عنه وهو قد استولى على الانسان ، فقوله (بثى وحزنى إلى الله) أى لا أذكر الحزن العظيم ولا الحزن القليل إلا مع الله . وقرأ الحسن : وحزنى . بفتحين وحزنى بضمتين ، قيل : دخل على يعقوب رجل وقال : يايعقوب ضعف جسمك ونحف بدنك ومابلغت سنا عاليا فقال الذى بى لكثرة غمومى . فأوحى الله اليه يايعقوب أتشكونى الى خلقى ، فقال يارب خطيئة أخطأتها فاغفرها لى فغفرها له ، وكان بعد ذلك اذا سئل قال (إنما أشكو بثى وحزنى الى الله) وروى أنه أوحى الله اليه إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه ، وان أحب خلقى الى الأنبياء والمساكين فاصنع طعاما وادع اليه المساكين ، وقيل . اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت .

ثم قال يعقوب عليه السلام ﴿وأعلم من الله مالا تعلمون﴾ أى أعلم من رحمته وإحسانه مالا تعلمون ، وهو أنه تعالى يأتى بالفرج من حيث لا أحتسب ، فهو إشارة الى أنه كان يتوقع وصول يوسف اليه . وذكروا لسبب هذا التوقع أمورا : أحدها : أن ملك الموت أتاه فقال له : ياملك الموت هل قبضت روح ابنى يوسف ؟ قال لا يانبى الله ثم أشار الى جانب مصر وقال : اطلبه ههنا ، وثانيها : أنه علم أن رؤيا يوسف صادقة . لأن أمارات الرشد والكمال كانت ظاهرة فى حق يوسف ورؤيا مثله عليه السلام لا تخطىء ، وثالثها : لعله تعالى أوحى اليه أنه سيوصله اليه . ولكنه تعالى ماعين الوقت . فلهذا بقى فى القلق ، ورابعها : قال السدى : لما أخبره بنوه بسيرة الملك وكمال حاله فى أقواله وأفعاله طمع أن يكون هو يوسف وقال : يبعد أن يظهر فى الكفار مثله ، وخامسها : علم قطعا أن بنيامين لا يسرق وسمع أن الملك ما آذاه وماضربه فغلب على ظنه أن ذلك الملك هو يوسف فهذا جملة الكلام فى المقام الأول .

﴿والمقام الثانى﴾ أنه رجع إلى أولاده وتكلم معهم على سبيل اللطف . وهو قوله (يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه)

واعلم أنه عليه السلام لما طمع فى وجدان يوسف بناء على الأمارات المذكورة قال لبنيه : تحسسوا من يوسف . والتحسس طلب الشىء بالحاسة وهو شبيه بالسمع والبصر . قال أبو بكر الانبارى يقال : تحسست عن فلان ولا يقال من فلان ، وقيل : ههنا من يوسف لأنه أقام من مقام عن . قال : ويجوز أن يقال : من للتبعيض . والمعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف ، واستعلموا بعض أخبار يوسف

فذكرت كلمة (من) لما فيها من الدلالة على التبعيض، وقرىء (تجسسوا) بالجيم كما قرىء بهما في الحجرات .

ثم قال ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ قال الأصمعي : الروح ما يجده الانسان من نسيم الهواء فيسكن اليه وتركيب الراء والواو والحاء يفيد الحركة والاهتزاز ، فكلما يهتز الانسان له ويلتذ بوجوده فهو روح . وقال ابن عباس : لا تيئسوا من روح الله يريد من رحمة الله . وعن قتادة : من فضل الله ، وقال ابن زيد : من فرج الله . وهذه الألفاظ متقاربة ، وقرأ الحسن وقتادة : من روح الله بالضم أي من رحمته .

ثم قال ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن المؤمن من الله على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرخاء .

واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الانسان أن الاله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر . فاذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة . وكل واحد منها كفر ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا والله أعلم . وقد بقي من مباحث هذه الآية سؤالات :

﴿السؤال الأول﴾ أن بلوغ يعقوب في حب يوسف الى هذا الحد العظيم لا يليق إلا بمن كان غافلا عن الله ، فان من عرف الله أحبه ومن أحب الله لم يتفرغ قلبه لحب شيء سوى الله تعالى ، وأيضا القلب الواحد لا يتسع للحب المستغرق لشيئين ، فلما كان قلبه مستغرقا في حب ولده امتنع أن يقال : إنه كان مستغرقا في حب الله تعالى .

﴿والسؤال الثاني﴾ أن عند استيلاء الحزن الشديد عليه كان من الواجب أن يشتغل بذكر الله تعالى ، وبالتفويض اليه والتسليم لقضائه .

وأما قوله (يا أسفى على يوسف) فذلك لا يليق بأهل الدين والعلم فضلا عن أكابر الأنبياء .

﴿والسؤال الثالث﴾ لا شك أن يعقوب كان من أكابر الأنبياء ، وكان أبوه وجده وعمه كلهم من أكابر الأنبياء المشهورين في جميع الدنيا ، ومن كذلك ثم وقعت له واقعة هائلة صعبة في أعز أولاده عليه لم تبق تلك الواقعة خفية . بل لابد وأن يبلغ في الشهرة الى حيث يعرفها كل أحد لا سيما وقد انقضت المدة الطويلة فيها وبقي يعقوب على حزنه الشديد وأسفه العظيم ، وكان يوسف في مصر وكان يعقوب في بعض بلاد الشام قريبا من مصر ، فمع قرب المسافة يمتنع بقاء مثل هذه الواقعة مخفية .

﴿السؤال الرابع﴾ لم لم يبعث يوسف عليه السلام أحدا إلى يعقوب ويعلمه أنه في الحياة وفي

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ «٨٨» قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ «٨٩» قَالُوا أَءِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٩٠»

السلامة ولا يقال: إنه كان يخاف إخوته لأنه بعد أن صار ملكا قاهرا كان يمكنه إرسال الرسول إليه وإخوته ما كانوا يقدرون على دفع الرسول.

﴿والسؤال الخامس﴾ كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يضع الصاع فى وعاء أخيه ثم يستخرجه منه ويلصق به تهمة السرقة مع أنه كان بريئا عنها.

﴿السؤال السادس﴾ كيف رغب فى إلصاق هذه التهمة به وفى حبسه عند نفسه مع أنه كان يعلم أنه يزداد حزن أبيه ويقوى.

والجواب عن الأول: أن مثل هذه المحنة الشديدة تزيل عن القلب كل ماسواه من الخواطر. ثم إن صاحب هذه المحنة الشديدة يكون كثير الرجوع إلى الله تعالى كثير الاشتغال بالدعاء والتضرع فيصير ذلك سببا لكمال الاستغراق.

والجواب عن الثانى: أن الداعى الانسانية لاتزول فى الحياة العاجلة فتارة كان يقول (ياأسفى على يوسف) وتارة كان يقول (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) وأما بقية الأسئلة فالقاضى أجاب عنها بجواب كلى حسن، فقال هذه الوقائع التى نقلت الينا إما يمكن تخريجها على الأحوال المعتادة أولا يمكن فان كان الأول فلا اشكال، وأن الثانى فنقول: كان ذلك الزمان زمان الأنبياء عليهم السلام وخرق العادة فى هذا الزمان غير مستبعد، فلم يمتنع أن يقال: إن بلدة يعقوب عليه السلام مع أنها كانت قريبة من بلدة يوسف عليه السلام، ولكن لم يصل خبر أحدهما الى الآخر على سبيل نقض العادة.

قوله تعالى ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم

جاهلون قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين﴾

اعلم أن المفسرين اتفقوا على أن ههنا محذوفاً والتقدير: أن يعقوب لما قال لبنيه (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) قبلوا من أبيهم هذه الوصية فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له (يا أيها العزيز)

فان قيل: إذا كان يعقوب أمرهم أن يتحسسوا أمر يوسف وأخيه فلماذا عدلوا إلى الشكوى وطلبوا إيفاء الكيل؟

قلنا: لأن المتحسسين يتوسلون إلى مطلوبهم بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضيق اليد ورقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة مما يرقق القلب فقالوا: نجربه فى ذكر هذه الأمور فان رق قلبه لنا ذكرنا له المقصود وإلا سكتنا. فلهذا السبب قدموا ذكر هذه الواقعة. وقالوا يا أيها العزيز، والعزيز هو الملك القادر المنيع (مسنا وأهلنا الضر) وهو الفقر والحاجة وكثرة العيال وقلة الطعام وعنوا بأهلهم من خلفهم (وجئنا ببضاعة مزجاة) وفيه أبحاث:

﴿البحث الأول﴾ معنى الازجاء فى اللغة، الدفع قليلا قليلا. ومثله التزجية يقال الريح تزجى السحاب. قال الله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا) وزجيت فلانا بالقول دافعته. وفلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالحيلة.

﴿والبحث الثانى﴾ إنما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة إما لنقصانها أو لرداءتها أولهما جميعاً والمفسرون ذكروا كل هذه الأقسام قال الحسن: البضاعة المزجاة القليلة. وقال آخرون إنها كانت رديئة واختلفوا فى تلك الرداءة، فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانت دراهم رديئة لاتقبل فى ثمن الطعام، وقيل: خلق الغرارة والحبل وأمتعة رثة، وقيل: متاع الأعراب الصوف والسمن. وقيل الحبة الخضراء. وقيل الأقط، وقيل النعال والأدم، وقيل سويق المقل. وقيل صوف المعز، وقيل إن دراهم مصر كانت تنقش فيها صورة يوسف والدراهم التى جاؤا بها ما كان فيها صورة يوسف فما كانت مقبوله عند الناس:

﴿البحث الثالث﴾ فى بيان أنه لم سميت البضاعة القليلة الرديئة مزجاة؟ وفيه وجوه: الأول: قال الزجاج: هى من قولهم فلان يزجى العيش أى يدفع الزمان بالقليل، والمعنى أنا جئنا ببضاعة مزجاة ندافع بها الزمان، وليست مما ينتفع به وعلى هذا الوجه فالتقدير ببضاعة مزجاة بها الأيام الثانى: قال أبو عبيد: انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة، لأنها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن ينفقها

قال وهى من الأزجاء ، والأزجاء عند العرب السوق والدفع . الثالث : بيضاعة مزجاة أى مؤخرة مدفوعة عن الانفاق لاينفق مثلها إلا من اضطر واحتاج اليها لفقد غيرها مما هو أجود منها . الرابع . قال الكلبى : مزجاة لغة العجم ، وقيل هى من لغة القبط قال أبوبكر الأنبارى : لاينبغى أن يجعل لفظ عربى معروف الاشتقاق والتصريف منسوبا إلى القبط .

﴿البحث الرابع﴾ قرأ حمزة والكسائى مزجاة بالامالة ، لأن أصله الياء . والباقون بالنصب والتفخيم .

واعلم أن حاصل الكلام فى كون البضاعة مزجاة إما لقلتها أو لنقصانها أو لمجموعهما ولما وصفوا شدة حالهم ووصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة قالوا له (فاوف لنا الكيل) والمراد أن يساهلهم إما بأن يقيم الناقص مقام الزائد أو يقيم الردىء مقام الجيد ، ثم قالوا (وتصدق علينا) والمراد المسامحة بما بين الثمنين وأن يسعر لهم بالردىء كما يسعر بالجيد ، واختلف الناس فى أنه هل كان ذلك طلباً منهم للصدقة فقال سفيان بن عيينة : إن الصدقة كانت حلالا للأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وعلى هذا التقدير ، كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة ، وأنكر الباقون ذلك . وقالوا حال الأنبياء وحال أولاد الأنبياء ينافى طلب الصدقة . لأنهم يأنفون من الخضوع للمخلوقين ويغلب عليهم الانقطاع الى الله تعالى والاستغاثة به عمن سواه ، وروى عن الحسن ومجاهد : أنهما كرها أن يقول الرجل فى دعائه اللهم تصدق على ، قالوا : لأن الله لايتصدق إنما يتصدق الذى يبتغى الثواب ، وإنما يقول : اللهم اعطنى أو تفضل ، فعلى هذا التصدق هو إعطاء الصدقة والمتصدق المعطى . وأجاز الليث أن يقال للسائل : متصدق . وأباه الأكثرون . وروى أنهم لما قالوا (مسنا وأهلنا الضر) وتضرعوا إليه اغرورقت عيناه فعند ذلك (قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه) وقيل : دفعوا إليه كتاب يعقوب . فيه من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر . أما بعد : فأنا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى فى النار ليحرق فنجاه الله وجعلها بردا وسلاما عليه ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما أنا فكان لى ابن . وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية . ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من البكاء عليه ، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه . وكنت أتسلى به فذهبوا به اليك ثم رجعوا وقالوا . إنه قد سرق وانك حبسته عندك وإنا أهل بيت لانسرق ولانلد سارقا ، فان رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك . فلما قرأ يوسف عليه السلام الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وعرفهم أنه يوسف .

ثم حكى تعالى عن يوسف عليه السلام فى هذا المقام أنه قال (هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه) قيل إنه لما قرأ كتاب أبيه يعقوب ارتعدت مفاصله واقشعر جلده ولان قلبه وكثر بكاؤه وصرح بأنه يوسف. وقيل: إنه لما رأى اخوته تضرعوا إليه ووصفوا ماهم عليه من شدة الزمان وقلة الحيلة أدركته الرقة فصرح حينئذ بأنه يوسف، وقوله (هل علمتم مافعلتم بيوسف) استفهام يفيد تعظيم الواقعة. ومعناه: ما أعظم ما ارتكبتم فى يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه، وهو كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت وهل تعرف من خالفت؟

واعلم أن هذه الآية تصديق لقوله تعالى (وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) وأما قوله (وأخيه) فالمراد مافعلوا به من تعريضه للغم بسبب افراده عن أخيه لأبيه وأمه، وأيضا كانوا يؤذونه ومن جملة أقسام ذلك الايذاء قالوا فى حقه (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وأما قوله (إذ أنتم جاهلون) فهو يجرى مجرى العذر كأنه قال: أنتم إنما أقدمتم على ذلك الفعل القبيح المنكر حال ما كنتم فى جهالة الصبا أو فى جهالة الغرور، يعنى والآن لستم كذلك، ونظيره مايقال فى تفسير قوله تعالى (ماغرك بربك الكريم) قيل إنما ذكر تعالى هذا الوصف المعين ليكون ذلك جاريا مجرى الجواب وهو أن يقول العبد يارب غرنى كرمك فكذا ههنا إنما ذكر ذلك الكلام إزالة للخجالة عنهم وتخفيفا للأمر عليهم. ثم إن اخوته قالوا (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف) قرأ ابن كثير (انك) على لفظ الخبر، وقرأ نافع (أينك لأنت يوسف) بفتح الألف غير ممدودة وبالياء، وأبو عمرو (آينك) بمد الألف وهو رواية قالون عن نافع، والباقون (أئنك) بهمزتين وكل ذلك على الاستفهام، وقرأ أبى (أوأنت يوسف) فحصل من هذه القراءات أن من القراء من قرأ بالاستفهام ومنهم من قرأ بالخبر. أما الأولون فقالوا: إن يوسف لما قال لهم (هل علمتم) وتبسم فأبصروا ثناياه، وكانت كاللؤلؤ المنظوم شبهوه بيوسف، فقالوا له استفهاما (أئنك لأنت يوسف) ويدل على صحة الاستفهام أنه (قال أنا يوسف) وإنما أجابهم عما استفهموا عنه. وأما من قرأ على الخبر فحجته ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان فى فرقه علامة وكان ليعقوب وإسحق مثلها شبه الشامة. فلما رفع التاج عرفوه بتلك العلامة، فقالوا (إنك لأنت يوسف) ويجوز أن يكون ابن كثير أراد الاستفهام. ثم حذف حرف الاستفهام وقوله (قال أنا يوسف) فيه بحثان:

﴿البحث الأول﴾ اللام لام الابتداء. وأنت مبتدأ. ويوسف خبره، والجملة خبر إن.

﴿البحث الثانى﴾ أنه إنما صرح بالاسم تعظيما لما نزل به من ظلم إخوته وما عوضه الله من

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ «٩١» قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٩٢» اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ «٩٣»

الظفر والنصر؛ فكأنه قال: أناالذى ظلمتمونى على أعظم الوجوه والله تعالى أوصلنى الى أعظم المناصب. أناذلك العاجز الذى قصدتم قتله وإلقاءه فى البئر ثم صرت كما ترون، ولهذا قال (وهذا أخى) مع أنهم كانو يعرفونه لأن مقصوده أن يقول: وهذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت ثم إنه صار منعماً عليه من قبل الله تعالى كما ترون وقوله (قد من الله علينا) قال ابن عباس رضى الله عنهما بكل عز فى الدنيا والآخرة وقال آخرون بالجمع بيننا بعد التفرقة وقوله (إنه من يتق ويصبر) معناه: من يتق معاصى الله ويصبر على أذى الناس (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) والمعنى: إنه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجرهم فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين. وفيه مسألتان:

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام وصف نفسه فى هذا المقام الشريف بكونه متقياً ولو أنه قدم على مايقوله الحشوية فى حق زليخا لكان هذا القول كذباً منه وذكر الكذب فى مثل هذا المقام الذى يؤمن فيه الكافر ويتوب فيه العاصى لا يليق بالعقلاء.

﴿المسألة الثانية﴾ قال الواحدى روى عن ابن كثير فى طريق قنبل (إنه من يتقى) باثبات الياء فى الحالين ووجهه أن يجعل «من» بمنزلة الذى فلا يوجب الجزم ويجوز على هذا الوجه أن يكون قوله (ويصبر) فى موضع الرفع إلا أنه حذف الرفع طلباً للتخفيف كما يخفف فى عضد وشمع. والباقون بحذف الياء فى الحالين.

قوله تعالى ﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين﴾

اعلم أن يوسف عليه السلام لما ذكر لاخوته أن الله تعالى من عليه وان من يتق المعاصى ويصبر على أذى الناس فانه لا يضيعه الله صدقوه فيه، واعترفوا له بالفضل والمزية (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين) قال الأصمعى: يقال: آثرك ايثارا، أى فضلك الله، وفلان آثر عبد فلان، إذا كان يؤثره بفضله وصلته. والمعنى: لقد فضلك الله علينا بالعلم

والحلم والعقل والفضل والحسن والملك ، واحتج بعضهم بهذه الآية على أن اخوته ماكانوا أنبياء ، لأن جميع المناصب التى تكون مغايرة لمنصب النبوة كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه فى منصب النبوة لما قالوا (تالله لقد آثرك الله علينا) وبهذا التقدير يذهب سؤال من يقول لعل المراد كونه زائدا عليهم فى الملك وأحوال الدنيا وان شاركوه فى النبوة لانا بينا أن أحوال الدنيا لايعبأ بها فى جنب منصب النبوة .

وأما قوله ﴿وإن كنا لخاطئين﴾ قيل الخاطىء هو الذى أتى بالخطيئة عمدا . وفرق بين الخاطىء والمخطىء ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد فى الاحكام فلا يصيب إنه مخطىء . ولا يقال إنه خاطىء وأكثر المفسرين على أن الذى اعتذروا منه هو اقدامهم على القائه فى الجب وبيعه وتبعيده عن البيت والأب . وقال أبوعلى الجبائى : إنهم لم يعتذروا اليه من ذلك ، لأن ذلك وقع منهم قبل البلوغ فلا يكون ذنبا فلا يعتذر منه . وانما اعتذروا من حيث أنهم أخطؤا بعد ذلك بأن لم يظهروا لأبيهم مافعلوه ، ليعلم أنه حى وأن الذئب لم يأكله وهذا الكلام ضعيف من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ أنا بينا أنه لايجوز أن يقال إنهم أقدموا على تلك الأعمال فى زمن الصبا لأنه من البعيد فى مثل يعقوب أن يبعث جمعا من الصبيان غير البالغين من غير أن يبعث معهم رجلا عاقلا يمنعهم عما لاينبغى ويحملهم على ماينبغى .

﴿الوجه الثانى﴾ هب أن الأمر على ماذكره الجبائى إلا أنا نقول غاية مافى الباب أنه لا يجب الاعتذار عن ذلك إلا أنه يمكن أن يقال انه يحسن الاعتذار عنه ، والدليل عليه أن المذنب إذا تاب زال عقابه . ثم قد يعيد التوبة والاعتذار مرة أخرى ، فعلمنا أن الانسان أيضاً قد يتوب عند مالا تكون التوبة واجبة عليه .

واعلم أنهم لما اعترفوا بفضله عليهم وبكونهم مجرمين خاطئين قال يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ التثريب التوبيخ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «إذا زنت أمة أحدكم فليضربها الحد ولا يثربها» أى ولا يعيرها بالزنا . فقوله (لاتثريب) أى لاتوبيخ ولا عيب وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش . ومعناه إزالة الثرب كما أن التجليد إزالة الجلد قال عطاء الخراسانى طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منها إلى الشيوخ ألاترى إلى قول يوسف عليه السلام لاخوته (لاتثريب عليكم) وقول يعقوب (سوف أستغفر لكم ربى)

﴿البحث الثانى﴾ ان قوله (اليوم) متعلق بماذا وفيه قولان :

﴿القول الأول﴾ انه متعلق بقوله (لا تثريب) أى لا أثر بكم اليوم وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب فما ظنكم بسائر الأيام ، وفيه احتمال آخر وهو أنى حكمت فى هـذا اليوم بأن لا تثريب مطلقاً لأن قوله (لاتثريب) نفى للماهية ونفى الماهية يقتضى انتفاء جميع أفراد الماهية ، فكان ذلك مفيداً للنفى المتناول لكل الأوقات والأحوال . فتقدير الكلام اليوم حكمت بهـذا الحـكم العام المتناول لكل الأوقات والأحوال . ثم إنه لما بين لهم أنه أزال عنهـم ملامة الدنيا طلب من الله أن يزيل عنهم عقاب الآخرة فقال (يغفر الله لكم) والمراد منه الدعاء .

﴿والقول الثانى﴾ أن قوله (اليوم) متعلق بقوله (يغفر الله لكم) كأنه لما نفى التثريب مطلقا بشرهم بأن الله غفر ذنبهم فى هذا اليوم ، وذلك لأنهم لما انكسروا وخجلوا واعترفوا وتابوا فالله قبل توبتهم وغفر ذنبهم . فلذلك قال (اليوم يغفر الله لكم) روى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم الفتح ، وقال لقريش «ماترونى فاعلا بكم» فقالوا نظن خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال «أقول ماقال أخى يوسف لاتثريب عليكم اليوم» وروى أن أباسفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : اذا أتيت رسول الله صـلى الله عليه وسلم فاتل عليه (قال لاتثريب عليكم اليوم) ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غفر الله لك ولمن علمك» وروى أن إخوة يوسف لما عرفوه أرسلوا اليه إنك تحضرنا فى مائدتك بكرة وعشيا ونحن نستحى منك لما صدر منا من الاساءة اليك ، فقال يوسف عليه السلام ان أهل مصر وإن ملكت فيهم فانهم ينظرونى بالعين الأولى ويقولون : سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما مابلغ ، ولقد شرفت الآن باتيانكم وعظمت فى العيون لما جئتم وعلم الناس أنكم إخوتى وإنى من حفدة إبراهيم عليه السلام .

ثم قال يوسف عليـه السلام ﴿اذهبوا بقميصى هـذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا﴾ قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه ، قال المحققون : إنما عرف أن القاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحى من الله تعالى ولولا الوحى لما عرف ذلك ، لأن العقل لايدل عليه ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ماصار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فاذا ألقى عليه قميصه فلابد أن ينشرح صدره وأن يحصل فى قلبه الفرح الشديد ، وذلك يقوى الروح ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان ، فهـذا القدر مما يمكن معرفته بالقلب فان القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى ، وقوله (يأت بصيرا) أى يصير بصيرا ويشهد له (فارتد بصيرا) ويقال : المراد يأت الى وهو بصير ، وإنما أفرده بالذكر تعظيما له ، وقال فى الباقين (وأتونى بأهلكم أجمعين) قال

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ «٩٤» قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ «٩٥» فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٩٦» قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ «٩٧» قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٩٨»

الكلبي : كان أهله نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق دخل قوم يوسف عليه السلام مصر . وهم ثلاثة وتسعون من بين رجل وامرأة ، وروى أن يهودا حمل الكتاب وقال أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم اليه فافرحه كما أحزنته . وقيل حمله وهو حاف وحاسر من مصر إلى كنعان . وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا .

قوله تعالى ﴿ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله انك لفى ضلالك القديم فلما جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم﴾

يقال : فصل فلان من عند فلان فصولا إذا خرج من عنده . وفصل منى اليه كتابا اذا أنفذ به اليه . وفصل يكون لازما ومتعديا واذا كان لازما فمصدره الفصول واذا كان متعديا فمصدره الفصل قال لما خرجت العير من مصر متوجهة الى كنعان قال : يعقوب عليه السلام لمن حضر عنده من أهله وقرابته وولد ولده (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) ولم يكن هذا القول مع أولاده لأنهم كانوا غائبين بدليل أنه عليه السلام قال لهم (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) واختلفوا فى قدر المسافة فقيل : مسيرة ثمانية أيام ، وقيل عشرة أيام . وقيل ثمانون فرسخا . واختلفوا فى كيفية وصول تلك الرائحة اليه ، فقال مجاهد : هبت ريح فصفقت القميص ففاحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه السلام أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص . فمن ثم قال (إنى لأجد ريح يوسف) وروى الواحدى باسناده عن أنس بن مالك

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أما قوله (اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) فان نمروذ الجبار لما ألقى إبراهيم فى النار نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه ، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص اسحاق وكساه اسحق يعقوب وكساه يعقوب يوسف فجعله فى قصبة من فضة وعلقها فى عنقه فألقى فى الجب والقميص فى عنقه . فذلك قوله (اذهبوا بقميصى هذا) والتحقيق أن يقال : إنه تعالى أوصل تلك الرائحة اليه على سبيل اظهار المعجزات لا وصول الرائحة اليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة فيكون معجزة ولا بد من كونها معجزة لأحدهما والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام حين أخبر عنه ونسبوه فى هذا الكلام الى مالا ينبغى ، فظهر أن الأمر كما ذكر فكان معجزة له . قال أهل المعانى: إن الله تعالى أوصل اليه ريح يوسف عليه السلام عند انقضاء مدة المحنة ومجىء وقت الروح والفرح من المكان البعيد ومنع من وصول خبره اليه مع قرب احدى البلدتين من الأخرى فى مدة ثمانين سنة وذلك يدل على أن كل سهل فهو فى زمان المحنة صعب وكل صعب فهو فى زمان الاقبال سهل ومعنى : لأجد ريح يوسف أشم وعبر عنه بالوجود لأنه وجدان له بحاسة الشم ، وقوله (لولا أن تفندون) قال ابو بكر بن الأنبارى : أفند الرجل إذا حزن وتغير عقله وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه ، وعن الأصمعى إذا كثر كلام الرجل من خرف فهو المفند قال صاحب الكشاف : يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم يكن فى شبيبتها ذات رأى حتى تفند فى كبرها فقوله (لولا أن تفندون) أى لولا أن تنسبونى الى الخرف ، ولما ذكر يعقوب ذلك قال الحاضرون عنده (تالله إنك لفى ضلالك القديم) وفى الضلال ههنا وجوه : الأول : قال مقاتل : يعنى بالضلال ههنا الشقاء ، يعنى شقاء الدنيا والمعنى : انك لفى شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف ، واحتج مقاتل بقوله (إنا اذن لفى ضلال وسعر) يعنون لفى شقاء دنيانا ، وقال قتادة : لفى ضلالك القديم ، أى لفى حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه وهو كقولهم (إن أبانا لفى ضلال مبين) ثم قال قتادة : قد قالوا كلمة غليظة ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبى الله ، وقال الحسن إنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات وقد كان يعقوب فى ولوعه بذكره . ذاهباً عن الرشد والصواب وقوله (فلما أن جاء البشير) فى «أن» قولان : الأول : أنه لا موضع لها من الاعراب وقد تذكر تارة كما ههنا . وقد تحذف كقوله (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) والمذهبان جميعاً موجودان فى أشعار العرب . والثانى : قال البصريون هى مع «ما» فى موضع رفع بالفعل المضمر تقديره : فلما ظهر أن جاء البشير ، أى ظهر مجىء البشير فأضمر الرافع قال جمهور المفسرين البشير هو يهودا قال أنا ذهبت بالقميص الملطخ بالدم وقلت إن يوسف أكله

الذئب فأذهب اليوم بالقميص فأفرحه كما أحزنته قوله (ألقاه على وجهه) أى طرح البشير القميص على وجهه يعقوب أو يقال ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد بصيرا) أى رجع بصيراً ومعنى الارتداد انقلاب الشيء إلى حالة قد كان عليها وقوله (فارتد بصيرا) أى صيره الله بصيراً كما يقال طالت النخلة والله تعالى أطالها واختلفوا فيه فقال بعضهم: إنه كان قد عمى بالكلية فالله تعالى جعله بصيراً فى هذا الوقت. وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء وكثرة الأحزان. فلما ألقوا القميص على وجهه، وبشر بحياة يوسف عليه السلام عظم فرحه، وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه، فعند هذا قال (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) والمراد علمه بحياة يوسف من جهة الرؤيا. لأن هذا المعنى هو الذى له تعلق بما تقدم. وهو إشارة الى ماتقدم من قوله (إنما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله مالا تعلمون) روى أنه سأل البشير وقال: كيف يوسف قال هو ملك مصر، قال ما أصنع بالملك على أى دين تركته قال: على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة. ثم إن أولاد يعقوب أخذوا يعتذرون اليه (وقالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وظاهر الكلام أنه لم يستغفر لهم فى الحال، بل وعدهم بأنه يستغفر لهم بعد ذلك. واختلفوا فى سبب هذا المعنى على وجوه: الأول: قال ابن عباس رضى الله عنهما: والأكثرون أراد أن يستغفر لهم فى وقت السحر، لأن هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الاجابة. الثانى: قال ابن عباس رضى الله عنهما: فى رواية أخرى أخر الاستغفار الى ليلة الجمعة، لأنها أوفق الأوقات للاجابة. الثالث: أراد أن يعرف أنهم هل تابوا فى الحقيقة أم لا. وهل حصلت توبتهم مقرونة بالاخلاص التام أم لا. الرابع: استغفر لهم فى الحال، وقوله (سأستغفر لكم) معناه أنى أداوم على هذا الاستغفار فى الزمان المستقبل، فقد روى أنه كان يستغفر لهم فى كل ليلة جمعة فى نيف وعشرين سنة. وقيل: قام الى الصلاة فى وقت فلما فرغ رفع يده الى السماء وقال «اللهم اغفر لى جزعى على يوسف وقلة صبرى عليه، واغفر لأولادى مافعلوه فى حق يوسف عليه السلام» فأوحى الله تعالى اليه: قد غفرت لك ولهم أجمعين. وروى أن أبناء يعقوب عليه السلام قالوا ليعقوب وقد غلبهم الخوف والبكاء: مايغنى عنا إن لم يغفر لنا، فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى قل صبرهم فظنوا أنها الهلكة فنزل جبريل عليه السلام وقال «إن الله تعالى أجاب دعوتك فى ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة» وقد اختلف الناس فى نبوتهم وهو مشهور.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ «٩٩» وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ «١٠٠»

قوله تعالى ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾

اعلم أنه روى أن يوسف عليه السلام وجه إلى أبيه جهازاً ومائتى راحلة ليتجهز اليه بمن معه وخرج يوسف عليه السلام والملك فى أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم تلقوا يعقوب عليه السلام وهو يمشى يتوكأ على يهودا فنظر إلى الخيل والناس فقال يايهودا هذا فرعون مصر. قال: لا. هذا ولدك يوسف فذهب يوسف يبدأ بالسلام فمنع من ذلك فقال يعقوب عليه السلام: السلام عليك وقيل إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون مابين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ

أما قوله ﴿آوى اليه أبويه﴾ ففيه بحثان:

﴿البحث الأول﴾ فى المراد بقوله أبويه قولان: الأول: المراد أبوه وأمه، وعلى هذا القول فقيل إن أمه كانت باقية حية الى ذلك الوقت، وقيل إنها كانت قد ماتت، إلا ان الله تعالى أحياها وأنشرها من قبرها حتى سجدت له تحقيقا لرؤية يوسف عليه السلام،

﴿والقول الثانى﴾ ان المراد أبوه وخالته، لأن أمه ماتت فى النفاس بأخيه بنيامين، وقيل: بنيامين بالعبرانية ابن الوجع، ولما ماتت امه تزوج أبوه بخالته فسماها الله تعالى بأحد الأبوين، لأن

الرابة تدعى، إما لقيامها مقام الأم أو لأن الخالة أم كما أن العم أب . ومنه قوله تعالى (وإله آبائك إبراهيم وإسمعيل وإسحق)

﴿البحث الثانى﴾ آوى اليه أبويه ضمهما اليه واعتنقهما .

فان قيل : مامعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر ؟

قلنا : كأنه حين استقبلهم نزل بهم فى بيت هناك أو خيمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه وقال لهم (ادخلوا مصر)

أما قوله ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ ففيهأبحاث

﴿البحث الأول﴾ قال السدى إنه قال : هذا القول قبل دخولهم مصر : لأنه كان قد استقبلهم وهذا هو الذى قررناه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بقوله (ادخلوا مصر) أى أقيموا بها آمنين ، سمى الاقامة دخولا لاقتران أحدهما بالآخر .

﴿البحث الثانى﴾ الاستثناء وهو قول (إن شاء الله) فيه قولان : الأول : أنه عائد الى الأمن لاالىالدخول ، والمعنى : ادخلوامصر آمنين إن شاء الله ، ونظيرهقوله تعالى(لتدخلن المسجدالحرام إن شاء الله آمنين) وقيل إنه عائد الى الدخول علىالقول الذى ذكرناه أنه قال لهم هذا الكلام قبل أن دخلوا مصر .

﴿البحث الثالث﴾ معنى قوله (آمنين) يعنى على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لاتخافون أحدا . وكانوا فيما سلف يخافون ملوك مصر وقيل آمنين من القحط والشدة والفاقة . وقيل آمنين من أن يضرهم يوسف بالجرم السالف .

أما قوله ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ قال أهل اللغة : العرش السرير الرفيع قال تعالى (ولها عرش عظيم) والمراد بالعرش ههنا السرير الذى كان يجلس عليه يوسف . وأما قوله (وخروا له سجدا) ففيه إشكال . وذلك لأن يعقوب عليه السلام كان أبا يوسف وحق الأبوة عظيم قال تعالى (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) فقرن حق الوالدين بحق نفسه . وأيضا أنه كان شيخا . والشاب يجب عليه تعظيم الشيخ .

﴿والقول الثالث﴾ أنه كان من أكابر الأنبياء ويوسف وان كان نبيا إلا أن يعقوب كان أعلى حالا منه .

﴿والقول الرابع﴾ أن جد يعقوب واجتهاده فى تكثير الطاعات أكثر من جد يوسف ولما اجتمعت هذه الجهات الكثيرة فهذا يوجب أن يبالغ يوسف فى خدمة يعقوب فكيف استجاز يوسف أن يسجد له يعقوب هذا تقرير السؤال .

والجواب عنه من وجوه :

﴿الوجه الأول﴾ وهو قول ابن عباس فى رواية عطاء أن المراد بهذه الآية أنهم خروا له أى لأجل وجدانه سجدا لله تعالى . وحاصل الكلام : أن ذلك السجود كان سجودا للشكر فالمسجود له هو الله ، إلا أن ذلك السجود انما كان لأجله والدليل على صحة هذا التأويل أن قوله (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) مشعر بأنهم صعدوا ذلك السرير ، ثم سجدوا له ، ولو أنهم سجدوا ليوسف لسجدوا له قبل الصعود على السرير لأن ذلك أدخل فى التواضع .

فان قالوا : فهذا التأويل لايطابق قوله (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل) والمراد منه قوله (إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لى ساجدين)

قلنا : بل هذا مطابق ويكون المراد من قوله (والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) لاجلى أى أنها سجدت لله لطلب مصلحتى وللسعى فى اعلاء منصبى ، وإذا كان هذا محتملا سقط السؤال .
وعندى أن هذا التأويل متعين ، لأنه لايستبعد من عقل يوسف ودينه أن يرضى بأن يسجد له أبوه مع سابقته فى حقوق الولادة والشيخوخة والعلم والدين وكمال النبوة .

﴿والوجه الثانى﴾ فى الجواب أن يقال : إنهم جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه . وهذا التأويل حسن فانه يقال : صليت للكعبة كما يقال : صليت الى الكعبة . قال حسان شعرا .

ما كنت أعرف أن الأمر منصرف   عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
اليس أول من صلى لقبلتكم   وأعرف الناس بالقرآن والسنن

وهذا يدل على أنه يجوز أن يقال فلان صلى للقبلة ، وكذلك يجوز أن يقال سجد للقبلة وقوله (وخروا له سجدا) اى جعلوه كالقبلة ثم سجدوا لله شكرا لنعمة وجدانه .

﴿الوجه الثالث﴾ فى الجواب قد يسمى التواضع سجودا كقوله :

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

وكان المراد ههنا التواضع إلاأن هذا مشكل . لأنه تعالى قال (وخروا له سجدا) والخرورالى السجدة مشعر بالاتيان بالسجدة على أكمل الوجوه وأجيب عنه بأن الخرورقد يعنى به المرور فقط قال تعالى (لم يخروا عليها صما وعميانا) يعنى لم يمروا .

﴿الوجه الرابع﴾ فى الجواب أن نقول : الضمير فى قوله (وخروا له) غير عائد إلى الأبوين لامحالة ، وإلا لقال : وخروا له ساجدين ، بل الضمير عائد إلى إخوته . وإلى سائر من كان يدخل

عليه لأجل التهنئة . والتقدير : ورفع أبويه على العرش مبالغة فى تعظيمهما ، وأما الأخوة وسائر الداخلين فخروا له ساجدين .

فان قالوا : فهذا لا يلائم قوله (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل)

قلنا : إن تعبير الرؤيا لا يجب أن يكون مطابقا للرؤيا بحسب الصورة والصفة من كل الوجوه فسجود الكواكب والشمس والقمر ، تعبير عن تعظيم الأكابر من الناس له . ولا شك أن ذهاب يعقوب مع أولاده من كنعان إلى مصر لأجله فى نهاية التعظيم له ، فكفى هذا القدر فى صحة الرؤيا فاما أن يكون التعبير مساويا لأصل الرؤيا فى الصفة والصورة فلم يوجبه أحد من العقلاء .

﴿الوجه الخامس﴾ فى الجواب لعل الفعل الدال على التحية والاكرام فى ذلك الوقت هو السجود ، وكان مقصودهم من السجود تعظيمه ، وهذا فى غاية البعد لأن المبالغة فى التعظيم كانت أليق بيوسف منها بيعقوب ، فلو كان الأمر كما قلتم ، لكان من الواجب أن يسجد يوسف ليعقوب عليه السلام .

﴿والوجه السادس﴾ فيه أن يقال : لعل اخوته حملتهم الأنفة والاستعلاء على أن لا يسجدوا له على سبيل التواضع ، وعلم يعقوب عليه السلام أنهم لو لم يفعلوا ذلك لصار ذلك سببا لثوران الفتن ولظهور الأحقاد القديمة بعد كمونها فهو عليه السلام مع جلالة قدره وعظم حقه بسبب الأبوة والشيخوخة والتقدم فى الدين والنبوة والعلم فعل ذلك السجود ، حتى تصير مشاهدتهم لذلك سببا لزوال الأنفة والنفرة عن قلوبهم ألا ترى أن السلطان الكبير إذا نصب محتسبا فاذا أراد ترتيبه مكنه فى إقامة الحسبة عليه ليصير ذلك سببا فى أن لا يبقى فى قلب أحد منازعة ذلك المحتسب فى إقامة الحسبة فكذا ههنا .

﴿الوجه السابع﴾ لعل الله تعالى أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية لا يعرفها إلا هو كما أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة لا يعرفها إلا هو . ويوسف ما كان راضيا بذلك فى قلبه إلا أنه لما علم أن الله أمره بذلك سكت .

ثم حكى تعالى أن يوسف لما رأى هذه الحالة ﴿قال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا﴾ وفيه بحثان :

﴿البحث الأول﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه لما رأى سجود أبويه وإخوته هاله ذلك واقشعر جلده منه ، وقال ليعقوب هذا تأويل رؤياى من قبل ، وأقول : هذا يقوى الجواب السابع كأنه يقول : ياأبت لا يليق بمثلك على جلالتك فى العلم والدين والنبوة أن تسجد لولدك إلا أن هذا

أمر أمرت به وتكاليف كلفت به . فان رؤيا الأنبياء حق كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده صار سببا لوجوب ذلك الذبح عليه فى اليقظة فكذلك صارت هذه الرؤيا التى رآها يوسف وحكاها ليعقوب سببا لوجوب ذلك السجود ، فلهذا السبب حكى ابن عباس رضى الله عنهما أن يوسف عليه السلام لما رأى ذلك هاله واقشعر جلده ولكنه لم يقل شيئا ، وأقول : لايبعد أن يكون ذلك من تمام تشديد الله تعالى على يعقوب كانه قيل له : إنك كنت دائم الرغبة فى وصاله ودائم الحزن بسبب فراقه ، فاذا وجدته فاسجد له ، فكان الأمر بذلك السجود من تمام الشديد ، والله أعلم بحقائق الأمور .

﴿البحث الثانى﴾ اختلفوا فى مقدار المدة بين هذا الوقت وبين الرؤيا فقيل ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون . وهو قول الأكثرين . ولذلك يقولون إن تأويل الرؤيا إنما صحت بعد أربعين سنة ، وقيل ثمانى عشرة سنة وعن الحسن أنه ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وبقى فى العبودية والسجون ثمانين سنة ، ثم وصل الى أبيه وأقاربه . وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فكان عمره مائة وعشرين سنة والله أعلم بحقائق الأمور .

ثم قال ﴿ وقد أحسن بى﴾ أى إلى يقال : أحسن بى واليه . قال كثير .

أسيئى بنا أو أحسنى لاملومة   لدينا ولا مقلية إن ثقلت

إذ أخرجنى من السجن ولم يذكر إخراجه من البئر لوجوه : الأول أنه قال لاخوته (لاتثريب عليكم اليوم) ولو ذكر واقعة البئر لكان ذلك تثريبا لهم فكان إهماله جاريا مجرى الكرم ، الثانى : أنه لما خرج من البئر لم يصر ملكا بل صيروه عبدا ، أما لما خرج من السجن صيروه ملكا فكان هذا الاخراج أقرب من أن يكون إنعاما كاملا ، الثالث : أنه لما أخرج من البئر وقع فى المضار الحاصلة بسبب تهمة المرأة فلما أخرج من السجن وصل إلى أبيه وإخوته وزالت التهمة فكان هذا أقرب إلى المنفعة . الرابع : قال الواحدى : النعمة فى اخراجه من السجن أعظم لأن دخوله فى السجن كان بسبب ذنب هم به . وهذا ينبغى أن يحمل على ميل الطبع ورغبة النفس ، وهذا وان كان فى محل العفو فى حق غيره الا أنه ربما كان سببا للمؤاخذة فى حقه لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين

ثم قال ﴿وجاء بكم من البدو﴾ وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ فى الآية قولان :

﴿القول الأول﴾ جاء بكم من البدو أى من البادية ، وقال الواحدى : البدو بسيط من الأرض يظهر فيه الشخص من بعيد وأصله من بدا يبدو بدوا ، ثم سمى المكان باسم المصدر فيقال : بدو

وحضر وكان يعقوب وولده بأرض كنعان أهل مواش وبريه .

﴿والقول الثاني﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما كان يعقوب قد تحول إلى بدا وسكنها ، ومنها قدم على يوسف وله بها مسجد تحت جبلها قال ابن الأنباري : بدا اسم موضع معروف يقال هو بين شعب وبدا وهما موضعان ذكرهما جميعاً كثير فقال :

وأنت التي حببت شعبا إلى بدا إلي وأوطاني بلاد سواهما

فالبدو على هذا القول معناه قصد هذا الموضع الذي يقال له بدا يقال بدا القوم يبدون بدوا إذا أتوا بدا كما يقال : غار القوم غورا إذا أتوا الغور فكان معنى الآية وجاء بكم من قصد بدا ، وعلى هذا القول كان يعقوب وولده حضريين لأن البدو لم يرد به البادية لكن عنى به قصد بدا إلى ههنا كلام قاله الواحدي في البسيط .

﴿المسألة الثانية﴾ تمسك أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى ، لأن خروج العبد من السجن أضافه إلى نفسه بقوله (إذ أخرجني من السجن) ومجيئهم من البدو وأضافه إلى نفسه سبحانه بقوله (وجاء بكم من البدو) وهذا صريح في أن فعل العبد بعينه فعل الله تعالى وحمل هذا على أن المراد أن ذلك إنما حصل باقدار الله تعالى وتيسيره عدول عن الظاهر .

ثم قال ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي﴾ قال صاحب الكشاف : (نزغ) أفسد بيننا وأغوى وأصله من نزغ الراكض الدابة وحملها على الجري : يقال : نزغه ونسغه إذا نخسه .

واعلم أن الجبائي والكعبي والقاضي : احتجوا بهذه الآية على بطلان الجبر قالوا : لأنه تعالى أخبر عن يوسف عليه السلام أنه أضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ إلى الشيطان . ولو كان ذلك أيضا من الرحمن لوجب أن لا ينسب إلا اليه كما في النعم .

والجواب : أن اضافته هذا الفعل الى الشيطان مجاز . لأن عندكم الشيطان لا يتمكن من الكلام الخفي وقد أخبر الله عنه فقال (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي) فثبت أن ظاهر القرآن يقتضي إضافة هذا الفعل إلى الشيطان مع أنه ليس كذلك . وأيضا فان كان اقدام المرء على المعصية بسبب الشيطان فاقدام الشيطان على المعصية ان كان بسبب شيطان آخر لزم التسلسل وهو محال وان لم يكن بسبب شيطان آخر فليقل مثله في حق الانسان . فثبت أن اقدام المرء على الجهل والفسق ليس بسبب الشيطان وليس أيضا بسبب نفسه لأن أحدا لا يميل طبعه الى اختيار الجهل والفسق الذي يوجب وقوعه في ذم الدنيا وعقاب الآخرة ، ولما كان وقوعه في الكفر والفسق لابد له من موقع ، وقد بطل القسمان لم يبق الا أن يقال ذلك من الله تعالى ، ثم الذي

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ «١٠١»

يؤكد ذلك أن الآية المتقدمة على هذه الآية وهى قوله (اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو صريح فى أن الكل من الله تعالى .

ثم قال ﴿إن ربى لطيف لما يشاء﴾ والمعنى أن حصول الاجتماع بين يوسف وبين أبيه واخوته مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان فى غاية البعد عن العقول الا انه تعالى لطيف فاذا أراد حصول شىء سهل أسبابه فحصل وان كان فى غاية البعد عن الحصول .

ثم قال ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أعنى أن كونه لطيفاً فى أفعاله إنما كان لأجل أنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التى لا نهاية لها فيكون عالما بالوجه الذى يسهل تحصيل ذلك الصعب . وحكيم أى محكم فى فعله ، حاكم فى قضائه . حكيم فى أفعاله مبرأ عن العبث والباطل والله أعلم .

قوله تعالى ﴿رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين﴾

فى الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ روى أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب وطاف به فى خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلى وخزائن الثياب وخزائن السلاح ، فلما أدخله مخازن القراطيس قال يابنى ما أغفلك ، عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى على ثمان مراحل قال نهانى جبريل عليه السلام عنه قال سله عن السبب قال أنت أبسط اليه فسأله فقال جبريل عليه السلام ، أمرنى الله بذلك لقولك وأخاف أن يأكله الذئب . فهلا خفتنى وروى أن يعقوب عليه السلام أقام معه أربعاً وعشرين سنة ولما قربت وفاته أوصى اليه أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق فمضى بنفسه ودفنه ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة . فعند ذلك تمنى ملك الآخرة فتمنى الموت . وقيل : ماتمناه نبى قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا ، فتخاصم أهل مصر فى دفنه كل أحد يحب أن يدفن فى محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا أن الأصلح أن يعملوا له صندوقا من مرمر ويجعلوه فيه ويدفنوه فى النيل بمكان يمر الماء عليه ثم يصل الى مصر لتصل بركته الى كل أحد ، وولد له افرائيم وميشا ، وولد لافرائيم نون . ولنون يوشع فتى موسى ، ثم دفن يوسف هناك الى أن بعث الله موسى

فأخرج عظامه من مصر ودفنها عند قبر أبيه .

﴿المسألة الثانية﴾ من فى قوله (من الملك . ومن تأويل الأحاديث) للتبعيض ، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا أو بعض ملك مصر وبعض التأويل . قال الأصم : إنما قال من الملك ، لأنه كان ذو ملك فوقه .

واعلم أن مراتب الموجودات ثلاثة : المؤثر الذى لا يتأثر وهو الاله تعالى وتقدس ، والمتأثر الذى لا يؤثر وهو عالم الأجسام ، فانها قابلة للتشكيل والتصوير والصفات المختلفة والأعراض المتضادة فلا يكون لها تأثير فى شىء أصلا ، وهذان القسمان متباعدان جدا ويتوسطهما قسم ثالث ، وهو الذى يؤثر ويتأثر ، وهو عالم الأرواح . فخاصية جوهر الأرواح أنها تقبل الأثر والتصرف عن عالم نور جلال الله ، ثم إنها اذا أقبلت على عالم الأجسام تصرفت فيه وأثرت فيه ، فتعلق الروح بعالم الأجسام بالتصرف والتدبير فيه ، وتعلقه بعالم الالهيات بالعلم والمعرفة . وقوله تعالى (قد آتيتنى من الملك) اشارة الى تعلق النفس بعالم الأجسام وقوله (وعلمتنى من تأويل الأحاديث) اشارة إلى تعلقها بحضرة جلال الله . ولما كان لا نهاية لدرجات هذين النوعين فى الكمال والنقصان والقوة والضعف والجلاء والخفاء ، امتنع أن يحصل منهما للانسان إلا مقدار متناه ، فكان الحاصل فى الحقيقة بعضا من أبعاض الملك ، وبعضا من أبعاض العلم ، فلهذا السبب ذكر فيه كلمة «من» لأنها دالة على التبعيض . ثم قال (فاطر السموات والأرض) وفيه أبحاث :

﴿البحث الأول﴾ فى تفسير لفظ (الفاطر) بحسب اللغة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما كنت أدرى معنى الفاطر حتى احتكم إلى أعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها وأنا ابتدأت حفرها . قال أهل اللغة : أصل الفطر فى اللغة الشق يقال : فطر ناب البعير إذا بدا وفطرت الشىء فانفطر ، أى شققته فانشق ، وتفطر الأرض بالنبات والشجر بالورق إذا تصدعت . هذا أصله فى اللغة ، ثم صار عبارة عن الايجاد ، لأن ذلك الشىء حال عدمه كأنه فى ظلمة وخفاء فلما دخل فى الوجود صار كأنه انشق عن العدم وخرج ذلك الشىء منه .

﴿البحث الثانى﴾ أن لفظ (الفاطر) قد يظن أنه عبارة عن تكوين الشىء عن العدم المحض بدليل الاشتقاق الذى ذكرناه ، إلا أن الحق أنه لا يدل عليه ويدل عليه وجوه : أحدها : أنه قال (الحمد لله فاطر السموات والأرض) ثم بين تعالى أنه انما خلقها من الدخان حيث قال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) فدل على أن لفظ الفاطر لا يفيد أنه أحدث ذلك الشىء من العدم المحض . وثانيها : أنه تعالى قال (فطرة الله التى فطر الناس عليها) مع أنه تعالى إنما خلق الناس من التراب . قال تعالى

(منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) وثالثها : أن الشيء إنما يكون حاصلا عند حصول مادته وصورته مثل الكوز ، فانه إنما يكون موجودا اذا صارت المادة المخصوصة موصوفة بالصفة المخصوصة ، فعند عدم الصورة ما كان ذلك المجموع موجودا ، وبايجاد تلك الصورة صار موجدا لذلك الكوز . فعلمنا أن كونه موجدا للكون لا يقتضي كونه موجداً لمادة الكوز ، فثبت أن لفظ الفاطر لا يفيد كونه تعالى موجداً للأجزاء التي منها تركبت السموات والأرض ، وإنما صار الينا كونه تعالى موجداً لها بحسب الدلائل العقلية لا بحسب لفظ القرآن .

واعلم أن قوله (فاطر السموات والأرض) يوهم أن تخليق السموات مقدم على تخليق الأرض عند من يقول : الواو تفيد الترتيب ، ثم العقل يؤكده أيضا ، وذلك لأن تعين المحيط يوجب تعين المركز وتعينه فانه لا يوجب تعين المحيط ، لأنه يمكن أن يحيط بالمركز الواحد محيطات لا نهاية لهـا ، اما لا يمكن أن يحصل للمحيط الواحد إلا مركز واحد بعينه . وأيضا اللفظ يفيد أن السماء كثيرة والأرض واحدة ، ووجه الحكمة فيه قد ذكرناه في قوله (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)

﴿البحث الثالث﴾ قال الزجاج : نصبه من وجهين : أحدهما : على الصفة لقوله (رب) وهو نداء مضاف في موضع النصب ، والثاني : يجوز أن ينصب على نداء ثان .

ثم قال ﴿أنت ولي في الدنيا والآخرة﴾ والمعنى : أنت الذي تتولى اصلاح جميع مهماتي في الدنيا والآخرة فوصل الملك الفاني بالملك الباقي ، وهذا يدل على أن الايمان والطاعة كلمة من الله تعالى إذ لو كان ذلك من العبد لكان المتولي لمصالحه هو هو ، وحينئذ يبطل عموم قوله (أنت ولي في الدنيا والآخرة)

ثم قال ﴿توفني مسلما وألحقني بالصالحين﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حكى عن جبريل عليه السلام عن رب العزة أنه قال «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» فلهذا المعنى من أراد الدعاء فلابد وأن يقدم عليه ذكر الثناء على الله فههنا يوسف عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء قدم عليه الثناء وهو قوله (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض) ثم ذكر عقيبه الدعاء وهو قوله (توفني مسلما وألحقني بالصالحين) ونظيره ما فعله الخليل صلوات الله عليه في قوله (الذي خلقني فهو يهدين) فمن هنا الى قوله (رب هب لي حكما) ثناء على الله ثم قوله (رب هب لي) إلى آخر الكلام دعاء فكذا ههنا .

﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا في أن قوله (توفني مسلما) هل هو طلب منه للوفاة أم لا ؟ فقال قتادة : سأل ربه اللحوق به ولم يتمن نبي قط الموت قبله ، وكثير من المفسرين على هذا القول ، وقال ابن رضي الله عنهما : في رواية عطاء يريد إذا توفيتني فتوفني على دين الاسلام فهذا طلب لأن يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه مايدل على أنه طلب الوفاة .

واعلم أن اللفظ صالح للأمرين ولا يبعد في الرجل العاقل إذا كمل عقله أن يتمنى الموت ويعظم رغبته فيه لوجوه كثيرة منها : أن كمال النفس الانسانية على مابيناه في أن يكون عالما بالالهيات ، وفي أن يكون ملكا ومالكا متصرفا في الجسمانيات ، وذكرنا أن مراتب التفاوت في هذين النوعين غير متناهية والكمال المطلق فيهما ليس إلا لله وكل مادون ذلك فهو ناقص والناقص اذا حصل له شعور بنقصانه وذاق لذة الكمال المطلق بقي في القلق وألم الطلب . وإذا كان الكمال المطلق ليس الا لله ، وما كان حصوله للانسان ممتنعا لزم أن يبقى الانسان أبدا في قلق الطلب وألم التعب فاذا عرف الانسان هذه الحالة عرف أنه لاسبيل له إلى دفع هذا التعب عن النفس الا بالموت ، فحينئذ يتمنى الموت .

﴿والسبب الثاني﴾ لتمني الموت أن الخطباء والبلغاء وإن أطنبوا في مذمة الدنيا إلا أن حاصل كلامهم يرجع إلى أمور ثلاثة : أحدها : أن هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفناء والألم الحاصل عند زوالها أشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها . وثانيها : أنها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات والمكدرات . وثالثها : أن الأراذل من الخلق يشاركون الأفاضل فيها بل ربما كان حصة الأراذل أعظم بكثير من حصة الأفاضل . فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات . ولما عرف العاقل أنه لاسبيل الى تحصيل هذه اللذات الامع هذه الجهات الثلاثة المنفرة لاجرم يتمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات .

﴿والسبب الثالث﴾ وهو الأقوى عند المحققين رحمهم الله أجمعين أن هذه اللذات الجسمانية لاحقيقة لها ، وإنما حاصلها دفع الآلام ، فلذة الأكل عبارة عن دفع ألم الجوع . ولذة الوقاع عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب الدغدغة المتولدة من حصول المني في أوعية المني . ولذة الامارة والرياسة عبارة عن دفع الألم الحاصل بسبب شهوة الانتقام وطلب الرياسة وإذا كان حاصل هذه اللذات ليس إلا دفع الألم لاجرم صارت عند العقلاء حقيرة خسيسة نازلة ناقصة وحينئذ يتمنى الانسان الموت ليتخلص عن الاحتياج إلى هذه الأحوال الخسيسة .

﴿والسبب الرابع﴾ أن مداخل اللذات الدنيوية قليلة وهي ثلاثة أنواع . لذة الأكل ولذة الوقاع

ولذة الرياسة ولكل واحدة منها عيوب كثيرة . أما لذة الأكل ففيها عيوب : أحدها : أن هذه اللذات ليست قوية فان الشعور بألم القولنج الشديد والعياذ بالله منه أشد من الشعور باللذة الحاصلة عند أكل الطعام . وثانيها : أن هذه اللذة لايمكن بقاؤها فان الانسان إذا أكل شبع وإذا شبع لم يبق شوقه للالتذاذ بالأكل فهذه اللذة ضعيفة ، ومع ضعفها غير باقية . وثالثها : أنها فى نفسها خسيسة فان الأكل عبارة عن ترطيب ذلك الطعام بالبزاق المجتمع فى الفم ولا شك أنه شىء منفر مستقذر ثم لما يصل إلى المعدة تظهر فيه الاستحالة إلى الفساد والنتن والعفونة . وذلك أيضاً منفر . ورابعها : أن جميع الحيوانات الخسيسة مشاركة ، فيها فان الروث فى مذاق الجعل كاللوزنيج فى مذاق الانسان وكما أن الانسان يكره تناول غذاء الجعل ، فكذلك الجعل يكره تناول غذاء الانسان ، وأما اللذة فمشتركة فيما بين الناس . وخامسها : أن الأكل إنما يطيب عند اشتداد الجوع وتلك حاجة شديدة ، والحاجة نقص وافر . وسادسها : أن الأكل يستحقر عند العقلاء . قيل : من كانت همته مايدخل فى بطنه فقيمته مايخرج من بطنه ، فهذا هو الاشارة المختصرة فى معايب الأكل ، وأما لذة النكاح ، فكل ماذكرناه فى الأكل حاصل ههنامع أشياء أخرى ، وهى ان النكاح سبب لحصول الولد ، وحينئذ تكثر الأشخاص فتكثر الحاجة الى المال فيحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال فى طلب المال بطرق لانهاية لها ، وربما صار هالكا بسبب طلب المال ، وأما لذة الرياسة فعيوبها كثيرة والذى نذكره ههنا سبب واحد وهو أن كل أحد يكره بالطبع أن يكون خادما مأمورا ويحب أن يكون مخدوما آمرا ، فاذا سعى الانسان فى أن يصير رئيسا آمرا . كان ذلك دالا على مخالفة كل ماسواه ، فكأنه ينازع كل الخلق فى ذلك ، وهو يحاول تحصيل تلك الرياسة . وجميع أهل الشرق والغرب يحاولون ابطاله ودفعه ، ولا شك أن كثرة الأسباب توجب قوة حصول الأثر واذا كان كذلك كان حصول هذه الرياسة كالمعتذر ولو حصل فانه يكون على شرف الزوال فى كل حين وأوان بكل سبب من الأسباب وكان صاحبها عند حصولها فى الخوف الشديد من الزوال وعند زوالها فى الأسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال .

واعلم أن العاقل اذا تأمل هذه المعانى علم قطعا أنه لاصلاح له فى طلب هذه اللذات والسعى فى هذه الخيرات البتة . ثم إن النفس خلقت مجبولة على طلبها ، والعشق الشديد عليها ، والرغبة التامة فى الوصول اليها وحينئذ ينعقد ههنا قياس ، وهو أن الانسان مادام يكون فى هذه الحياة الجسمانية فانه يكون طالباً لهذه اللذات وما دام يطلبها كان فى عين الآفات وفى لجة الحسرات ، وهذا اللازم مكروه فالملزوم أيضاً مكروه . فحينئذ يتمنى زوال هذه الحياة الجسمانية والسبب فى الأمور

المرغبة فى الموت أن موجبات هذه اللذة الجسمانية متكررة ولا يمكن الزيادة عليها والتكرير يوجب الملالة . أما سعادات الآخرة فهى أنواع كثيرة غير متناهية .

قال الامام فخر الدين الرازى رحمة الله عليه : وهو مصنف هذا الكتاب أنار الله برهانه . أنا صاحب هذه الحالة والمتوغل فيها ، ولو فتحت الباب وبالغت فى عيوب هذه اللذات الجسمانية فربما كتبت المجلدات وما وصلت إلى القليل منها فلهذا السبب صرت مواظباً فى أكثر الأوقات على ذكر هذا الذى ذكره يوسف عليه السلام . وهو قوله (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين)

(المسألة الثالثة) تمسك أصحابنا فى بيان أن الايمان من الله تعالى بقوله توفنى مسلماً وتقريره أن تحصيل الاسلام وإبقاءه إذا كان من العبد كان طلبه من الله فاسداً . وتقريره كأنه يقول افعل يامن لا يفعل والمعتزلة أبداً يشنعون علينا ويقولون إذا كان الفعل من الله فكيف يجوز أن يقال للعبد افعل مع أنك لست فاعلا . فنحن نقول ههنا أيضاً إذا كان تحصيل الايمان وإبقاؤه من العبد لا من الله تعالى . فكيف يطلب ذلك من الله قال الجبائى والكعبى معناه : اطلب اللطف لى فى الاقامة على الاسلام إلى أن أموت عليه . فهذا الجواب ضعيف لأن السؤال وقع على الاسلام فحمله على اللطف عدول عن الظاهر . وأيضاً كل مافى المقدور من الالطاف فقد فعله فكان طلبه من الله محالا .

(المسألة الرابعة) لقائل أن يقول : الأنبياء عليهم السلام يعلمون أنهم يموتون لا محالة على الاسلام . فكان هذا الدعاء حاصله طلب تحصيل الحاصل وأنه لا يجوز .

والجواب : أحسن ماقيل فيه إن كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقر قلبه على ذلك الاسلام ويرضى بقضاء الله وقدره . ويكون مطمئن النفس منشرح الصدر منفسح القلب فى هذا الباب ، وهذه الحالة زائدة على الاسلام الذى هو ضد الكفر . فالمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى .

(المسألة الخامسة) أن يوسف عليه السلام كان من أكابر الأنبياء عليهم السلام . والصلاح أول درجات المؤمنين . فالواصل الى الغاية كيف يليق به أن يطلب البداية . قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره من المفسرين : يعنى بآبائه إبراهيم وإسمعل وإسحق ويعقوب ، والمعنى : ألحقنى بهم فى ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم . وههنا مقام آخر من تفسير هذه الآية على لسان أصحاب المكاشفات ، وهو أن النفوس المفارقة اذا أشرقت بالأنوار الألهية واللوامع القدسية . فاذا كانت متناسبة متشاكلة

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ «١٠٢» وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ «١٠٣» وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ «١٠٤» وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ «١٠٥» وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ «١٠٦» أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «١٠٧»

انعكس النور الذى فى كل واحدة منها الى الأخرى بسبب تلك الملازمة والمجانسة . فتعظم تلك الأنوار وتقوى تلك الأضواء ، ومثال تلك الأحوال المرآة الصقيلة الصافية اذا وضعت وضعا متى أشرقت الشمس عليها انعكس الضوء من كل واحدة منها الى الأخرى ، فهناك يقوى الضوء ويكمل النور ، وينتهى فى الاشراق والبريق اللمعان الى حد لا تطيقه العيون والأبصار الضعيفة ، فكذا ههنا .

قوله تعالى ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ اعلم أن قوله (ذلك) رفع بالابتدا وخبره (من أنباء الغيب ـ ونوحيه اليك) خبر ثان (وما كنت لديهم) أى ما كنت عند اخوة يوسف (اذ أجمعوا أمرهم) أى عزموا على أمرهم وذكرنا الكلام فى هذا اللفظ عند قوله (فأجمعوا أمركم) وقوله (وهم يمكرون) أى بيوسف ، واعلم أن المقصد من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزا . بيان أنه إخبار عن الغيب أن محمدا صلى الله عليه وسلم ماطالع الكتب ولم يتلمذ لأحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فاتيانه بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ، ومن غير أن يقال : إنه كان حاضرا معهم لابد وأن يكون معجزا وكيف يكون معجزا وقد سبق تقرير هذه المقدمة فى هذا الكتاب مرارا ، وقوله (وما كنت لديهم) أى وما كنت هناك ذكر على سبيل التهكم بهم ، لأن كل أحد يعلم أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان معهم .

قوله تعالى ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من أجر إن هو الا ذكر للعالمين وكاين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ومايومن أكثرهم بالله الا وهم مشركون أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون﴾

اعلم أن وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت . واعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذا ذكرها فربما آمنوا ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة الى ما ذكره الله تعالى فى قوله (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) قال أبو بكر بن الأنبارى : جواب (لو) محذوف ، لأن جواب (لو) لايكون مقدما عليها . فلا يجوز أن يقال : قمت لو قت . وقال الفراء فى المصادر يقال : حرص يحرص حرصا . ولغة أخرى شاذة : حرص يحرص حريصا ، ومعنى الحرص : طلب الشىء بأقصى مايمكن من الاجتهاد . وقوله (وما تسألهم عليه من أجر) معناه ظاهر وقوله (إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هو تذكرة لهم فى دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والقصص والتكاليف والعبادات ، ومعناه : أن هذا القرآن يشتمل على هذه المنافع العظيمة ، ثم لاتطلب منهم مالا ولا جعلا ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا . وقوله تعالى (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) يعنى : أنه لاعجب اذا لم يتأملوا فى الدلائل الدالة على نبوتك ، فان العالم مملوء من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ، ثم إنهم يمرون عليها ولا يلتفتون اليها .

واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة لابد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهى إما الاجرام الفلكية وإما الاجرام العنصرية. أما الاجرام الفلكية : فهى قسمان : إما الأفلاك وإما الكواكب . أما الأفلاك : فقد يستدل بمقاديرها المعينة على وجود الصانع ، وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته . وقد يستدل بأحوال حركاتها . إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالعدم فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها فى سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات . وأما الأجرام الكوكبية فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها فى حصول الأضواء والأظلال والظلمات والنور ، وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام العنصرية . فاما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهى عجائب البر والبحر . وإما من المواليد وهى أقسام : أحدها : الآثار العلوية كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثلج والهواء وقوس قزح . وثانيها : المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها . وثالثها : النبات وخاصية الخشب والورق والثمر واختصاص كل واحد منها بطبع خاص وطعم خاص وخاصية مخصوصة . ورابعها : اختلاف أحوال الحيوانات فى أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها . وخامسها : تشريح أبدان الناس وتشريح القوى الانسانية وبيان المنفعة

قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٠٨»

الحاصلة فيها فهذه مجامع الدلائل . ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين وحكايات الأقدمين وأن الملوك الذين استولوا على الأرض وحربوا البلاد وقهروا العباد ماتوا ولم يبق منهم فى الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقى الوزر والعقاب عليهم هذا ضبط أنواع هذه الدلائل والكتاب المحتوى على شرح هذه الدلائل هو شرح جملة العالم الأعلى والعالم الأسفل والعقل البشرى لا يفى بالاحاطة به فلهذا السبب ذكره الله تعالى على سبيل الابهام قال صاحب الكشاف قرئ (والأرض) بالرفع على أنه مبتدأ و(يمرون) عليها خبره وقرأ السدى (و الأرض) بالنصب على تقدير أن يفسر قوله (يمرون عليها) بقولنا يطوفونها ، وفى مصحف عبدالله (والأرض يمشون عليها) برفع الأرض .

أما قوله ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ فالمعنى : أنهم كانوا مقرين بوجود الاله بدليل قوله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) إلا أنهم كانوا يثبتون له شريكا فى المعبودية ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الذين يشبهون الله بخلقه وعنه أيضا أنه قال : نزلت هذه الآية فى تلبية مشركى العرب لأنهم كانوا يقولون : لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك تملكه وماملك ، وعنه أيضا أن أهل مكة قالوا : الله ربنا وحده لاشريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا ، بل أشركوا ، وقال عبدة الأصنام : ربنا الله وحده والاصنام شفعاؤنا عنده ، وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزيز ابن الله ، وقالت النصارى : ربنا الله وحده لاشريك له والمسيح ابن الله ، وقال عبدة الشمس والقمر : ربنا الله وحده وهؤلاء أربابنا . وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده ولاشريك معه ، واحتجت الكرامية بهذه الآية على أن الايمان عبارة عن الاقرار باللسان فقط ، لأنه تعالى حكم بكونهم مؤمنين مع أنهم مشركون . وذلك يدل على أن الايمان عبارة عن مجرد الاقرار باللسان ، وجوابه معلوم . أما قوله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى عقوبة تغشاهم وتنبسط عليهم وتغمرهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) أى فجأة . وبغتة نصب على الحال يقال : بغتهم الأمر بغتا وبغتة إذا فاجأهم من حيث لم يتوقعوا وقوله (وهم لايشعرون) كالتأكيد لقوله (بغتة)

قوله تعالى ﴿قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١٠٩»

قال المفسرون: قل يا محمد لهم هذه الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها سبيلي وسنتي ومنهاجي، وسمى الدين سبيلا لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، ومثله قوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك)

واعلم أن السبيل في أصل اللغة الطريق. وشبهوا المعتقدات بها لما أن الانسان يمر عليها إلى الجنة ادعو الله على بصيرة وحجة وبرهان أنا ومن اتبعني إلى سيرتي وطريقتي وسيرة أتباعي الدعوة إلى الله، لأن كل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو أن يكون على بصيرة مما يقول وعلى هدى ويقين، فان لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال عليه الصلاة والسلام «العلماء أمناء الرسل على عباد الله من حيث يحفظون لما تدعونهم اليه» وقيل أيضا يجوز أن ينقطع الكلام عند قوله (أدعوا إلى الله) ثم ابتدأ وقال (على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقوله (وسبحان الله) عطف على قوله (هذه سبيلي) أي قل هذه سبيلي. وقل سبحان الله. تنزيها لله عما يشركون. وما أنا من المشركين الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا وكفؤا وولدا، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله مابعثهم إلى الخلق إلا لأجلها.

قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾

اعلم أنه قرأ حفص عن عاصم (نوحي) بالنون. والباقون بالياء (أفلا يعقلون) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو. ورواية حفص عن عاصم: (تعقلون) بالتاء على الخطاب، والباقون: بالياء على الغائب.

واعلم أن من جملة شبه منكري نبوته عليه الصلاة والسلام أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا، فقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى) فلما كان الكل

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ «١١٠»

هكذا فكيف تعجبوا فى حقك يامحمد والآية تدل على أن الله مابعث رسولا الى الخلق من النسوان وأيضا لم يبعث رسولا من أهل البادية . قال عليه الصلاة والسلام «من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل»

ثم قال ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا﴾ الى مصارع الأمم المكذبة وقوله (ولدار الآخرة خير) والمعنى دار الحالة الآخرة ، لأن للناس حالتين حال الدنيا وحال الآخرة ، ومثله قوله صلاة الأولى أى صلاة الفريضة الأولى . وأما بيان أن الآخرة خير من الأولى فقد ذكرنا دلائله مرارا .

قوله تعالى ﴿حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين﴾

اعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائى (كذبوا) بالتخفيف ، وكسر الذال والباقون بالتشديد . ومعنى التخفيف من وجهين : أحدهما : أن الظن واقع بالقوم ، أى حتى اذا استيأس الرسل من إيمان القوم فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر .

فان قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم .

قلنا : ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وإن شئت قلت ان ذكرهم جرى فى قوله (أفلم يسيروا الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيكون الضمير عائدا إلى الذين من قبلهم من مكذبى الرسل والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان .

﴿والوجه الثانى﴾ أن يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا وهذا التأويل منقول عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما قالوا : وانما كان الأمر كذلك لأجل ضعف البشرية إلا أنه بعيد، لأن المؤمن لايجوز أن يظن بالله الكذب ، بل يخرج بذلك عن الايمان فكيف يجوز مثله على الرسل ، وأما قراءة التشديد ففيها وجهان : الأول : أن الظن بمعنى اليقين ، أى وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبا لايصدر منهم الايمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير فى القرآن قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) أى يتيقنون ذلك . والثانى : أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «١١١»

حتى اذا استيأس الرسل من ايمـان قومهم فظن الرسل ان الذين آمنوا بهم كذبوهم وهذا التأويل منقول عن عائشة رضى الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة فى الآية . روى أن ابن أبى مليكة نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : وظن الرسل أنهم كذبوا ، لأنهم كانوا بشرا ألاترى إلى قوله (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) قال فذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها فأنكرته وقالت : ماوعد الله محمدا صلى الله عليه وسلم شيئا إلا وقد علم أنه سيوفيه ولكن البلاء لم يزل بالأنبياء حتىخافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوابهم وهذا الرد والتأويل فىغاية الحسن من عائشة .

وأما قوله ﴿جاءهم نصرنا﴾ أى لما بلغ الحال الى الحد المذكور (جاءهم نصرنا فنجى من نشاء) قرأ عاصم وابن عامر (فنجى من نشاء) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء على مالم يسم فاعله ، واختاره أبو عبيدة لأنه فى المصحف بنون واحدة . وروى عن الكسائى : إدغام إحدى النونين فى الأخرى وقرأ بنون واحدة وتشديد الجيم وسكون الياء ، قال بعضهم : هذا خطأ لأن النون متحركة فلا تدغم فى الساكن ، ولا يجوز إدغام النون فى الجيم ، والباقون بنونين . وتخفيف الجيم وسكون الياء على معنى : ونحن نفعل بهم ذلك .

واعلم أن هذا حكاية حال ، ألاترى أن القصة فيما مضى ، وإنما حكى فعل الحال كما أن قوله (هذا من شيعته وهذا من عدوه) إشارة الى الحاضر والقصة ماضية .

قوله تعالى ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾

اعلم أن الاعتبار عبارة عن العبور من الطرف المعلوم الى الطرف المجهول ، والمراد منه التأمل والتفكر ، ووجه الاعتبار بقصصهم أمور : الأول : أن الذى قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه فى الجب ، وإعلائه بعد حبسه فى السجن ، وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبدلهم ، وجمعه مع والديه وإخوته على ماأحب بعد المدة الطويلة ، لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته . الثانى : أن الاخبار عنه جار مجرى الاخبار عن الغيب ، فيكون معجزة دالة على صدق محمد

محمد صلى الله عليه وسلم . الثالث : أنه ذكر فى أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) ثم ذكر فى آخرها (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الباب) تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة . والمراد من قصصهم قصة يوسف عليه السلام وإخوته وأبيه ، ومن الناس من قال : المراد قصص الرسل لأنه تقدم فى القرآن ذكر قصص سائر الرسل إلا أن الأولى أن يكون المراد قصة يوسف عليه السلام .

فان قيل :لم قال (عبرة لأولى الألباب) مع أن قوم محمد صلى الله عليه وسلم كانوا ذوى عقول وأحلام . وقد كان الكثير منهم لم يعتبر بذلك .

قلنا : إن جميعهم كانوا متمكنين من الاعتبار ، والمراد من وصف هذه القصة بكونها عبرة كونها بحيث يمكن أن يعتبر بها العاقل ، أو نقول : المراد من أولى الألباب الذين اعتبروا و تفكروا وتأملوا فيها وانتفعوا بمعرفتها ، لأن (أولى الألباب) لفظ يدل على المدح والثناء فلا يليق إلا بما ذكرناه . واعلم أنه تعالى وصف هذه القصة بصفات .

﴿الصفة الأولى﴾ كونها (عبرة لأولى الألباب) وقد سبق تقريره .

﴿الصفة الثانية﴾ قوله (ماكان حديثا يفترى) وفيه قولان : الأول : أن المراد الذى جاء به وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه أن يفترى لأنه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء فمن المحال أن يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد فى التوراة من غير تفاوت ، والثانى : أن المراد أنه ليس يكذب فى نفسه ، لأنه لا يصح الكذب منه ، ثم إنه تعالى أكد كونه غير مفترى فقال (ولكن وتصديق الذى بين يديه) وهو اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما فى التوراة وسائر الكتب الالهية . ونصب تصديقا على تقدير ولكن كان تصديق الذى بين يديه كقوله تعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله) قاله الفراء والزجاج . ثم قال : ويجوز رفعه فى قياس النحو على معنى : ولكن هو تصديق الذى بين يديه :

﴿والصفة الثالثة﴾ قوله (وتفصيل كل شىء) وفيه قولان : الأول : المراد وتفصيل كل شىء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته ، والثانى : أنه عائد الى القرآن ، كقوله (مافرطنا فى الكتاب من شىء) فان جعل هذا الوصف وصفا لكل القرآن أليق من جعله وصفا لقصة يوسف وحدها ، ويكون المراد : مايتضمن من الحلال والحرام وسائر مايتصل بالدين . قال الواحدى على التفسيرين جميعا : فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله (ورحمتى وسعت كل شىء) يريد : كل شىء يجوز أن يدخل فيها وقوله (وأوتيت من كل شىء)

﴿الصفة الرابعة والخامسة﴾ كونها هدى فى الدنيا وسببا لحصول الرحمة فى القيامة لقوم يؤمنون خصهم بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا به كما قررناه فى قوله (هدى للمتقين) والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الاربعاء السابع من شعبان ، ختم بالخير والرضوان . سنة احدى وستمائة ، وقد كنت ضيق الصدر جدا بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران وخصه بدرجات الفضل والاحسان وذكرت هذه الابيات فى مرثيته على سبيل الايجاز :

فلو كانت الأقـــدار منقادة لنا فديناك من حماك بالروح والجسم
ولو كانت الأملاك تأخذ رشوة خضعنا لها بالرق فى الحكم والاسم
ولـكنه حكم إذا حان حينـــه سرى من مقر العرش فى لجة اليم
سأبكى عليك العمر بالدم دائما ولم أنحرف عن ذاك فى الكيف والكم
سلام عـــلى قبر دفنت بتربه وأتحفك الرحمن بالكرم الجم
وماصدنى عن جعل جفنى مدفنا لجسمك إلا أنه أبدا يهمى
وأقسم إن مسوا رفاتى ورمتى أحسوا بنار الحزن فى مكمن العظم
حياتى وموتى واحد بعد بعدكم بل الموت أولى من مداومة الغم
رضيت بمـا أمضى الاله بحكمـــه لعلمى بأنى لا يجاوزنى حكمى

وأنا أوصى من طالع كتابى واستفاد مافيه من الفوائد النفيسة العالية أن يخص ولدى ويخصنى بقراءة الفاتحة . ويدعو لمن قد مات فى غربة بعيدا عن الاخوان والأب والأم بالرحمة والمغفرة فانى كنت أيضاً كثير الدعاء لمن فعل ذلك فى حق وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا آمين والحمد لله رب العالمين .

سورة الرعد

مدنية . وآياتها : ٤٣ ، نزلت بعد سورة محمد



المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ «١»

سورة الرعد

أربعون وثلاث آيات مكية

سوى قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) وقوله (ومن عنده علم الكتاب) قال الأصم هى مدنية بالاجماع سوى قوله تعالى (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ اعلم أنا قد تكلمنا فى هذه الألفاظ قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه : أنا الله أعلم . وقال فى رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن . وقد أمالها أبو عمرو والكسائى وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله (تلك) إشارة إلى آيات السورة المسماة بالمر . ثم قال : إنها آيات الكتاب . وهذا الكتاب الذى أعطاه محمداً بأن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر وقوله (والذى أنزل اليك من ربك) مبتدأ وقوله (الحق) خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى نفى القياس فقال : الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله وإلا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله تعالى (ومن لم يحكم

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ «٢»

بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وبالاجماع لا يكفر فثبت أن الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عندالله . وإذا كان كذلك وجب أن لايكون حقاً لأجل أن قوله (والذى أنزل اليك من ربك الحق) يقتضى أنه لاحق إلا ما أنزله الله فكل مالم ينزله الله وجب أن لايكون حقاً ، وإذا لم يكن حقا وجب أن يكون باطلا لقوله تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال) ومثبتو القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضاً من عندالله ، لأنه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذى دل عليه القياس نازلا من عندالله . ولما ذكر تعالى أن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق بين أن أكثر الناس لايؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد .

قوله تعالى ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن أكثر الناس لايؤمنون ذكر عقيبه مايدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف : اللهمبتدأ والذى رفع السموات خبره بدليل قوله (وهو الذى مد الأرض) ويجوز أن يكون الذى رفع السموات صفة وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات) خبرا بعد خبر ، وقال الواحدى : العمد الأساطين وهو جمع عماد يقال عماد وعمد مثل اهاب وأهب . وقال الفراء : العمد والعمد جمع العمود مثل أديم وادم وادم ، وقضيم وقضم وقضم . والعماد والعمود مايعمد به الشيء . ومنه يقال : فلان عمد قومه إذا كانوا يعتمدون نه فيما بينهم

﴿المسألة الثانية﴾ اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الأرض وبأحوال النبات ، أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى : أن هذه الاجسام العظيمة بقيت واقفة فى الجو العالى ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذواتها لوجهين . الأول : أن الاجسام متساوية فى تمام الماهية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصول كل جسم فى ذلك الحيز . والثانى : أن الخلاء لانهاية له والاحياز المعترضة فى ذلك

الخلاء الصرف غير متناهية وهى بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم فى حيز معين لوجب حصوله فى جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز بأسرها متشابهة فثبت أن حصول الأجرام الفلكية فى أحيازها وجهاتها ليس أمراً واجباً لذاته بل لابد من مخصص ومرجح، ولا يجوز أن يقال إنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها، وإلا لعاد الكلام فى ذلك الحافظ ولزم المرور إلى مالا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية فى أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك. فهذا برهان قاهر على وجود الاله القاهر القادر. ويدل أيضاً على أن الاله ليس بجسم ولا مختص بحيز، لأنه لو كان حاصلا فى حيز معين لامتنع أن يكون حصوله فى ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الاحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله فى حيز معين لذاته فلابد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ماحصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لاتنفك عن ذلك الاختصاص. ومالايخلو عن الحادث فهو حادث. فثبت أنه لو كان حاصلا فى الحيز المعين لكان حادثاً. وذلك محال، فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة، وأيضا كل ماسماك فهو سماء، فلو كان تعالى موجوداً فى جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) فكل ماكان مختصاً بجهة فوق جهة فهو محتاج إلى حفظ الاله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الاله منزها عن جهة فوق. أما قوله (ترونها) ففيه أقوال: الأول: أنه كلام مستأنف والمعنى: رفع السموات بغير عمد. ثم قال (ترونها) أى وأنتم ترونها أى مرفوعة بلا عماد. الثانى: قال الحسن فى تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره: رفع السموات ترونها بغير عمد.

واعلم أنه اذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير إلى التقديم والتأخير غير جائز. والثالث: أن قوله (ترونها) صفة للعمد. والمعنى: بغير عمد مرئية، أى للسموات عمد. ولكنا لانراها قالوا: ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لاترونها. وهذا التأويل فى غاية السقوط، لأنه تعالى انما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الاله القادر. ولو كان المراد ماذكروه لما ثبتت الحجة: لأنه يقال إن السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأى دلالة لثبوتها على وجود الاله، وعندى فيه وجه آخر أحسن من الكل. وهو أن العماد مايعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الاجسام انما بقيت واقفة فى الجو العالى بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى. فنتج أن يقال إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أى لها عمد فى الحقيقة إلا أن تلك العمد هى قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وابقاؤه إياها فى الجو العالى وأنهم لايرون ذلك التدبير

ولا يعرفون كيفية ذلك الامساك .

وأما قوله ﴿ثم استوى على العرش﴾ فاعلم أنه ليس المراد منه كونه مستقرا على العرش ، لأن المقصود من هذه الآية ذكر مايدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهدا معلوما وأن أحدا ما رأى أنه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضا بتقدير أن يشاهد كونه مستقرا على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله . بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز . وأيضا فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة ، وذلك يوجب التغير وأيضاً الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجا مضطرباً ثم صار مستوياً وكل ذلك على الله محال ، فثبت أن المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعنى أن من فوق العرش إلى ماتحت الثرى فى حفظه وفى تدبيره وفى الاحتياج اليه . وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر : فهو قوله سبحانه وتعالى (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى)

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة :

﴿النوع الأول﴾ قوله (وسخر الشمس والقمر) وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام . وذلك لأن الأجسام متماثلة فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لابد له من مخصص . وأيضاً أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضاً من مخصص لاسيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك فى بعض الأحياز وتسكن فى البعض فحصول الحركة فى ذلك الحيز المعين والسكون فى الحيز الآخر لابد فيه أيضاً من مرجح .

﴿الوجه الثالث﴾ وهو أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر .

﴿والوجه الرابع﴾ أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة إلى الشمال وبعضها مائلة إلى الجنوب وهذا أيضاً لايتم إلا بتدبير كامل وحكمة بالغة .

﴿النوع الثانى﴾ من الدلائل المذكورة فى هذه الآية قوله (كل يجرى لأجل مسمى) وفيه قولان: الأول : قال ابن عباس : للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم فى ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها فى ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا . فالمراد بقوله (كل يجرى لأجل مسمى) هذا . وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه

الكواكب سيرا خاصا إلى جهة خاصة بمقدار خاص من للسرعة والبطء ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك .

﴿والقول الثانى﴾ أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة ، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك فى قوله (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت . وإذا السماء انشقت . وإذا السماء انفطرت . وجمع الشمس والقمر) وهو كقوله سبحانه وتعالى (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال (يدبر الأمر) وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والأولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالايجاد والاعدام وبالاحياء والاماتة والاغناء والافقار ، ويدخل فيه إنزال الوحى وبعثة الرسل وتكليف العباد . وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لأن هذا العالم المعلوم من أعلى العرش إلى ماتحت الثرى أنواع وأجناس لايحيط بها الا الله تعالى ، والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ، ليس إلا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فانه لايمكنه تدبير شيء آخر إلا البارى سبحانه وتعالى فانه لايشغله شأن عن شأن أما العاقل فانه إذا تأمل فى هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجسام وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات .

ثم قال ﴿يفصل الآيات﴾ وفيه قولان : الأول : أنه تعالى بين الآيات الدالة على إلهيته وعلمه وحكمته . والثانى : أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان : أحدهما : الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك والشمس والقمر والكواكب ، وهذا النوع من الدلائل هو الذى تقدم ذكره . والثانى : الموجودات الحادثة المتغيرة ، وهى الموت بعد الحياة ، والفقر بعد الغنى ، والهرم بعد الصحة ، وكون الأحمق فى أهنأ العيش ، والعاقل الذكى فى أشد الأحوال ، فهذا النوع من الموجودات والأحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة . وقوله (يفصل الآيات) إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل .

ثم قال ﴿لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهى أيضاً تدل على صحة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى يروى أن رجلا قال لعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه أنه تعالى كيف

يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة . وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على ابقاء الاجرام الفلكية والنيرات الكوكبية فى الجو العالى وان كان الخلق عاجزين عنه . وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ماتحت الثرى بحيث لايشغله شأن عن شأن فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن ومن الاصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى وقد مر تقريره فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا .

تم الجزء الثامن عشر ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع عشر ، وأوله قوله تعالى ﴿وهو الذى مد الأرض﴾ من سورة الرعد . أعان الله على إكماله

فهرست

الجزء الثامن عشر

من التفسير الكبير للامام الفخر الرازى

صفحة

صفحة

صفحة

تم الفهرس